

الأعمال الكاملة
انطون تشيكوف

الأعمال الكاملة

انطون تشيكوف

الجزء الثانى

القصص القصيرة

أسامة عبد الرحمن





مقدمة

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلومات والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسات الأمة العربية إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسات برنامج ترجم، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة



الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التبشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل المؤسسات في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيدا عمليا لرسالة المؤسسات الثقافية المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

وعلى هذا النهج سرت بدعم من الدار الذهبية ولقد قمت باستبعاد بعض الأعمال التي توسمت فيها ما لا يليق بالأخلاق الإسلامية كما لم اقم بعمل المسرحيات.

أسامة عبد الرحمن



الراهب الأسود

أصيب أندريه فاسيليفتش كوفرين صاحب الماجستير في الفلسفة بالإرهاق وانهارت أعصابه لكنه لم يعالج، بل تحدث ذات مرة، بصورة عابرة، مع طبيب من أصدقائه وهما يحتسيان الخمر، فنصحته هذا بقضاء الربيع والصيف في الريف وبالمناسبة فقد تلقى رسالة طويلة من تانيا بيسوتسكايا، طلبت منه فيها أن يأتي إلى ضيافتهم في بوريسوفكا فقرر أنه بالفعل بحاجة إلى السفر.

في البداية وكان ذلك في أبريل سافر إلى ضيعة عائلتهم كوفرينكا، حيث أمضى هناك وحيدا ثلاثة أسابيع ثم انتظر حتى أصبحت الطرق صالحة، فسافر بالخيول إلى وصيه ومربيه السابق بيسوتسكى خبير البساتين المعروف في روسيا كلها كانت المسافة من كوفرينكا إلى بوريسوفكا، حيث كان يعيش آل بيسوتسكى، لا تزيد على سبعين فرسخا، وكان السفر على طريق ربيعى لين، وفي عربة مريحة بزئيركات متعة حقيقية.



كان منزل بيسوتسكى ضخماً، بأعمدة وأسود تساقط منها الملاط، وبحاجب يقف في الفراك بجوار المدخل.

وامتدت حديقة عتيقة، جهمة وصارمة، مخططة على الطريقة الإنجليزية، حوالى فرسخ كامل من المنزل حتى النهر، وانتهت هنا بشاطئ طيني جرفى منحدر بشدة، نمت فوقه صنوبرات بجذور عارية تشبه المخالب الكثّة وفي الأسفل لمعت المياه بعزلة وخواء، وحلقت طيور البكاشين بزعيق شاك، وكان يسود هنا دائماً مزاج خاص يغرى بتأليف الأناشيد الملحمية ولكن بجوار المنزل، في فناءه وفي بستان الفواكه الذي كان يشغل مع المشاتل حوالي ثلاثين ديسياتينا) الديسياتينا مقياس روسى قديم لمسطح الأرض يعادل 1.09 هكتار)، كان الجو مرحاً ومفعماً بالفرحة حتى في الطقس السيئ لم ير كوفرين في أي مكان آخر مثل هذه الورود المدهشة والزنابق والكاميليا، مثل هذه الأقحوانات العديدة الألوان، ابتداء من الأبيض الناصع وانتهاء بالأسود كالسناج، وعموماً مثل هذه الثروة من الزهور التي كانت لدى بيسوتسكى كان الربيع قد بدأ لتوه، وكانت الروعة الحقيقية لأحواض الزهور لا تزال مختبئة بعد في الدفيئات، ومع ذلك فقد كان ما يزدهر منها بحذاء الممرات، وهنا وهناك في الخمائل كافيا لكي تشعر - وأنت تتجول في البستان- بأنك في



ملكوت الألوان الرقيقة، وخاصة في ساعات الصباح الباكر، عندما يلمع الندى على كل ورقة.

أما قسم الديكور من البستان، والذي كان بيسوتسكى نفسه يسميه في احتقار بالتوافه، فقد ترك في نفس كوفرين أيام الطفولة انطبعا خيالاً أية شواذ ومسوخ منتقاة بدقة، وتشويهاً للطبيعة كانت هنا كان هنا تكعيبات من أشجار الفواكه، وشجرة كمثرى على شكل حور هرمى، وأشجار بلوط وزيزفون على صورة كرات، ومظلة من شجرة تفاح، وأقواس وزخارف وشمعدانات، بل وحتى رقم 1892 من أشجار البرقوق - الرقم المشير إلى السنة التي بدأ فيها بيسوتسكى يزاول فلاحه البساتين، وكنت ترى هنا أحياناً شجيرات جميلة باسقة، بجذوع مستقيمة وقوية كجذوع النخل، ولكن إذا ما حدقت فيها بإمعان تعرفت في هذه الشجيرات على غيب الثعلب أو الزبيب الرومي أما أكثر ما كان يضيفي البهجة والرونق الحي على البستان، فهو الحركة الدائبة فمن الصباح الباكر وحتى المساء كان أناس بعريات ومجارف ورشاشات ينقبون كالنمل حول الأشجار والخمائل وفي الممرات والأحواض.

وصل كوفرين إلى آل بيسوتسكى مساءً، في حوالي العاشرة ووجد تانيا وأباها يجور سيميونييتش في قلق بالغ فقد كانت السماء



الصافية النجمية والترمومتر ينبئان بصقيع في الصباح، بينما رحل البستاني إيفان كارلتيش إلى المدينة، ولم يكن هناك من يعتمد عليه وأثناء العشاء دار الحديث فقط عن صقيع الصباح، وتقرر ألا تذهب تانيا إلى الفراش، وفي الساعة الواحدة تتجول في البستان لترى هل كل شيء على ما يرام، أما يجور سيميونيشتس فسيستيقظ في الساعة الثالثة أو ربما قبل ذلك.

جلس كوفرين مع تانيا المساء كله، وبعد منتصف الليل مضى معها إلى البستان كان الجو باردا وفاحت في الفناء بشدة رائحة الدخان ففي بستان الفواكه الكبير الذي كان يدعى بالتجاري وكان يعود على يجور سيميونيشتس بدخل صاف يبلغ عدة آلاف روبل سنوياً، انتشر فوق الأرض دخان أسود كثيف خائق وغطى الأشجار لينقذ من الصقيع هذه الآلاف كانت الأشجار موزعة هنا بنظام رقعة الشطرنج، وكانت صفوفها مستقيمة منتظمة، كأنها طوابير جنود، فأضفى هذا الانتظام الصارم الدقيق، مع كون الأشجار كلها بارتفاع واحد، وأغصان وجذوع متشابهة تماماً، أضفى على الصورة طابع الرتابة، بل والملل سار كوفرين وتانيا عبر صفوف الأشجار التي كانت تشتعل بجوارها أكوام من الروث والقش وشتى المخلفات، وكانا أحياناً يقابلان عمالاً يحومون في الدخان كالظلال لم تكن مزهرة



سوى أشجار الكرز والبرقوق وبعض أنواع التفاح، بيد أن البستان كله كان غارقاً في الدخان، فلم يتنفس كوفرين بملء رئتيه إلا بجوار المشاتل قال وهو يهز كتفيه:

منذ الطفولة كنت أعطس هنا من الدخان ولكني حتى الآن لا أفهم كيف يستطيع الدخان أن يحمي من الصقيع.

فأجابت تانيا: - الدخان يحل محل السحب عندما لا تكون موجودة.

وما الحاجة إلى السحب؟ - في الجو الملبد بالسحب لا يحل الصقيع صباحاً.

هكذا وضحك وأمسك يدها كان وجهها العريض، الجاد للغاية والمقرور وذو الحاجبين الأسودين الدقيقين، وياقة معطفها المرفوعة التي كانت تعوق رأسها عن التحرك بحرية، وهي كلها، النحيلة الممشوقة، في فستانها المرفوع قليلاً حتى لا يبيله الندى، تثير فيه الدهشة والتأثر.

وقال: - يا إلهي، لقد أصبحت كبيرة عندما سافرت من هنا آخر مرة، منذ حوالي خمس سنوات، كنت بعد طفلة تماماً كنت نحيلة جداً، طويلة الساقين، حاسرة الرأس، ترتدين فستاناً قصيراً، وكنت



أغيطك بالكركى ماذا يفعل الزمن؟.

فتتهدت تانيا: - نعم، خمس سنوات كم مر منذ ذلك الحين قل لي يا أندريوشا بصدق- قالت بحيوية وهي تحديق في وجهه: هل نسييتنا؟ وعموما فما لي أسأل؟ أنت رجل، تحيا الآن حياتك الخاصة، الشيقة، أنت شخص بارز والاغتراب طبيعى تماماً ولكن مهما كان يا أندريوشا، فإنني أود أن تعتبرنا أهلك ولنا الحق في ذلك.

- أنا أعتبركم يا تانيا - أن تقول الحق؟ - نعم، أقول الحق.

- أدهشك اليوم أن لدينا هذه الكثرة من صورك ولكنك تعرف أن أبي معجب بك وأحياناً يخيل إلى أنه يحبك أكثر مني إنه فخور بك فأنت عالم، رجل فذ، وقد شققت لنفسك مستقبلاً باهراً، وهو واثق من أنك أصبحت كذلك.

لأنه هو الذي رباك وأنا لا أصرفه عن هذا الاعتقاد ليكن.

حل الفجر وكان هذا ملحوظاً بصفة خاصة من ذلك الوضوح الذي أخذت تبرز به في الهواء أعمدة الدخان وأغصان الأشجار وصدحت البلابل، وتناهى من الحقول صباح السمان.

وقالت تانيا:

ولكن حان الوقت لننام ثم إن الجو بارد - وتأبطت ذراعه - شكرا



يا أندريوشا على مجيئك معارفنا هنا ليسوا ممتعين، وحتى هؤلاء قليلون ليس لدينا سوى البستان، البستان، البستان، ولا شيء غيره وقالت ضاحكة - شتامب، نصف شتامب، أوبورتو، رينيت، بوروفينكا، التلقيح، التطعيم.. حياتنا كلها ابتلعها البستان، حتى إنني لا أحلم أبداً بشيء سوى بأشجار التفاح والكمثرى بالطبع هذا حسن، مفيد، ولكني أحياناً أتوق أيضاً إلى شيء آخر من أجل التتويج أذكر عندما كنت تأتي إلينا في الإجازات أو هكذا بلا مناسبة، كان جو المنزل يصبح أكثر انتعاشاً وإشراقاً، كما لو كانت الأغطية قد نزعّت عن النجف والآثاث كنت أنا طفلة آنذاك، ومع ذلك كنت أفهم.

تحدثت طويلاً وبعاطفة قوية.

ولسبب ما دار بذهنه أنه من الجائز خلال الصيف أن يتعلق بهذا المخلوق الصغير الضعيف الكثير الكلام، ويغرم به ويحبه ففي مثل وضعهما كان هذا شيئاً محتملاً جداً وطبيعياً؛ وفتنته هذه الفكرة وأضحكته، فمال إلى الوجه الرقيق المهموم وغني بصوت خافت:

أنيجين، لن أخفي حبي شامب: اسم جذع الشجرة من الجذر إلى الفروع أوبورتو، رينيت، بوروفينكا: أسماء أنواع من التفاح.

حينما عادا إلى المنزل كان يجور سيميو نيتش قد استيقظ ولم



يشعر كو فرين برغبة في النوم فاندمج في الحديث مع العجوز، وعاد معه إلى البستان كان يجور سيمونيتش طويل القامة، عريض المنكبين، بكرش كبير، وكان يعاني من اللهاث، ولكنه كان يسير دائماً بسرعة إلى درجة يصعب معها اللحاق به وكان مظهره ينم عن القلق البالغ، يسرع دائماً إلى مكان ما وعلى وجهه تعبير، كأنما لو تأخر دقيقة واحدة لضاع كل شيء.

يا لها من حكاية يا أخى متوقفاً بين الحين والحين ليلتقط أنفاسه على سطح الأرض صقيع كما ترى، ولو رفعت الترمومتر على عصا لمسافة ذراعين فوق الأرض فستجد الجو دافئاً فلماذا هكذا؟ فقال كوفرين ضاحكاً

- لا أدري حقاً.

- أم.. طبعاً لا يمكن معرفة كل شيء مهما كان العقل واسعاً فلن يتسع لكل شيء أنت مهتم أكثر بالفلسفة، أليس كذلك؟.

- بلي، أقرأ محاضرات في علم النفس، ولكنني أشتغل عموماً بالفلسفة - ألا تمل؟

- بالعكس، لا أحيا إلا على ذلك.

وفقك الله - قال يجور سيمونيتش وهو يمس سالفه الأشيبيين



متفكراً وفقك الله أنا مسرور جداً من أجلك مسرور يا أخي.

ولكنه أصاخ السمع فجأة، وأصبح وجهه رهيباً، وركض جانباً، وسرعان ما غاب وراء الأشجار في سحب الدخان.

من أوبرا تشايكوفسكي ديفجيني أنيجين المأخوذ عن رواية بوشكين الشعرية وتانيا هواسم التدليل من الاسم الكامل تاتيانا.

من هذا الذي ربط الحصان إلى شجرة التفاح؟- تناهت صرخته البائسة الملتاعة من هذا الوغد المحتال الذي تجاسر على ربط الحصان إلى شجرة التفاح؟ يا إلهي يا إلهي أفسدوا البستان، دنسوه، لوئوه ضاع البستان هلك البستان يا إلهي.

وعندما عاد إلى كوفرين كان وجهه منها، وقال بصوت باك وهوبشيح بيديه:

- ماذا أفعل لهؤلاء الملاحين؟ ستيوبكا نقل الروث ليلاً وربط الحصان إلى شجرة التفاح لف عليها الوغد اللجام بشدة، حتى إن اللحاء جرح في ثلاثة مواضع هل رأيت؟ أقول له وهو لا يفقه شيئاً بل يطرف بعينه: قليل عليه الشنق.

وإذ هدأت ثورته عانق كوفرين وقبله في خده ودمددم:

حسنًا، وفقك الله وفقك الله أنا سعيد جداً بمجيئك سعيد سعادة



لا توصف شكراً لك.

وبعد ذلك، وبنفس المشية السريعة والوجه المهموم، طاف بالبستان كله، وفرج ربيبه السابق على المشاتل والدفئيات وحظائر التربة ومنحليه اللذين كان يسميهما أعجوبة هذا القرن.

وأثناء طوافهما أشرقت الشمس وأضاءت البستان بنور ساطع وانتشر الدفء وإذ توقع كوفرين يوماً طويلاً صافياً مرحاً، تذكر أن ذلك ليس إلا بداية مايو، وأن الصيف كله ما زال أمامه، صيف طويل صافٍ مرح مثل هذا اليوم، وفجأة تحرك في قلبه إحساس فرح فتى كذلك الذي كان يراوده في الطفولة عندما كان يركض في هذا البستان وإذا به يعانق العجوز ويقبله برقة ومضيا كلاهما إلى البيت منفعلين، وشرعا يشربان الشاي من أقداح خزفية عريقة مع الكريم والكعك الدسم المشبع وذكرت هذه التفاصيل كوفرين بطفولته وصباه مرة أخرى واتحد الحاضر الرائع بصور الماضي التي استيقظت فيه، فضاقت بهما روحه، ولكنه أحس بالراحة.

وانتظر حتى استيقظت تانيا، فشرب معها القهوة، وتنزه، ثم ذهب إلى غرفته وجلس يعمل كان يقرأ بإمعان، ويسجل ملاحظات، وأحياناً يرفع بصره وينظر إلى النوافذ المفتوحة أو إلى الزهور النضرة التي لا تزال مبللة بالندى والموضوعة في أصيص على الطاولة، ثم يعود ببصره



إلى الكتاب، وبدا له أن كل عرق في بدنه ينتفض ويرقص من المتعة.

وظل في الريف يواصل نفس الحياة القلقة المضطربة التي كان يحياها في المدينة كان يقرأ ويكتب كثيراً، ويتعلم اللغة الإيطالية، وعندما يتنزه كان يفكر بلذة في أنه سيعود ليوصل العمل قريباً وكان ينام قليلاً جداً لدرجة أثارت دهشة الجميع فإذا نعس في النهار صدفه لنصف ساعة فلا ينام الليل، وبعد ليلة من السهاد يشعر بالحيوية والمرح وكأن شيئاً لم يكن.

كان يتحدث كثيراً، ويحتسي النبيذ ويدخن السيجار الفاخر وكانت آنسات من جارات تانيا زرن آل بيسوتسكى كثيراً، كل يوم تقريباً، ويعزفن مع تانيا على البيانو ويعنين وأحياناً كان يأتي شاب جارهم، يعزف جيداً على الكمان.

وكان كوفرين يستمع إلى العزف والغناء بنهم ويرهق منهما، وكان الإحساس الأخير يتجلى بدنياً في انطباق جفنيه وميل رأسه جانباً.

وذات مرة جلس بعد شاي المساء في الشرفة يقرأ وفي تلك الأثناء كانت تانيا في غرفة الجلوس تغنى سوبرانو، وإحدى الأنسات تغنى كونتر التو والشاب يعزف على الكمان، وهم يتدربون على سير نادا براج المعروفة وأصغي كوفرين إلى الكلمات وكانت بالروسية



ولم يستطع أبداً أن يفهم معناها وأخيراً ترك الكتاب وأصاخ بإمعان ففهم: سمعت فتاة مصابة بالوهم في الحديقة ليلاً أصواتاً غامضة، رائعة وغريبة إلى درجة كان ينبغي معها أن تعتبرها هارمونياً مقداً، ليس مفهوماً لنا نحن الفنانين ولهذا يعود أدراجه طائراً إلى السماء. وأخذ جفنا كوفرين ينطبقان فنهض وتمشي في غرفة الجلوس مرهقاً، ثم في الصالة وعندما توقف الغناء تأبط ذراع تانيا وخرج معها إلى الشرفة وقال:

- منذ الصباح تشغل بالي إحدى الأساطير لا أذكر هل قرأتها في كتاب ما أو سمعتها، ولكنها أسطورة غريبة، لا مثيل لها فهي قبل كل شيء لا تتميز بالوضوح فقبل ألف عام سار راهب، يرتدي السواد، في الصحراء، في مكان ما في سوريا أو الجزيرة العربية وعلى بعد عدة أميال من المكان الذي كان يسير فيه رأى الصيادون راهباً آخر كان يمشي ببطء على سطح البحيرة وكان هذا الراهب الثاني سراباً والآن انسى كل قوانين البصريّات، التي يبدو أن الأسطورة لا تعترف بها، واسمعي التالي من ذلك السراب تكون سراب آخر، ومن الآخر تكون ثالث، حتى إن صورة الراهب الأسود أصبحت تتنقل بلا نهاية من إحدى طبقات الجو إلى الأخرى وشوهد تاره في أفريقيا، وتارة في أسبانيا، وتارة في الهند، وتارة في أقصى الشمال وأخيراً



تجاوز نطاق الغلاف الجوي الأرضي وأصبح الآن يضرب في الكون دون أن يصادف محيطاً تتطفئ صورته فيه وربما يرونه الآن في مكان ما على المريخ، أو في إحدى نجوم الصليب الجنوبي ولكن أهم ما في الأمر يا عزيزتي، الشيء المحوري في الأسطورة، هو أنه بعد ألف عام بالضبط من ذلك الزمن الذي كان الراهب فيه يقطع الصحراء، سيعود السراب ثانية إلى الغلاف الجوي الأرضي ويظهر للناس وكما لو كانت هذه الأعوام الألف على وشك الانقضاء وحسب مغزى الأسطورة فعلياً أن نتوقع ظهور الراهب الأسود بين يوم وليلة.

- سراب غريب قالت تانيا التي لم تعجبها الأسطورة فضحك كوفرين قائلاً:

- ولكن أغرب ما في الأمر أنني لا أستطيع أبداً أن أتذكر من أين وردت هذه الأسطورة إلى رأسي؟ هل قرأتها؟ هل سمعتها؟ أم ربما رأيت الراهب الأسود في المنام؟ أقسم أنني لا أذكر ولكن الأسطورة تشغل بالي إنني أفكر فيها اليوم طوال النهار.

وترك تانيا تنصرف إلى ضيوفها وخرج من المنزل وتجول متفكراً بجوار أحواض الزهور كانت الشمس تغرب ولأن الزهور قد رشت لتوها بالماء فقد تضوعت برائحة رطبة مثيرة للأعصاب وتردد الغناء في المنزل من جديد، وبدا صوت الكمان من بعيد أشبه بصوت بشري



وأجهد كوفرين فكره ليتذكر أين قرأ أو سمع الأسطورة، ومضى على مهل إلى الحديقة فبلغ النهر دون أن يلحظ.

وهبط إلى النهر على الدرب الممتد على الشاطئ الشديد الانحدار بجوار الجذور العارية، فأزعج البكاشين وأفزع بطتين وعلى ذؤابات الصنوبرات الجهمة كانت آخر أشعة الشمس الغاربة تتعكس هنا وهناك، ولكن المساء كان قد حل تماماً على سطح النهر وعبر كوفرين إلى الضفة الأخرى فوق قنطرة. أصبح أمامه الآن حقل واسع مغطى بجودار فتى لم يزدهر بعد ولم يكن هناك مسكن بشري أو روح حية على مدى البصر، وبدا أن الدرب، لو سرت عليه، لأفضى بك إلى ذلك المكان الغامض المجهول الذي هبطت فيه الشمس لتوها، والذي يتوهج فيه المغيب بهذا الاتساع والعظمة.

وفكر كوفرين وهو يسير على الدرب: يا للرحابة والحرية والهدوء هنا يبدو أن الدنيا كلها تنظر إلى، وقد كتمت أنفاسها في انتظار أن أفهمها.

وها هو ذا الجودار يتموج، ومس نسيم المساء الخفيف رأس كوفرين الحاسر برقة وبعد دقيقة هبت دفقة ريح ثانية، ولكنها أقوى، فصخب الجودار، وتناهي من الخلف هزيم الصنوبرات المكتوم وتوقف كوفرين مأخوذاً فعند الأفق تصاعد من الأرض حتى السماء



عامود أسود طويل، يشبه الزوبعة أو دوامة الهواء ولم تكن حدوده واضحة، ولكن كان من الممكن منذ الوهلة الأولى إدراك أنه لم يكن ثابتاً في مكانه، بل يتحرك بسرعة رهيبة، يتحرك إلى هنا بالذات، نحو كوفرين مباشرة، وكلما اقترب أصبح أصغر وأوضح وارتقى كوفرين جانباً في الجودار ليفسح له الطريق، وبالكاد تمكن من ذلك.

مرق بجواره، راهب في حلة سوداء، برأس أشيب وحاجبين أسودين، وقد عقد ذراعيه على صدره ولم تكن قدماء الحافيتان تمسان الأرض وبعد أن مرق إلى مسافة ثلاث أذرع التفت إلى كوفرين، وأوماً برأسه وابتسم له ابتسامه رقيقة ولكنها في الوقت نفسه ماكره ولكن كم كان وجهه شاحباً، شاحباً إلى درجة فظيعة، ونحيراً وأخذ يكبر مرة أخرى فعبر النهر طائراً، وارتطم دون صوت بالشاطئ الطين والصنوبرات، ونفذ من خلالها، ثم اختفى كال دخان.

ودمدم كوفرين: - أ رأيتم إذن وهكذا فالأسطورة صادقة.

لم يحاول أن يشرح لنفسه هذه الظاهره الغريبة، وأرضاه فحسب أنه استطاع أن يرى بهذا القرب والوضوح لا حلة الراهب السوداء فقط، بل ووجهه وعينيهِ أيضاً، فعاد إلى المنزل وهو يشعر باضطراب لطيف. في الحديقة وفي البستان كان الناس يغدون ويروحون في هدوء،



وفي المنزل كانوا يعزفون، إذن فهو وحده الذي رأى الراهب وتملكته رغبة شديدة في أن يخبر بذلك تانيا ويجور سيميونيتش، ولكنه أدرك أنهما، في الغالب، سيعتبران روايته هذياناً، وسيفزعهما ذلك؛ فمن الأفضل إذن أن يصمت وأخذ يضحك بصوت عال، ويغني، ويرقص المازوركا، وكان يشعر بالمرح، فاعتبر الجميع الضيوف وتانيا أن وجهه يبدو اليوم بصورة خاصة، نورانيا، ملهماً، وأنه شخص طريف للغاية.

بعد العشاء، عندما انصرف الضيوف، ذهب إلى غرفته وتمدد على الكنبة، فقد كان يريد أن يفكر في الراهب ولكن سرعان ما دخلت تانيا.

خذيا أندريوشا، اقرأ مقالات أبي قالت وهي تقدم له رزمة من الكراريس وملازم المطبعة - مقالات ممتازة إنه يكتب بصورة رائعة.

دعيك من المبالغة قال يجور سيميونيتش الذي دخل في أثرها وهو يضحك بتصنع؛ فقد كان خجلاً لا تصنع إليها من فضلك، لا تقرأ وعموماً إذا أردت أن تتعس فلتقرأها إذن، وسيلة منومة رائعة.

فقالت تانيا بيقين راسخ:

في رأيي أنها مقالات عظيمة اقرأها يا أندريوشا، وأقنع بابا بأن يكتب أكثر بإمكانه أن يكتب دورة محاضرات كاملة في فلاحه البساتين.



قهقهة يجور سيمونيتش بتوتر، وتضرج وجهه، وأخذ يقول عبارات من تلكالتي يقولها المؤلفون المحرجون عادة وأخيراً بدأ يستسلم.

في هذه الحالة اقرأ أولاً مقالة جوشيه ثم هذه المقالات الروسية - دمدم وهو يقلب الكراريس بأصابع مرتعشة - وإلا فلن تكون المسائل مفهومه لك فقبل أن تقرأ اعتراضاتي ينبغي أن تعرف علام أعترض وعموماً، كلام فارغ في غاية الملل ثم إن موعد النوم قد حان، كما أظن.

خرجت تانيا وجلس يجور سيمونيتش إلى جانب كوفرين على الكنبه وزفر بعمق.

- نعم يا أخي شرع يقول بعد فترة صمت - هكذا يا عزيزي الماجستير ها أنا ذا أكتب مقالات، وأشارك في المعارض، وأحصل على ميداليات ويقولون إن التفاحة عند بيسوتسكى بحجم الرأس، ويقولون أن بيسوتسكى كون لنفسه ثروة من البستان وباختصار، كوتشوبى غنى وشهير ولكن السؤال هو: وما جدوى ذلك؟ صحيح أن البستان رائع، نموذجي ليس بستاناً، بل مؤسسة كاملة ذات أهمية كبرى على مستوى الدولة؛ لأنه إذا جاز التعبير خطوة إلى العصر الجديد للاقتصاد الروسي والصناعة الروسية ولكن ما جدواه؟ ما الهدف؟ عملكم يشهد لنفسه بنفسه.



لا أقصد هذا المعنى إنني أريد أن أسأل: ما الذي سيحدث للبستان عندما أموت؟ لن يبقى بعد وفاتي شهراً واحداً بهذه الصورة التي تراه عليها إن سر النجاح ليس في كون البستان كبيراً والعمال كثيرين، بل في أنني أحب هذا العمل، أفهم؟ أحبه ربما أكثر من نفسي انظر إلى، إنني أصنع كل شيء بنفسي إنني أعمل من الصباح إلى المساء التطعيم كله أجريه بنفسي، والتقليم بنفسي، والشتل بنفسي، كل شيء بنفسي وعندما يساعدني أحد أشعر بالغيرة وأستثار إلى حد الخشونة السر كله في الحب، أي في العين المدبرة اليقظة وفي الأيدي المدبرة، وأيضاً في ذلك الإحساس الذي يراودك عندما تذهب ضيفاً إلى أحد ما لمدة ساعة فتشعر وأنت هناك بأن قلبك في غير مكانه، وأنت نفسك على غير طبيعتك إذ تخشى أن يحدث شيء للبستان فمن ذا الذي سيعتنى به بعد أن أموت؟ من ذا الذي سيعمل؟ البستاني؟ العمال؟ نعم؟ إذن فلتسمع ما أقوله لك يا صديقي العزيز: إن العدو الأول لعمالنا ليس الأرنب أو الخنفساء أو الصقيع، بل الشخص الغريب.

فسأله كوفرين ضاحكاً: وتانيا؟ لا يمكن أن تكون أكثر ضرراً من الأرانب إنها تحب هذا العمل وتفهمه.

- نعم، إنها تحبه وتفهمه لو أن البستان آل إليها بعد وفاتي



وأصبحت صاحبتة، فليس هناك بالطبع من هو أفضل من ذلك ولكن ماذا لا قدر الله لو تزوجت؟ - همس يجور سيميونيتش، ونظر إلى كوفرين بفزع تلك هي المسألة ستتزوج، وتتجب أطفالاً، وعندها لا يصبح لديها وقت للتفكير في البستان إن أكثر ما أخشاه أن تتزوج من شاب ما، ويتملك الجشع هذا الشاب فيؤجر البستان للبائعات، فيذهب كل شيء إلى الشيطان في أول سنة النساء في عملنا هذا لعنة مسالطة.

تنهد يجور سيميونيتش وصمت قليلاً ثم قال: - ربما كانت هذه أنانية، ولكني أقول لك بصراحة: أنا لا أريد أتانيا أن تتزوج أخاف يوجد هنا غندور يزورنا بكمان ويطنطن عليه وأعرف أن تانيا لن تتزوجه، أعرف جيداً، ومع ذلك لا أطيق رؤيته وعموماً يا أخي فأننا فعلاً غريب الأطوار أعترف بذلك.

نهض يجور سيميونيتش، وذرع الغرفة منفِعلاً، وكان واضحاً أنه يريد أن يقول شيئاً مهماً للغاية ولكنه لا يجرؤ.

إنني أحبك بحرارة وسوف أكون صريحاً معك - قرر أخيراً أن يقول، وقد دس يديه عميقاً في جيبه أنا أنظر إلى بعض الأمور الحساسة ببساطة، وأقول مباشرة ما أفكر فيه، ولا أطيق ما يسمى بالأفكار المكنونة أقول لك بصراحة: أنت الشخص الوحيد الذي لا



أخشى أن أزوجه ابنتي أنت رجل ذكي، ذو قلب، ولن تسمح لعملي المحبوب أن يهلك أما السبب الرئيسي فهو أنني أحبك كابني وأفخر بك ولو نشأت بينك وبين تانيا علاقة فليكن ساكون مسروراً جداً، بل وسعيداً أقول لك هذا بصدق، دون تكلف، كرجل شريف.

عنوان إحداها: حول المحصول الانتقالي، وعنوان الأخرى: تعليق قصير على مقال السيد س حول تقليب التربة لإقامة بستان جديد، وكان عنوان الثالثة: مرة أخرى عن التطعيم بالأكمام النائمة، وهكذا دواليك ولكن أية نبرة منفعة، عصبية، أي حماس يكاد يكون مرضياً ها هي ذي مقالة بعنوان يبدو مسالماً للغاية وبمحتوى محايد، وهي تتحدث عن تفاح أنطونوفكا الروسي ولكن يجور سيميونييتش يبدؤها وينهيها وبين هاتين العبارتين شلال دافق من الكلمات اللاذعة الموجهة إلى الجهل العلمي للسادة خبائنا المعترف بهم في فلاحه البساتين الذين يراقبون الطبيعة من منابرهم الجامعية، أو إلى السيد جوشيه الذي أحرز نجاحه بفضل الجهلة والهواة، ثم أسف غير مناسب، وغير صادق، على أنه لم يعد من الممكن جلد الفلاحين الذين يسرقون الفواكه ويحطمون الأشجار أثناء ذلك.

وفكر كوفرين: قضية جميلة، لطيفة، وسليمة، ولكن حتى هنا تلتهب الغيرة وتشتعل الحرب لا بد أن الأشخاص العقائديين هم في



كل مكان ومجال عصبيون ويتميزون بحساسية عالية ربما كان ذلك مطلوباً.

وتذكر تانيا التي تعجبها جداً مقالات يجور سيميونييتش قصيرة القامة، شاحبة نحيلة إلى درجة بروز عظام الترقوة عيناها مفتوحتان باتساع، داكت تان ذكيتان، تحدقان دائماً بإمعان وتبحثان دائماً عن شيء ما ومشيتها، كمشية أبيها، دقيقة، متعجلة وهي تتحدث كثيراً، وتهوى الجدل، وخلال ذلك تصاحب كل عبارة، حتى التافهة بحركات الوجه واليدين يبدو أنها عصبية إلى أقصى حد.

وواصل كوفرين القراءة، ولكنه لم يفهم شيئاً فتركها وذلك الانفعال اللطيف، الذي رقص به المازوركا واستمع إلى الموسيقى منذ قليل، أصبح الآن يعذبه ويثير فيه أفكاراً كثيرة فنهض، وأخذ يذرع الغرفة، وهو يفكر في الراهب الأسود وخطر بذهنه أنه إذا كان هو وحده الذي رأى هذا الراهب الغريب، الخارق، فهذا يعني أنه مريض وبلغ به الأمر حد التهيؤات وأخافه هذا الخاطر، ولكن لوقت قصير.

ولكنني أشعر بالراحة، ولا أسبب أذى لأحد، إذن فليس في تهيوّاتي أي شيء سيئ - فكر كوفرين، ومن جديد أحس بالراحة.

وجلس على الكنبه ووضع رأسه بين يديه وهو يكتم فرحة غير



مفهومة ملأت كل كيانه، ثم راح وجاء مرة أخرى، وجلس إلى المكتب ليعمل ولكن الأفكار التي قرأها في الكتاب لم ترضه كان يرغب في شيء عملاق، لا حدود له، مذهل وقبيل الصباح نزع ملابسه وأوى مكرهاً إلى الفراش، فمن المفروض في النهاية أن ينام؟.

وعندما سمع كو فرين وقع خطوات يجور سيميونييتش الذي خرج إلى البستان، دق الجرس وأمر الخادم أن يحضر له نبيذا وشرب عدة كؤوس من نبيذ لافيت بلذة، ثم تغطى حتى رأسه وغام وعيه، ثم نعى. كان يجور سيميونييتش وتانيا كثيراً ما يتشاجران فيكيل كل منهما للآخر كلمات مسيئة.

وفي هذا الصباح تشاجرا بسبب شيء ما وبكت تانيا وانصرفت إلى غرفتها ولم تخرج للغداء ولا لتناول الشاي وفي البداية سار يجور سيميونييتش متخذاً سيماء الأهمية، عاباً، كما لو كان يريد أن يظهر أن مصالح العدالة والنظام بالنسبة له أسمى من أي شيء في الدنيا، ولكنه لم يستطع أن يصمد طويلاً وسرعان ما انهارت معنوياته وأخذ يتجول في الحديقة حزيناً ويتهدد: آه، يا إلهي، يا إلهي ولم يذق في الغداء لقمة واحدة وأخيراً مضى مذنباً، معذب الضمير إلى الباب الموصد فطرقة ونادى بوجل: - تانيا تانيا.



فسمع من خلف الباب صوتاً ضعيفاً، أرهقته الدموع ولكنه في الوقت نفسه حازم: - دعني أرجوك.

وانعكست كآبة السادة على البيت كله، حتى على العاملين في البستان. وكان كوفرين منهمكاً في عمله الشيق، ولكن حتى هو، أحس في النهاية بالملل والحرَج ولكي يبدد المزاج العام السيئ بشكل ما، قرر أن يتدخل، فدق باب غرفة تانيا قبيل المساء وسمحت له بالدخول. - عيب، عيب، ألا تخجلين؟ بدأ يقول مازحاً وهو ينظر بدهشة إلى وجه تانيا الباكي، الحزين، المغطى ببقع حمراء - الأمر جد هكذا؟ عيب عليك.

- آه لو تعلم كيف يعذبني قالت تانيا وانهمرت دموع مريرة غزيرة من عينيها الواسعتين لقد عذبني تماماً استطردت وهي تلوي ذراعيها أنا لم أقل له شيئاً أبداً قلت فقط إنه لا داعي للاحتفاظ بعمال زائدين، طالما من الممكن في أي وقت استئجار عمال يومية العمال العمال لا يفعلون شيئاً طوال أسبوع أنا هذا فقط ما قلته، فصرخ في، وانهال على بكلمات مسيئة، مهينة جداً، لماذا؟

فقال كوفرين وهو يسوى شعرها:

- كفى، كفى تشاجرتما وبكيت فيكفي لا يصح الزعل طويلاً، هذا



ليس حسناً خاصة وإنه يحبك بلا حدود .

فمضت تانيا تقول وهي تشهق:

- إنه إنه أفسد حياتي لا أسمع منه سوى الإساءات والإهانات .

إنه يعتبرني زائدة في بيته حسناً، إنه على حق سأرحل من هنا غداً، وألتحق بمكتب تليغراف ليكن.

طيب، طيب، طيب لا داعي للبكاء يا تانيا لا داعي يا عزيزتي
كلاكما سريع الغضب، عصبى، وكلاكما مخطئ هيا، هيا أصالحكما .
كان كوفرين يتكلم بلطف وإقناع، بينما واصلت تانيا البكاء وكتفاهما
تنتفضان، وراحت تعصر يديها وكأنما حلت بها حقاً فاجعة رهيبة
ومما زاد من إشفاقه عليها أن مصابها كان بسيطاً بينما كانت تعاني
منه بشدة أية أشياء تافهة كانت كافية لجعل هذا المخلوق تعيساً
طول النهار، بل ربما طول العمر؟ وبينما كان كوفرين يهدئ تانيا، راح
يفكر في أنه لن يجد في الدنيا كلها، ولو أعياء البحث غير هذه الفتاة
وأبيها أحداً يحبه كواحد منهم، كشخص عزيز قريب ولولا هذان
الشخصان لما عرف في الغالب حتى الممات، هو الذي فقد أباه
وأمه في طفولته المبكرة معنى المودة الصادقة، وذلك الحب الساذج
المسالمة الذي نكنه فقط للأشخاص القريبين للغاية الذين تربطنا بهم



أواصر الدم وأحس أن أعصابه شبه المريضة، المستشارة تستجيب لأعصاب هذه الفتاة الباكية المنتفضة، كالحديد إلى المغناطيس وما عاد في وسعه أبداً أن يحب امرأة صحيحة، قوية، حمراء الخدين، ولكن تانيا الشاحبة الضعيفة، التعيسة، أعجبتة.

فراح يمسح شعرها وكتفيتها بسرور، ويضغط على راحتها، ويمسح دموعها وأخيراً كفت عن البكاء وظلت طويلاً تشكو من أبيها وحياتها الشاقة التي لا تحتل في هذا البيت وتتوسل إلى كوفرين أن يتفهم وضعها ثم أخذت شيئاً فشيئاً تبسم وتتهد إذ بلاها الله بهذا الطبع السيئ، ولكنها في النهاية ضحكت بصوت عال، ووصفت نفسها بالحمقاء وانفلتت راکضة من الغرفة.

وعندما خرج كوفرين إلى البستان بعد ذلك بقليل، كان يجور سيميونيتش وتانيا يتنزهان معاً في الممر، كأن شيئاً لم يكن، وكان كلاهما يأكلان خبز الجودار بالملح، فقد كانا جائعين.

ذهب كوفرين إلى الحديقة مسروراً من أنه وفق في أن يلعب دور المصلح وبينما كان جالساً على الأريكة يفكر سمع وقع عربات وضحكاً نسائياً لقد وصل الضيوف وعندما ارتمت ظلال المساء على البستان، ترددت بوهن أنغام كمان وأصوات تغني، فذكره ذلك بالراهب الأسود ترى أين يهيم الآن هذا اللا معقول البصري، في أي



بلد أو في أي كوكب؟.

وما إن تذكر الأسطورة ورسم في خياله ذلك الشبح الأسود الذي رآه في حقل الجودار حتى خرج من وراء الصنوبرة، قبالة تماماً بدون صوت، دون أدنى حفيف، رجل متوسط القامة، برأس أشيب حاسر، متشحا بالسواد، حافى القدمين، أشبه بالشحاذ، وفي وجهه الشاحب كوجه ميت، برز بحدة حاجباه الأسودان اقترب هذا الشحاذ أو الجوال من الأريكة دون صوت فجلس، وهو يومئ برأسه محيياً، فعرف فيه كوفرين الراهب الأسود ومضت دقيقة وهما يتبادلان النظر كوفرين بذهول، والراهب برقة، وكما في المرة السابقة، بشيء من المكر، وبتعبير من يعرف شيئاً ويخفيه وقال كوفرين: ولكنك سراب فلماذا أنت هنا ولماذا أنت جالس لا تتحرك؟ إن هذا لا يتفق والأسطورة.

فأجابه الراهب بعد فترة، بصوت خافت، ملتفتاً بوجهه نحوه: هذه سيان الأسطورة والسراب وأنا كل ذلك من وحي خيالك المستشار أنا شبح.

فسأله كوفرين: - إذن فلست موجوداً؟.

فكر كما تشاء أجاب الراهب وابتسم بوهن أنا موجود في خيالك، وخيالك جزء من الطبيعة، إذن فأنا موجود في الطبيعة.

فقال كوفرين: - وجهك عجوز وذكي جداً، ومعبّر إلى أقصى حد،



كأنك عشت بالفعل أكثر من ألف عام لم أكن أعرف أن خيالي قادر على خلق هذه الخوارق ولكن لماذا تنظر إلى بهذا الإعجاب؟ هل أروق لك؟.

- نعم أنت واحد من أولئك القلائل الذين يدعون بأبناء الله المختارين أنت تخدم الحقيقة الخالدة وأفكارك، ونواياك، وعلمك المدهش، وحياتك كلها تحمل بصمات إلهية، سماوية، لأنها مكرسة لما هو حكيم وجميل، أي لما هو خالد.

تقول: الحقيقة الخالدة ولكن هل يستطيع الناس بلوغ الحقيقة الخالدة، وهل هم بحاجة إليها إذا لم تكن هناك حياة خالدة؟.

فقال الراهب: - بل هناك حياة خالدة - أتؤمن بخلود البشر؟.

نعم، طبعاً إن مستقبلاً عظيماً باهراً ينتظركم، أنتم البشر وكلما كثر أمثالك على الأرض، تحقق هذا المستقبل أسرع فلولاكم، أنتم الذين تخدمون الغاية الأسمى، وتعيشون بوعي وحرية، لكانت البشرية تافهة ولو تطورت وفق النظام المألوف لظلت طويلاً تنتظر نهاية تاريخها الأرضي أما أنتم فسوف تدخلونها ملكوت الحقيقة الخالدة قبل الأوان بضع آلاف من السنين، وتلك هي الخدمة الجليلة التي ستقدمونها، أنتم تجسدون البركة الإلهية التي لم يحظ بها البشر.



فسأل كوفرين: - وما هي غاية الحياة الخالدة؟

- كغاية كل حياة: المتعة إن المتعة الحقيقية هي في المعرفة،
والحياة الخالدة ستقدم منابع عديدة لا تنفد للمعرفة، وفي هذا المعنى
بالذات قيل: إن في بيت أبي منازل كثيرة فقال كوفرين وهو يفرك يديه
من المتعة: - آه لو تدري كم أستمتع بسماعك - مسرور جداً.

لكني أعرف أنك حينما تمضي سوف يورقني السؤال عن طبيعتك
أنت شبح، تهيؤات إذن فأنا مريض نفسياً، مجنون؟

حتى لو كان كذلك فيم الخجل؟ أنت مريض لأنك عملت فوق طاقتك
وأجهدت نفسك، وهذا يعني أنك ضحيت بصحتك في سبيل الفكرة،
وقريباً يحل الوقت الذي تهبها فيه حياتك أيضاً فهل هناك ما هو
أفضل؟ إن هذا هو ما تسعى إليه عادة كل الشخصيات الموهوبة النبيلة.
- وإذا ما كنت أعرف أنني مريض نفسياً، فهل أستطيع إذن أن
أثق في نفسي؟

- ولماذا تعتقد أن العباقرة، الذين يثق بهم العالم أجمع، لم يروا
هم أيضاً أشباحاً؟ ألا يقول العلماء الآن أن العبقرية صنو الجنون يا
صديقي، الأصحاء والطبيعيون هم فقط الأشخاص العاديون، أفراد
القطيع إن الاعتبار التي تذكر بخصوص عصر القلق، والإرهاق،



والإنحلال إلخ، لا يمكن أن تثير أحداً سوى أولئك الذين يرون غاية الحياة في الحاضر، أي أفراد القطيع.

ولكن الرومان قالوا: *mens sana in corpore sano*.

- ليس كل ما قاله الرومان أو الإغريق حقيقة فالمزاج العالي، والاستثارة، والنشوة، أي كل ما يميز الأنبياء والشعراء وشهداء الفكرة عن الناس العاديين، يتنافر مع الجانب الحيواني في الإنسان، أي مع صحته البدنية أكرر: إذا أردت أن نكون صحيحاً وطبيعياً، فإذهب إلى القطيع.

فقال كوفرين:

- غريب أنك تكرر ما يطوف كثيراً في ذهني كأنك تلصقت وتتصت إلى أفكاري المكونة ولكن دعنا نترك الحديث عن شخصي ما الذي تعنيه بالحقيقة الخالدة؟ لم يرد الراهب وتطلع كوفرين إليه فلم يميز وجهه تضربت ملامحه وتلاشت ثم أخذ يختفي رأس الراهب، ويده، واختلط بدنه بالأريكة وغسق المساء، ثم تلاشى تماماً.

- انتهت التهيؤات - قال كوفرين - يا خسارة ثم ضحك.

وعاد أدراجه إلى البيت مرحاً وسعيداً لم تهدد تلك الكلمات القليلة التي قالها له الراهب الأسود غروره، بل روحه كلها، وكيانه كله



أن يكون من المخترعين، أن يخدم الحقيقة الخالدة، أن يكون في عداد أولئك الذين سيجعلون البشرية جديرة بملكوته الله قبل الأوان بعدة آلاف من السنين، أي يريحون الناس من عدة آلاف سنين لا مبرر لها من النضال والذنوب والعذاب، أن يهب الفكرة كل شيء: صباه وقواه وصحته، أن يكون مستعداً للموت في سبيل خير الجميع يا له من قدر سام سعيد وومض في ذاكرته ماضيه، البريء، الطاهر، المفعم بالعمل، وتذكر ما تعلمه وما علمه هو نفسه للآخرين، فقرّر أنه لم تكن هناك مبالغة فيما قاله الراهب.

كانت تانيا تسيّر نحوه في الحديقة وكانت قد غيرت فستانها قالت:
- أنت هنا؟ ونحن نبحث عنك ونفتش ولكن ماذا بك؟ قالت بدهشة وهي ترى وجهه المفعم بالإعجاب والبريق وعينييه المليئتين بالدموع كم أنت غريب يا أندريوشا فقال كوفرين وهو يضع يديه على كتفها:
- أنا مبسوط يا تانيا بل أكثر من مبسوط، أنا سعيد تانيا، يا تانيا العزيزة أنت مخلوق لطيف للغاية تانيا العزيزة، كم أنا مسرور، كم أنا مشرقة، خلاصة، سامية ولكني لا أستطيع أن أروى لك كل شيء لأنك ستعتبرينني مجنوناً أو لا تصدقينني فلنتحدث عنك تانيا العزيزة الرائعة إنني أحبك وأصبحت ألف حبك أصبح قريبك ولقاؤنا عشر



مرات في اليوم حاجة لا غنى عنها لروحي لا أعرف كيف سأعيش بدونك عندما أعود إلى داري.

فضحكت تانيا: - أوه سوف تتسانا بعد يومين نحن ناس صغار، وأنت رجل عظيم فقال كوفرين - كلا، فلننتحدث جدياً سوف آخذك معي يا تانيا حسناً؟ هل تأتين معي؟ هل تريدان أن تصبحي لي؟ أوه - قالت تانيا وأرادت أن تضحك ثانية، ولكنها لم تفلح، وظهرت بقع حمراء على وجهها وترددت أنفاسها بتلاحق، واندفعت تسير بسرعة، ولكن ليس باتجاه المنزل، بل إلى عمق الحديقة.

- أنا لم أفكر في ذلك لم أفكر - قالت وهي تعصر يديها كأنما في يأس.

وسار كوفرين خلفها وهو يقول بنفس الوجه المشرق الطافح بالإعجاب: - إنني أريد حباً يستولي على كل كياني، وهذا الحب لا يستطيع أن يهبه لي إلا أنت يا تانيا أنا سعيد سعيد كانت مذهولة، فانطوت وانكمشت كأنما كبرت فجأة عشرة أعوام، أما هو فكان يراها رائعة ويعبر عن إعجابه بصوت عال: - كم هي جميلة عندما علم يجور سيميونييتش من كوفرين أنه لم تنشأ بينه وبين تانيا علاقة فحسب، بل سيكون عرس أيضاً، أخذ يذهب ويجيء طويلاً من ركن إلى ركن محاولاً إخفاء اضطرابه وأصابته الرعشة يديه، وانتفخ عنقه



وتضرج، فأمر بإعداد العجلة الخفيفة ورحل إلى جهة ما وعندما رأت تانيا كيف أهوى بالسوط على الحصان، وكيف شد العمرة عميقاً على رأسه، حتى أذنيه تقريباً، أدركت كنه مزاجه، فأغلقت غرفتها على نفسها وبكت طول النهار.

في الدفيئات كان الخوخ والبرقوق قد نضجا وكان تغليف هذه البضاعة الرقيقة والنزقة وإرسالها إلى موسكو يتطلب كثيراً من العناية والجهد والمشاكل ولما كان الصيف حاراً وجافاً، فقد كان ينبغي رى كل شجرة، الأمر الذي استهلك الكثير من الوقت والأيدي العاملة، وظهرت الديدان بكمية رهيبة، فكان العمال، وحتى يجور سيميونييتش وتانيا، يسحقونها بأصابعهم مباشرة، مما أثار تقزز كوفرين البالغ وعلاوة على ذلك فقد حان الوقت لتلقي الطلبات لتوريد الفواكه والأشجار في الخريف والقيام بمكاتبات كثيرة وفي إبان هذه الفترة الحرجة، حين بدا أن أحداً لا يملك دقيقة فراغ حل أو أن أعمال الحقول، التي انتزعت من البستان أكثر من نصف العمال وكان يجور سيميونييتش، الذي اسمر بشدة، يركض معذباً، غاضباً، تارة إلى البستان، وتارة إلى الحقل، ويصرخ بأنهم يمزقونه إرباً، وأنه سيطلق رصاصة على رأسه.

أضف إلى ذلك مشاغل جهاز العروس، الذي كان آل بيسوتسكى



يولونه أهمية غير قليلة ومن رنين المقصات ودق ماكينات الخياطة، ودخان المكاوى، ومن نزق مصممة الأزياء، تلك السيدة العصبية السريعة الغضب، دارت رؤوس كل أهل البيت وكأنما نكاية بهم أخذ الضيوف يأتون كل يوم، فكان لا بد من تسليتهم وإطعامهم، بل وإبقائهم للمبيت أحياناً ولكن كل هذه الأشغال الشاقة مرت دون أن تلاحظ، وكأنما من خلال الضباب وكانت تانيا تشعر وكأنما دهمها الحب والسعادة بغتة، رغم أنها كانت منذ الرابعة عشرة من عمرها واثقة لسبب ما بأن كوفرين سيتزوج منها بالذات كانت تشعر بالذهول والدهشة ولم تصدق نفسها وتارة تغمرها فرحة بحيث تود لو حلفت إلى عنان السماء فتصلي هناك لله، وتارة تتذكر فجأة أنه سيكون عليها في أغسطس أن تفارق عشها الحبيب وتترك أباه، أو تواتيها من حيث لا يعلم إلا الله فكرة أنها تافهة، ضحلة وغير جديرة برجل عظيم مثل كوفرين، فتمضي إلى غرفتها وتوصدها عليها وتبكي بحرقة لعدة ساعات وعندما يزورهم ضيوف يخيل إليها بغتة أن كوفرين جميل بصورة غير عادية، وأن جميع النساء مغرمات به ويحسدنها، فتمتلئ روحها بالإعجاب والفخر، كأنما انتصرت على العالم أجمع، ولكن ما إن يبتسم كوفرين لآنسة ما، حتى تتتابها رعشة الغيرة، فتمضي إلى غرفتها، فإلى الدموع ثانية واستولت عليها تماماً هذه المشاعر الجديدة، فكانت تساعد أباه بطريقة آلية ولا تلاحظ



الخوخ أو الديدان أو العمال، أو مرور الوقت بهذه السرعة.

- عندما كان صغيراً يتربي عندي كان له مثل ذلك الوجه الملائكي الصبوح الطيب ونظراته وحركاته وحديثه رقيقاً ورشيقاً مثلما لدي أمه وذكاؤه؟ كان دائماً يذهلنا بذكائه يكفي أنه أصبح ماجستير ليس صدفه ليس صدفه انتظر يا إيفان كارلويتش وسترى كيف سيصبح بعد عشر سنوات لن تبلغه يدك ولكن يجور سيميونيتش الحقيقي يستدرك فجأة، فيصبح وجهه رهيباً،

ويمسك برأسه ويصيح:

- الشياطين أفسدوا البستان، دنسوه، لوثوها ضاع البستان هلك البستان أما كوفرين فكان يعمل بدأبه السابق ولم يلاحظ الهرج وصب الحب المزيد من الزيت على النار وبعد كل لقاء مع تانيا كان يعود إلى غرفته سعيداً، معجباً، وبنفس الهيام الذي قبل به تانيا منذ قليل وباح لها بحبه، ينكب على كتاب أو على مخطوطه كان ما قاله الراهب الأسود عن أبناء الله المختارين، عن الحقيقة الخالدة، عن مستقبل البشرية الباهر وغير ذلك، يضيفي على عمله أهمية خاصة، غير عادية، ويملاً روحه بالاعتزاز والإدراك لسموه وكان يلتقي بالراهب الأسود مرة أو مرتين أسبوعياً، في الحديقة أو في المنزل، فيتحدث معه طويلاً، ولكن ذلك لم يخفه، بل بالعكس، أثار



إعجابه، لأنه أصبح على ثقة تامة بأن مثل هذه الرؤى لا تراود إلا المختارين، البارزين، الذين وهبوا حياتهم لخدمة الفكرة.

وذات مرة جاء الراهب أثناء الغداء فجلس بجوار النافذة في غرفة الطعام وفرح كوفرين، وأدار حديثاً مع يجور سيميونيتش وتانيا بمهارة كبيرة عما يمكن أن يكون شوقاً للراهب وأصغى الضيف الأسود وهو يهز رأسه ببشاشة، وأصغى يجور سيميونيتش وتانيا أيضاً وهما بيتسمان بمرح، دون أن يفطنا إلى أن كوفرين لا يتحدث إليهما، بل إلى تهيوّاته لم يلاحظوا كيف اقترب صيام الرفع، وسرعان ما تبعه يوم العرس الذي احتفلوا به، حسب رغبة يجور سيميونيتش الملحة، بفرقة، أي بازدهام مشوش استمر يومين وأكلوا وشربوا بحوالي ثلاثة آلاف روبل، ولكنهم بسبب الفرقة الموسيقية المؤجرة السيئة، والأنخاب الزاعقة، وهرولة الخدم، بسبب الصخب والزحام لم يقدرُوا مذاق النبيذ الفاخر أو الميزات المدهشة المجلوبة من موسكو وذات ليلة طويلة من ليالي الشتاء كان كوفرين راقداً في الفراش يقرأ رواية فرنسية وكانت تانيا المسكينة، التي كانت تعاني من الصداق كل مساء لعدم تعودها على المعيشة في المدينة، نائمة منذ وقت طويل، وأحياناً تتفوه هاذية بعبارات ما غير مترابطة ودقت الساعة الثالثة فأطفأ كوفرين الشمعة ورقد وظل ممدداً فترة طويلة



بعينين مغمضتين، لكنه لم يستطع أن ينام لأن الجو في غرفة النوم، كما خيل إليه، كان حاراً، وكانت تانيا تهذي وفي الرابعة والنصف أشعل الشمعة ثانية وفي تلك اللحظة رأى الراهب الأسود جالساً في المقعد قرب السرير.

- مرحباً - قال الراهب، ثم صمت قليلاً وسأله - فيم تفكر الآن؟ فقال كوفرين:

- في الصيت في الرواية الفرنسية، التي كنت أقرأها لتوى بصور المؤلف شخصاً، عالماً شاباً، يرتكب حماقات ويذوي من الحنين إلى الصيت هذا الحنين غير مفهوم لى.

- لأنك ذكى أنت تنظر إلى الصيت بلا مبالاة، كدمية لا تثير اهتمامك - نعم، هذا صحيح.

- والشهرة لا تروق لك فما هو الأمر المغرى، أو المسلي، أو ذو العبرة في أن ينقشوا اسمك على تمثال القبر، ثم يمحو الزمن هذه الكتابة مع طلائها المذهب؟ ثم إنكم، ولحسن الحظ، أكثر من أن تحتفظ الذاكرة البشرية الضعيفة باسمائكم.

فقال كوفرين موافقاً - مفهوم، ثم ما الداعي لتذكرها؟ لكن هيا نتحدث عن شيء آخر عن السعادة مثلاً ما هي السعادة؟.



عندما دقت الساعة الخامسة، كان جالساً في السرير، مدلياً ساقية على البساط، يتحدث مخاطباً الراهب: في الماضي أحس أحد السعداء في نهاية الأمر بالخوف من سعادته لفرط ما كانت عظيمة ولكي يتقى غضب الآلهة.

وكان نفس الشيء تقريباً يحدث ليجور سيمونييتش كان يعمل من الصباح إلى المساء، دائماً يقصد على عجل جهة ما، ويفقد أعصابه ويتوتر، ولكن ذلك كله كان يجري في شبه حلم مسحور وكأنما كان يستقر داخله شخصان: أحدهما يجور سيمونييتش الحقيقي، الذي كان، وهو يصغي إلى تقرير البستاني إيفان كارليتش عن المخالفات، يغلى غضباً ويمسك رأسه بيديه في يأس، والثاني شخص آخر، غير حقيقي، كأنما شبه ثمل، يقطع فجأة حديث العمل، ويربت على كتف البستاني ويشرع يدمدم:

- أيا ما كان الأمر، فالدم يعني الكثير لقد كانت أمه امرأة مدهشة، في غاية النبل والذكاء كان من الممتع أن تنتظر إلى وجهها الطيب الصبوح الصافي كوجه ملاك كانت ترسم بروعة، وتنظم الأشعار، وتحدث بخمس لغات أجنبية، وتغنى المسكينة، عليها الرحمة، ماتت بالسل.

ويتهنئ يجور سيمونييتش غير الحقيقي، ويصمت قليلاً، ثم يستطرد: ضحى لهم بخاتمه الأثير أتدرى؟ أنا أيضاً، مثل بوليقرط،



بدأت أقلق نوعاً ما من سعادتي إذ يبدو لي غريباً أنني لا أشعر من الصباح إلى المساء إلا بالفرحة فقط، وهي تملأ كل كياني، وتطفئ على كل المشاعر الأخرى أنا لا أعرف ما الحزن أو الأسى أو الملل ها أناذا لا أنام، وينتابني الأرق، ولكني لا أشعر بالملل أقول لك بجديّة، لقد بدأت أستغرب.

فذهل الراهب وقال:

- فلماذا؟ هل الفرحة شعور خارق؟ أليس من المفروض أن تكون هي الحالة الطبيعية للإنسان؟ وكلما ارتقى الإنسان في تطوره الذهني والخلقي، وكلما أصبح أكثر تحراً، أصبحت الحياة تجلب له المزيد من المتعة إن سقراط وديوجين ومقرس أوريليوس كانوا يشعرون بالفرحة لا بالحزن كما أن الرسول قال: افرحوا كل حين فلتفرح إذن ولتكن سعيداً ولكن قد تغضب الآلهة؟ - قال كوفرين مازحاً ثم ضحك لأنهم حرموني من الرفاهية واضطروني إلى حياة البرد والجوع فلا أظن أن ذلك سيروق لي وفي تلك الأثناء كانت تانيا قد استيقظت وأخذت تنتظر إلى زوجها بذهول ورعب كان يتحدث مخاطباً المقعد، وهو يشيح بيديه ويضحك وكانت عيناه تلمعان وكان في ضحكه شيء ما غريب أندريوشا مع من تتحدث؟ سألته تانيا وهي تشد يده التي مدها نحو الراهب أندريوشا مع من تتحدث؟ فقال كوفرين محرّجاً.



- أه؟ مع من؟ معه ها هو ذا جالس قال مشيراً إلى الراهب الأسود
لا أحد هنا لا أحد أندريوشا، أنت مريض.

وعانقت تانيا زوجها والتصقت به كأنما تحميه من الرؤى
وأغمضت عينيه بيدها وانتحبت وبدنها كله يرتجف أنت مريض
سامحني يا حبيبي، يا عزيزي، ولكني لا حظت من وقت طويل أن
روحك مضطربة أنت مريض نفسياً يا أندريوشا وانتقل ارتجافها إليه
ونظر مرة أخرى إلى المقعد، الذي أصبح الآن خاوياً، فأحس فجأة
بضعف في يديه وقدميه، وتملكه الخوف، وراح يرتدى ملابسه ودمدم
وهو يرتعش: هذا لأشء يا تانيا لا شيء فعلاً أنا معتل قليلاً ينبغي
أن أعترف بذلك فقالت تانيا وهي تحاول كتمان النحيب:

- أنا لاحظت منذ وقت طويل وبابا أيضاً لاحظ أنت تكلم نفسك،
وتبتسم ابتسامات غريبة ولا تنام أه يا إلهي، يا إلهي أنقذنا قالت
برعب لكن لا تخف يا أندريوشا، لا تخف، بالله عليك لا تخف وراحت
هي الأخرى ترتدي ثيابها الآن فقط، عندما نظر كوفرين إليها، أدرك
كل خطورة وضعه، أدرك ما الذي يعنيه الراهب الأسود وأحاديثه معه
لقد أصبح واضحاً له الآن أنه مجنون.

لبسا ملابسهما وهما لا يدریان لماذا وخرجا إلى الصالة، هي في
المقدمة وهو خلفها وهنا أيضاً كان يقف يجور سيميونيوتش، الذي



نزل ضيفاً عليهما، في الروب، حاملاً شمعة بعد أن أيقظته النحيب.

وقالت تانيا وهي ترتعش كالمحمومة:

- لا تخف يا أندريوشا، لا تخف بابا، هذا سيزول كل شيء سيزول ولم يستطع كوفرين أن يتحدث من شدة الانفعال وأراد أن يقول لحميه بلهجة مازحة: هننني، يبدو أنني جننت ولكنه حرك شفثيه فقط وابتسم بمرارة وفي التاسعة صباحاً ألبسوه المعطف الصوفي ومعطف الفراء، ولفعوه بشال، ونقلوه في عربة إلى الطبيب وبدأ يعالج حل الصيف من جديد، ونصح الطبيب بالانتقال إلى الريف وكان كوفرين قد شفى، ولم يعد يرى الراهب الأسود، ولم يبق إلا أن يعزز قواه البدنية وأثناء إقامته لدي حميه في الريف أخذ يشرب اللبن بكثرة، ويعمل ساعتين فقط في اليوم، وامتنع عن شرب الخمر وعن التدخين وعشية عيد القديس إيليا أقاموا في المنزل صلاة المساء وعندما أعطى الشماس المبخرة للقس فاحت في الصالة العتيقة الضخمة رائحة كرائحة القبور، فأحسن كوفرين بالملل وخرج إلى البستان ودون أن يلاحظ الزهور الفاخرة، تجول في البستان، وجلس على الأريكة، ثم تمشي في الحديقة وعندما بلغ النهر هبط إلى أسفل، ووقف هناك متفكراً وهو يحرق في المياه لم تعد الصنوبرات



الجهمة ذات الجذور الكثنة، التي شهدته في العام الماضي شاباً، فراً، نشيطاً، تهمس الآن، بل انتصبت جامدة خرساء، كأنما لم تتعرف عليه وبالفعل، فقد كان رأسه حليقاً، ولم يعد لديه ذلك الشعر الطويل الجميل، وأصبحت مشيته ذابلة، وسمن وجهه، بالمقارنة مع العام الماضي، وشحب وعبر إلى الضفة الأخرى فوق القنطرة وفي المكان الذي كان يغطيه الجودار في العام الماضي امتدت الآن صفوف شعير محسود وكانت الشمس قد غربت، وتوهج عند الأفق شفق أحمر عريض، منبئاً بطقس رychي في الغد وساد الهدوء وحقد كوفرين في الجهة التي ظهر منها الراهب الأسود لأول مرة في العام الماضي، ووقف حوالي عشرين دقيقة، إلى أن بدأ شفق المغيب يعتم وعندما عاد إلى البيت ذابلاً غير راض، كانت الصلاة قد انتهت وكان يجور سيميونييتش وتانيا جالسين على درجات الشرفة يشربان الشاي كانا يتحدثان عن شيء ما، ولكنهما صمتا فجأة عندما شاهدا كوفرين فقرر من تعبير وجهيهما أنهما كانا يتحدثان عنه وقالت تانيا لزوجها: أظن أن الوقت قد حان لتشرب اللبن.

لا، لم يحن قال وهو يجلس على آخر درجة في أسفل السلم اشربيه أنت أنا لا أريد تبادلتي تانيا مع أبيها نظرة قلقة وقالت بنبرة ذنب: - أنت نفسك تلاحظ أن اللبن مفيد لك فضحك كوفرين



بسخرية: نعم، مفيد جداً أهنتكم؛ منذ يوم الجمعة ازداد وزني رطلاً آخر- وضغط رأسه بيديه بقوة وقال بأسى لماذا، لماذا عالجتُموني؟ محاليل البروم، والبطالة، والحمامات الدافئة، والرقابة، والخوف الجبان من كل رشفة، من كل خطوة كل هذا سيؤدي بي في النهاية إلى البله نعم، لقد جننت، كنت مريضاً بجنون العظمة، ولكني كنت مرحاً، نشيطاً، بل سعيداً كنت طريفاً وأصيلاً والآن أصبحت أعقل وأرصن، ولكني صرت مثل الجميع، أنا عادي، سئمت الحياة أوه، كم قسوتُم على كنت أرى تهيؤات، ولكن من ذا الذي كان يزعجه ذلك؟ إنني أسأل: من ذا الذي كان يزعجه ذلك؟.

فتنهذ يجور سيميونييتش وقال: - الله يعلم ما هذا الذي تقول حتى سماع هذا ممل - إذن لا تسمع كان وجود الآخرين، خاصة يجور سيميونييتش، يثير الآن كوفرين، فكان يرد عليه بجفاف وبرود، بل وحتى بغلظة، ولم يكن يعامله إلا بسخرية وكراهية، أما يجور سيميونييتش فكان يرتبك ويسعل بذنب، رغم أنه لم يكن يحس بأنه ارتكب أي ذنب ولما لم تكن تانيا تفهم لماذا تغيرت بحدة علاقات الود والبشاشة بينهما، فقد التصقت بأبيها وأخذت تحرق في عينيه بقلق كانت تريد أن تفهم ولا تستطيع، وأصبح واضحاً لها شيء واحد، وهو أن علاقاتهما تتدهور من يوم إلى يوم، وأن أباهما هرم بشدة في



الآونة الأخيرة، وأصبح زوجها عصبياً، نزقاً، متمحكاً وغير طريف ولم يعد في وسعها أن تضحك أو تغني.

ولم تكن تذوق شيئاً في الغداء، ولا تنام ليالي كاملة وهي تتوقع شيئاً رهيباً، وأنهكت إلى درجة أنها ظلت ذات مرة في حالة إغماء من الغداء إلى المساء وخيل إليها أثناء صلاة المساء أن أباه كان ييكي، أما الآن، وهم جالسون ثلاثتهم في الشرفة، فقد جاهدت لكي لا تفكر في ذلك وقال كوفرين:

- ما كان أسعد محمد وبوذا وشكسبير لأن أقاربهم الطيبين والأطباء لم يعالجوهم من النشوة والوحي لو أن محمداً كان يتناول بروميد البوتاسيوم من الأعصاب، ويعمل ساعتين فقط في اليوم ويشرب اللبن لما تبقى بعد هذا الإنسان الرائع أكثر مما تبقى بعد سيتمكن الأطباء والأقارب الطيبون في نهاية الأمر من جعل البشرية تتبلد، وسوف تعتبر العادية عبقرية وستهلك الحضارة وقال كوفرين بأسى - آه لو تعلمون كم أنا ممتن لكم.

أحس بضيق شديد، ولكي لا يتفوه بما لا داعي له نهض بسرعة ودخل المنزل كان الهدوء يشمل المنزل، ومن النوافذ المفتوحة تهاوت من البستان رائحة الطباقي ونبات الحلبة وفي الصالة الضخمة المظلمة انتشرت على الأرض والبيانو بقع خضراء من ضوء القمر



وتذكر كوفرين لحظات إعجابه في العام الماضي، عندما تضوع شذى الحلبة أيضاً مثل الآن ولاح ضوء القمر من النوافذ ولكي يستعيد مزاج العام الماضي توجه بسرعة إلى غرفة المكتب، ودخن سيجاراً قوياً وأمر الخادم أن يحضر له نبيذاً ولكنه أحس بطعم السيجار مرّاً وكريها في فمه، ولم يكن النبيذ لذيذاً كما في العام الماضي ما أكثر ما يعنى نسيان العادة فمن سيجار وجرعتى نبيذ دار رأسه وتلاحقت نبضات قلبه، فكان لا بد من تناول بروميد البوتاسيوم وقبل أن يأويها إلى الفراش قالت له تانيا أبى عبدك وأنت غاضب منه لسبب ما، وهذا يكاد يقتله غماً انظر كيف يهرم كل ساعة لا كل يوم أتوسل إليك يا أندريوشا، أستحلفك بالله، أن تكون لطيفاً معه من أجل راحتي ومن أجل أبيبك الراحل لا أستطيع ولا أريد- ولكن لماذا؟ - سألتها تانيا وبدأ بدنّها كله يرتجف. خبرنى، لماذا؟.

- لأنه لا يروق لى، وهذا كل ما هنالك قال كوفرين باستخفاف وهز كتفيه ولكن دعينا لا نتحدث عنه إنه أبوك.

فقالت تانيا وهي تضغط على صدغيها وتحقق في نقطة واحدة:

- لا أستطيع، لا أستطيع أن أفهم هناك شيء رهيب، لا يمكن إدراكه، يجري في منزلنا أنت تغيرت، لم تعد كما كنت أنت الشخص العاقل، غير العادي، أصبحت تنزعج لأشياء بسيطة وتدخل في



مشاحنات تشترك أشياء في غاية التفاهة لدرجة أنني أحياناً أدهش ولا أصدق: أهذا أنت؟ حسناً، حسناً، لا تغضب استطردت تانيا ومضت تلثم يديه وقد خافت من كلماتها - أنت ذكي، طيب، نبيل فلتكن عادلاً مع أبي إنه لطيف جداً .

ليس لطيفاً بل ملاطفاً إن الأعمام الهزليين، أمثال أبيك، ذوى الوجوه الشبعانة البشوشة، الكرماء للغاية والغريبي الأطوار، كانوا في وقت ما يثيرون إعجابي وضحكي سواء في القصص أم في الهزليات أم في الحياة، أما الآن فيثيرون نفوري إنهم أنانيون حتى النخاع وأكثر ما ينفرنني منهم هو شعبهم، وذلك التفاؤل الثيراني أو الخنازيري البحت النابع من معداتهم.

جلست تانيا في الفراش ووضعت رأسها على الوسادة - هذا عذاب - قالت، وكان واضحاً من صوتها أنها أصبحت مرهقة لأقصى حد وأنه من الصعب عليها أن تتكلم من الشتاء لم أعرف دقيقة راحة ما أفضع هذا يا إلهي إنني أتعذب نعم، أنا طبعاً هيرودس، وأنت وباباك صبيان مصر طبعاً.

بدا وجهه لتانيا قبيحاً ومنفراً ولم تكن الكراهية والسخرية تتسجمان معه وقد لاحظت من قبل أن شيئاً ما ينقص وجهه، كما لو أن ملامحه أيضاً قد تغيرت منذ أن حلق شعره وشعرت بالرغبة في



أن تقول له شيئاً مهيئاً، ولكنها انتبهت على الفور إلى هذا الإحساس الكريه فخافت، وغادرت الغرفة.

حصل كوفرين على كرسي أستاذ مستقل وتحدد موعد محاضراته الافتتاحية في الثاني من ديسمبر، وعلق إعلان بذلك في ممر الجامعة ولكنه في اليوم المحدد أرسل إلى مسئول الطلاب برقية يعتذر فيها عن عدم استطاعته إلقاء المحاضرة لمرضه.

نزف دماً من حلقه كان قبلها يبصق دماً، ومرتين في الشهر ينزف بغزارة، وعندئذ كان ينتابه ضعف شديد وميل إلى النوم ولم يكن هذا المرض يسبب له خوفاً كبيراً لأنه كان يعرف أن أمه عاشت بنفس هذا المرض عشر سنوات بل وأكثر، وأكد له الأطباء أن ذلك ليس خطيراً، ونصحوه فقط بالا ينفعل، وأن يتبع نظاماً سليماً للمعيشة، ويقلل من الكلام وفي يناير ألغيت المحاضرة لنفس السبب، أما في فبراير فكان الوقت متأخراً للبدء في الدورة فاضطروا للتأجيل إلى العام القادم.

لم يعد يعيش مع تانيا، بل مع امرأة أخرى كانت تكبره بعامين وتعتني به كما يعتني بطفل وكان مزاجه مسالماً، مستكيناً: فقد كان يطيعها عن طيب وعندما عزم تارفاً نيكولايفنا هكذا كانت تدعي رفيقته على السفر به إلى القرم، وافق رغم أنه كان يحسد بأن هذه



الرحلة لن تسفر عن أي شيء طيب.

وصلا إلى سيفاستوبول مساء ونزلا في فندق لكي يستريحا ثم يسافران غدا إلى بالطا وارهقهما السفر كليهما وشربت فارفارا نيكولايفنا الشاي، وأوت إلى الفراش، وسرعان ما نامت ولكن كوفرين لم يذهب إلى الفراش فقد تلقى وهو بعد في المنزل، قبل التوجه إلى المحطة بساعة، رسالة من تانيا، ولم يجرؤ على فضها، وها هي ذي الآن ترقد في جيبه الجانبي، وأثار التفكير فيها اضطرابا كريها في نفسه كان الآن يعتبر في قرارة نفسه وبإخلاص أن زواجه بتانيا كان خطأ، وكان راضيا لأنه انفصل عنها نهائيا، ولم تثر ذكرياته عن هذه المرأة التي تحولت في نهاية الأمر إلى مومياء حية، والتي بدا أن كل شيء فيها مات، اللهم إلا عينيها الواسعتين الذكيتين الثاقبتين النظرة، لم تثر ذكرياته عنها إلا الحسرة والأسى على نفسه وذكره خطها على المظروف كم كان ظالما وقاسيا منذ عامين، وكم صب نقمته لخواء روحه وملله ووحدته وبرمه بالحياة على أناس أبرياء وتذكر بالمناسبة كيف مزق ذات مرة رسالة الدكتوراه ومقالاته التي كتبها أثناء مرضه مزقا صغيرة، وألقى بها من النافذة، فطارت المزق مع الريح وهي تتعلق بالأشجار والأزهار لقد رأى في كل سطر من سطورها ادعاءات غريبة لا أساس لها، وهراء عابثا ووقاحة وجنون



عظيمة، فترك هذا في نفسه انطبعا، كأنما كان يقرأ وصفا لردائله ولكن عندما مزق آخر دفتر وألقى به من النافذة شعر فجأة بالأسى والمرارة، فذهب إلى زوجته وأسمعها الكثير من الإساءات يا إلهي كم كان يتلف أعصابها؟ ذات مرة، وقد أراد أن يؤلمها، قال لها إن أباهما لعب في قصة غرامهما دورا مشينا، لأنه رجاء أن يتزوج منها وسمع يجور سيميونييتش ذلك عرضا فاندفع إلى الغرفة، ولم يستطع من شدة الإساءة أن يقول كلمة واحدة، بل ظل فقط يراوح في مكانه، ويخور بصورة غريبة، كما لو كان لسانه قد شل، أما تانيا فنظرت إلى أبيها وصرخت صرخة تمزق القلب وسقطت مغشىً عليها كان ذلك شيئا فظيعا ورد كل هذا على خاطره عندما تطلع إلى الخط المعروف وخرج إلى الشرفة كان الجو هادئا دافئا، وفاحت رائحة البحر وعكس الخليج الرائع صورة القمر والأضواء، واكتسى بلون يصعب أن تجد له اسما كان ذلك خليطا رقيقا وناعما من اللونين الأزرق والأخضر وفي بعض الأماكن كان لون المياه يشبه الزاج الأزرق، وفي أماكن أخرى بدا أن ضوء القمر تكثف قمة الخليج بدلا من المياه، وعموما، فيا له من توافق ألوان، ويا له من مزاج مسالم، مستكين، سام يبدو أن النوافذ في الطابق الأدنى، تحت الشرفة، كانت مفتوحة، فقد تنهاتبوضوح أصوات نسائية وضحك الظاهر أنه كانت هناك حفلة وتحامل كوفرين على نفسه وفض الرسالة، وذهب إلى غرفته وقرأ:



مات أبي لتوه وأنا مدينة لك بذلك، لأنك أنت الذي قتلته وبستاننا يهلك، وأصبح الغرباء يديرونه، أي يحدث بالضبط ما كان يخشاه أبي المسكين وأنا مدينة بذلك لك أيضاً إنني أمقتك من صميم قلبي وأتمنى أن تهلك في أقرب وقت أوه، كم أعانى روعي يحرقها ألم لا يطاق عليك اللعنة لقد ظننتك إنساناً فذاً، عبقرياً، وأحببتك، ولكن ظهر أنك مجنون.

لم يستطع كوفرين أن يواصل القراءة فمزق الرسالة وألقى بها وتملكه قلق يشبه الخوف وكانت فارفارا نيكولايفنا نائمة خلف الحاجز، وتردد صوت أنفاسها ومن الطابق الأسفل تنهات الأصوات النسائية والضحك، ولكن تملكه إحساس بأنه لا يوجد في الفندق كله أحد غيره ولأن تانيا التعيسة، التي حطمتها البلوي لعنته في رسالتها وتمنت له الهلاك، فقد أحس بالرعب، ونظر إلى الباب لمحا، كأنما كان يخشى أن تدخل الغرفة وتتحكم فيه ثانية تلك القوة المجهولة التي ألحقت بحياته وحياة أقربائه في غضون ما لا يزيد عن سنتين كل هذا الدمار كان يعرف من واقع التجربة أنه إذا ما أفلتت الأعصاب فإن أفضل وسيلة لكبح جماحها هي العمل ينبغي أن يجلس إلى الطاولة ويرغم نفسه، مهما كلف الأمر، أن يركز انتباهه على فكرة ما وأخرج من حقيبتة الحمراء دفترأ سجل فيه ملخصا



سريعاً لمؤلف تصنيفي صغير، كان قد أعده ليشغل به نفسه فيما لو بدت له الإقامة في القرم مملة بدون عمل وجلس إلى الطاولة وانكب على هذا الملخص، فبدأ له أنه يستعيد مزاجه الهادئ المستكين اللامبالي بل إن هذا الدفتر قد أوحى إليه بأفكار عن باطل الحياة الدنيا وفكر في أن الحياة تأخذ الكثير لقاء تلك النعم الضئيلة، أو العادية للغاية، التي يمكن أن تقدمها للإنسان وعلى سبيل المثال، فلكي يحصل على كرسي أستاذ وهو يناهز الأربعين، ولكي يكون أستاذاً عادياً، يصوغ بلغة ذابلة مملة ثقيلة أفكاراً عادية، هي فوق ذلك أفكار الآخرين وباختصار فلكي يبلغ منزلة العالم المتوسط، كان عليه، هو كوفرين، أن يدرس خمسة عشر عاماً، ويعمل ليل نهار، ويصاب بمرض نفسي عضال، ويخوض تجربة زواج فاشل، ويرتكب الكثير من الحماقات والمظالم التي يسعده ألا يتذكرها كان كوفرين يدرك الآن بوضوح أنه شخص عادي، وقنع بذلك عن طيب خاطر، لأن كل إنسان، حسب رأيه، ينبغي أن يرضى بما هو عليه.

كان الملخص يهدئه تماماً، بيد أن الرسالة الممزقة الملقاة على الأرض كانت تلوح لناظريه فتعوقه عن التركيز فتهض من أمام الطاولة، وجمع مزق الرسالة وألقى بها من النافذة، ولكن نسيماً خفيفاً هب من البحر فتناثرت المزق على حافة النافذة ومن جديد تملكه قلق



يشبه الخوف، وعاوده الإحساس بأنه لا يوجد في الفندق كله أحد غير هو خرج إلى الشرفة كان الخليج، كمخلوق حي، يحدق فيه بأعين زرقاء وسماوية وفيروزية ونارية عديدة ويشده إليه وبالفعل كان الجو حاراً وخانقاً يغرى بالاستحمام.

وفجأة تردد من الطابق الأدنى تحت الشرفة عزف كمان، وغني صوتان نسائيان رقيقان وبدا ذلك شيئاً مألوفاً كانت الأغنية التي غناها في الأسفل تتحدث عن فتاة ما، مصابة بالوهم، سمعت ليلاً في الحديقة أصواتاً غامضة.

فاعتبرتها هارموني مقداً، ليس مفهوماً لنا نحن الفنانين واحتبست أنفاس كوفرين، وعصر الحزن قلبه، ورفرفت في صدره فرحة رائعة حلوة منسية منذ زمن بعيد وعلى ضفة الخليج الأخرى ظهر عمود أسود طويل، يشبه الزوبعة أو الدوامة الهوائية وتحرك فوق الخليج بسرعة رهيبية متجهاً نحو الفندق وهو يزداد انكماشاً وقتامة، فلم يتمكن كوفرين من التتحى إلا بالكاد ليفسح له الطريق ومرق الراهب الأسود، برأسه الأشيب الحاسر، وحاجبيه الأسودين، وقدميه الحافيتين ويديه المعقودتين على صدره، بجوار كوفرين وتوقف في وسط الغرفة وسأل بعتاب وهو ينظر إلى كوفرين برقة:

- لماذا لم تصدقني؟ لو صدقت ما قلته لك آنذاك بأنك عبقرى،



لما قضيت هذين العامين بهذا الحزن والجذب.

أصبح كوفرين الآن يؤمن بأنه من أبناء الله المختارين وعبقري، وتذكر على الفور كل أحاديثة السابقة مع الراهب الأسود، وأراد أن يتكلم، ولكن الدم سال من حلقه على صدره مباشرة، فأخذ، وهو لا يدري ماذا يفعل، يمسح بيديه على صدره، فتبيلت أساوره بالدم وأراد أن يدعو فارفارانيكولايفنا التي كانت نائمة خلف الحاجز، فتحامل على نفسه وتمتم: - تانيا وسقط على الأرض، ثم نهض على ذراعيه ونادى ثانية: - تانيا كان ينادى تانيا، بنادي البستان الكبير بأزهاره الفاخرة المبللة بالندى، ينادى الحديقة، وأشجار الصنوبر ذات الجذور الكثية، وحقل الجودار، وعلمه البديع، وشبابه، وجسارته، وفرحته، كان ينادى الحياة التي كانت جد رائعة ورأى بجوار وجهه على الأرض بركة دم كبيرة، ولم يعد بوسعه من شدة الضعف أن ينطق بكلمة واحدة، ولكن سعادة لا نهائية لا توصف ملأت كل كيانه وفي الأسفل تحت الشرفة كانوا يعزفون سيرنادا، بينما راح الراهب الأسود يهمس له بأنه عبقرى وبأنه لا يموت إلا لأن جسده البشري الضعيف قد فقد توازنه ولم يعد قادراً على أن يكون غلافاً يحفظ العبقرية.

عندما استيقظت فارفارا نيكولايفنا وخرجت من وراء الحاجز،



كان كوفرين قد فارق الحياة، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عذبة.

الفلاحون

مرض نيكولاي تشيكيدييف الخادم بفندق سلافيانسكي بازار بموسكو نملت ساقاه وتغيرت مشيته، حتى إنه تعثر ذات مرة وهو يسير في الممر فوق الصينية التي كانت عليها شرائح خنزير بالبازلاء واضطر إلى ترك العمل وأنفق كل ما كان لديه من نقوده ونقود زوجته على العلاج، ولم يعد هناك ما ينفق على الطعام، ومل البطالة فقرّر أنه ربما كان عليه أن يرحل إلى بيتهم في الريف فالمرض في البيت أخف والحياة أرخص؛ وليس عبثاً أن يقال: في البيت الجدران تساعد.

وصل إلى قريته جو كوفو قبيل المساء وكان مسقط رأسه يبدو له في ذكريات الطفولة مشرقاً، حميماً، مريحاً، أما الآن، وعندما دخل الدار، فقد شعر حتى بالخوف؛ فكم كان المكان مظلماً وضيقاً وقذراً ونظرت زوجته أولجا وابنته ساشا، اللتان جاءتا معه، باستغراب إلى



الفرن الكبير المنفر، الذي كاد أن يشغل نصف الدار، والمسود من الهباب والذباب ما أكثر الذباب كان الفرن مائلاً، وجذوع الأشجار التي شيدت منها الجدران معوجة، فبدأ أن الدار ستتهار تواء وفي الركن الأمامي، بجوار الأيقونات، ألصقت رقع ماركات الزجاجات ومزق من الصحف، وذلك بدلا من الصور يا للفقر لم يكن أحد من الكبار في المنزل، إذ كانوا كلهم يحصدون وعلى الفرن جلست طفلة في حواليا الثامنة، بيضاء الرأس، قذرة الوجه، لا مبالية لم تنظر حتى إلى القادمين وفي الأسفل تمسحت قطعة بيضاء بالبشكير ودعتها ساشا إليها: - بس، بس فقالت الطفلة: - إنها لا تسمع طرشت مم؟- هكذا من الضرب.

أدرك نيكولاي وأولجا منذ الوهلة الأولى أية حياة هنا، ولكن أحداً منهما لم يقل للأخر شيئاً أنزلا الصرر في صمت، وخرجا في صمت كانت دارهم الثالثة من الطرف، وبدأت أفقر الدور وأقدمها ولم تكن الدار الثانية أفضل، ولكن الثالثة كانت بسقف معدني وستائر على النوافذ هذه الدار، التي لم تكن مسيجة، لاحت قائمة بذاتها، وكان بها حانة وامتدت الدور صفاً واحداً، وبدأت القرية كلها، الهادئة المستغرقة، بأشجار الصفصاف والبيلسان والغبيراء المطلة من الأفنية، لطيفة المنظر.



وبعد دور الفلاحين يبدأ منحدر نحو النهر، شديد الانحدار وجرفى، وظهرت أحجار ضخمة وسط الطين هنا وهناك وعلى السفح، بجوار هذه الأحجار والحفر التي حفرها الحفارون، تعرجت دروب، وتكدست أكوام من شقف الأواني المكسرة، بعضها بني وبعضها أحمر، وفي الأسفل امتد مرج أخضر ساطع واسع مستو، حصد عشبه، فأصبحت ماشية الفلاحين ترعى فيه الآن بحرية وكان النهر على بعد فرسخ من القرية، نهر متعرج، بشطآن رائعة متموجة الخمائل، ومن بعده مرج واسع آخر، وماشية وطوابير طويلة من الأوز الأبيض، ثم طريق منحدر بشدة - كما في هذا الشاطئ - صاعد إلى التل، وفي الأعلى، على التل، قرية بكنيسة ذات خمس قباب ومنزل السادة على مقربة منها وقالت أولجا وهي ترسم على صدرها علامة الصليب في مواجهة الكنيسة: - ناحيتكم جميلة يا إلهى، يا للرحابة.

وفي هذه اللحظة دوت أجراس صلاة المساء (كانت عشية الأحد) وتطلعت فتاتان صغيرتان كانتا تتقلان الماء في دلو في الأسفل إلى الكنيسة لتسمعا الرنين ودمدم نيكولاى حالماً - في هذا الوقت يقدمون العشاء في سلافيانسكى بازار ورأى نيكولاى وأولجا وهما جالسان على الجرف كيف راحت الشمس تغرب، وكيف انعكست السماء الذهبية القرمزية في النهر وفي نوافذ الكنيسة وفي الهواء



كله، الرقيق الساكن، النقى بصورة لا توصف، والذي لا مثيل له في موسكو أبداً وعندما غربت الشمس مر قطيع الماشية وهو يخور ويزأر وأقبل الأوز طائراً من تلك الناحية، ثم صمت كل شيء، وخبا الضوء الخافت في الهواء، وزحف ظلام المساء بسرعة.

وفي تلك الأثناء عاد العجوزان، والد نيكولاى وأمه، هزيلين، محنيين، بلا أسنان، كلاهما من طول واحد وجاءت النساء: زوجتا الأخوين ماريا وفيكلا اللتان كانتا تعملان وراء النهر لدى الإقطاعي كان لدي ماريا، زوجة الأخ كيرياك، ستة أطفال، ولدي فيكلا، زوجة الأخ دينيس الذي جند في الجيش، طفلان وعندما دخل نيكولاى الدار ورأى العائلة كلها، كل هذه الأجساد الكبيرة والصغيرة التي كانت تتحرك على ألواح النوم وفي المهود وفي جميع الأركان، وعندما رأى بأية شراهة كان العجوز والنسوة يأكلون الخبز الأسود وهم يغمسونه في الماء، أدرك أنه جاء إلى هنا مريضاً، بلا مال، وفوق ذلك مع أسرته، عبقاً؟ وسأل بعد أن سلم عليهم: - وأين كيرياك؟ فأجابه أبوه: - يعيش عند التاجر حارساً، في الغابة فلاح لا بأس به، لكنه يفرط في الشراب فدمدمت العجوز دامعة:

- ليس مطعماً رجالنا بلايا، لا يحملون إلى البيت بل يسحبون من البيت كيرياك يشرب، والعجوز أيضاً، ولا داعي للتستر، إنه يعرف



الطريق إلى الحانة غضبت علينا السيدة العذراء.

وبمناسبة مجيء الضيوف أشعلوا السماور وفاحت من الشاي رائحة السمك، وكان السكر مقروضاً ورمادياً، وتراكضت الصراصير فوق الخبز والأوعية كان الشرب كريهاً، والحديث أيضاً كريهاً كله عن الفاقة والأمراض وما إن شربوا أول كوب شاي حتى تناهت من الفناء صيحة عالية طويلة ثملة:

ماريا فقال العجوز: - يبدو أنه كيرياك قد جاء تذكرنا القط صمت الجميع وبعد قليل ترددت نفس الصيحة الفظة الطويلة كأنها من تحت الأرض: مريا شحبت ماريًا، زوجة الابن الأكبر والتصقت بالفرن، وكان غريباً أن ترى على وجه هذه المرأة القوية، العريضة الكتفين، القبيحة، تعبير الرعب وفجأة بكت ابنتها بصوت عال، تلك الفتاة التي كانت جالسة على الفرن وبدت لامبالية.

فصاحت بها فيكلا، وهي امرأة جميلة وأيضاً قوية وعريضة الكتفين: وأنت، أيتها المطعونة، مالك؟ لن يقتلك علم نيكولاي من العجوز أن ماريًا كانت تخاف العيش مع زوجها في الغابة، وأنه عندما يكون ثملاً يأتي دائماً ليأخذها، ويثير أثناء ذلك صخباً ويضربها بلا رحمة ودوت الصرخة عند الباب تماماً: ماريًا؟ فتمتمت ماريًا وهي تتنفس كشخص أنزلوه في ماء بارد للغاية: احموني بحق



المسيح يا أحبابي، احموني يا أحبابي وبكى كل من كان في الدار من أطفال، وبكت ساشا أيضاً وهي تحذو حذوهم وتناهى سعال ثمل، ودلف إلى الدار فلاح طويل، أسود اللحية، في طاقية شتوية، ولما لم يكن وجهه ظاهراً في ضوء المصباح الكابي فقد بدا رهيباً كان ذلك كيرياك اقترب من زوجته فطوح بيده إلى الوراء وسدد إليها لكمة في وجهها فلم يند عنها صوت وقد أصمتها اللكمة أقعدتها فحسب، وعلى الفور تدفق الدم من أنفها ودمدم العجوز وهو يصعد إلى سطح الفرن: - يا للعار، أمام الضيوف حرام عليك.

أما الجدة فجلست صامته، متكورة، وهي تفكر في شيء ما وكانت فيكلاً تهز المهد ويبدو أن كيرياك كان يدرك أنه رهيب ويشعر بالرضى لذلك، فأمسك بذراع ماريا وجرها إلى الباب، وزأر كوحش ليبدو أكثر رهبة، ولكنه رأى الضيوف في تلك اللحظة فتوقف ودمدم وهو يخلو سبيل زوجته: - آه، وصلت أخى الحبيب وأسرته وصل أمام الأيقونة مترنحاً وقد فتح عينيه الحمرأوين الثملتين واسعاً، واستطرد: - أخى وأسرته جاءوا إلى بيت الوالدين من موسكو يعنى من العاصمة الأولى يعنى، أم المدن اعذرونى وانحط على الأريكة بجوار السماور وراح يشرب الشاي من الطبق وهو يرشفه بصوت عال، بينما خيم الصمت شرب حوالي عشرة فناجين، ثم مال على الأريكة وارتفع شخير



وبدأوا يستعدون للنوم وضعوا نيكولاى باعتباره مريضاً على الفرن مع العجوز ورقدت ساشا على الأرض، بينما مضت أولجا مع النساء إلى الحظيرة وقالت وهي ترقد على الدريس بجوار ماريا - إيه يا حلوة، الدموع لن تخفف البلوى اصبري وهذا كل شيء فقد جاء في الكتاب: من ضريك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر إيه يا حلوة ثم تحدثت بصوت شبه هامس ناغم عن موسكو، وعن حياتها، وكيف كانت تعمل خادمة في البنسيونات.

قالت: البيوت في موسكو كبيرة، حجرية، والكنائس كثيرة جداً، بالمئات، وأصحاب البيوت سادة، كلهم جميلون، كلهم مهذبون وقالت ماريا أنها لم تذهب أبداً لا إلى موسكو فحسب بل حتى إلى مدينة إقليمهم كانت أمية، لا تعرف أية صلاة، ولا حتى أبانا الذي كانت هي وزوجة الأخ الآخر، فيكلا، التي كانت جالسة الآن غير بعيد وتستمتع، كانتا كلتاها متخلفتين جداً ولم يكن بوسعهما فهم شيء وكلتاها لم تكونا تحبان زوجيهما كانت ماريا تخشى كيرياك، وعندما يبقى معها كانت ترتعد من الخوف، ودائماً ما تختنق وهي بقرية فقد كانت تتصاعد منه بشدة رائحة الفودكا والتبغ أما فيكلا فردت على السؤال عما إذا كانت تشعر بالملل بدون زوجها، قائلة بأسى: - فليذهب في داهية وبعد أن تحدثن صمتن.



كان المكان بارداً، وبجوار الحظيرة صاح ديك بأعلى صوته فعاقهن عن النوم وعندما تسرب ضوء الفجر الأزرق الشاحب عبر جميع الشقوق، نهضت فيكلاً بهدوء وخرجت، ثم تردد وقع قدميهما العاريتين وهي تركض إلى مكان ذهبت أولجا إلى الكنيسة واصطحبت معها ماريا وعندما هبطتا على الدرب إلى المرج شعرتا كلتاهما بالمرح كانت أولجا معجبة بالرحابة، أما ماريا فأحست في عديلتها بإنسان قريب حبيب وأشرقت الشمس وحلق صقر ناعس على ارتفاع منخفض فوق المرج، وكان النهر عاباً، وفي بعض الأماكن هوم الضباب، أما على الشاطئ الآخر، فوق التل، فقد امتد شريط ضوء، ولمعت الكنيسة، وفي بستان السادة صاحت الغريبان بضراوة وتحدثت ماريا:

- العجوز لا بأس به أما الجدة فقاسية، تتشاجر دائماً معنا كفانا حتى أيام المرافع فقط، والآن نشترى الدقيق من الحانة، ولهذا فهي حانقة، تقول إنا نأكل كثيراً إيه يا حلوة، اصبري وهذا كل شئ فقد جاء في الكتاب: تعالوا إلى يا جميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم. كانت أولجا تتحدث بوقار وبصوت ناغم، وكانت مشيتها مثل مشية المتعبدة، سريعة ومضطربة، وكانت تقرأ الإنجيل كل يوم، بصوت مسموع، كقراءة الشماس، ولا تفهم منه الكثير ولكن الكلمات



المقدسة كانت تبعث فيها التأثير حتى تدمع عينها كانت تؤمن بالله، وبالسيدة العذراء، وبالقديسين، وتؤمن بأنه لا يجوز إيذاء أحد في الدنيا سواء البسطاء، أم الألمان، أم الفجر، أم اليهود، والويل لأولئك الذين لا يشفقون على الحيوانات، تؤمن بأن ذلك مكتوب في الكتب السماوية. لذلك فعندما كانت تلفظ كلمات من الكتاب المقدس، حتى ولو لم تكن مفهومة، يرتسم على وجهها الشفقة والحنان والإشراق.

وسألتها ماريا: من أين أصلك؟ أنا من فلاديمير لكنهم أخذوني إلى موسكو من زمان، وعمري ثمانية وبلغتا النهر وعلى الشاطئ الآخر، قرب الماء تماماً، وقفت امرأة وهي تنزع ثيابها وعرفتھا ماريا فقالت: هذه فيكلا، كانت في بيت السادة وراء النهر، عند الوكلاء أنها شقية وعيابة جدا وقفت فيكلا، سوداء الحاجبين، مسدلة الشعر، صبية بعد وقوية كفتاة، وألقت بنفسها من الشاطئ، وضربت في الماء بساقيها، فامتدت الأمواج منها إلى جميع الاتجاهات وكررت ماريا: - شقية جدا.

عبر النهر امتدت قنطرة متهاكة من جذوع الأشجار، وتحتها بالضبط مرت أسراب من السمك العريض الرأس في الماء الصافي الشفاف ولمعت قطرات الندى على الخمائل الخضراء المطلة في الماء وهبت نسيمات دافئة فبعثت السرور يا له من صباح رائع وما



أجمل الحياة التي كان يمكن أن تكون في هذه الدنيا على الأرجح لولا الفقر، النقر الفظيع المحدث، الذي لا مهرب منه وما إن تنتظر إلى القرية حتى تتذكر على الفور كل ما حدث بالأمس، وفي التو واللحظة يتلاشى سحر السعادة الذي لاح في الأجواء.

ووصلنا إلى الكنيسة توقفت ماريا عند المدخل ولم تجرؤ على التقدم خطوة واحدة ولم تجرؤ أيضاً على الجلوس رغم أنهم لم يدعوا إلى القداس إلا في الساعة التاسعة وهكذا ظلت واقفة طوال الوقت وأثناء تلاوة الإنجيل دبت الحركة فجأة في جمهور المصلين وأفسحوا الطريق لأسرة الإقطاعي دخلت فتاتان في فستانين أبيضين، وقبعتين عريضتين، ومعهما صبي بدين، متورد الخدين في بدلة بحار وتأثرت أولجا لدي ظهورهم، وقررت من الوهلة الأولى أنهم أناس مستقيمون مهذبون جميلون أما ماريا فنظرت إليهم شزراً، بتجهم وكآبة، كأنما لم يكونوا بشراً، بل وحوشاً كادت أن تسحقها لولا أنها تتحت جانباً.

وكلما كان الشماس يرتل بصوت غليظ كان يترأى لها أنها تسمع صيحة ماريا فينتفض بدنهما علم أهل القرية بمجيء الضيوف فاجتمع في الدار بعد القداس عدد كبير منهم جاء آل ليونيتش وماتيفيتش وإيليتش ليعرفوا أخبار أقربائهم العاملين بموسكو كان جميع صبيان قرية جوكوفو الذين يعرفون القراءة والكتابة يرسلون إلى موسكو



ليعملوا خدام مطاعم أو فنادق فقط كذلك كانوا يرسلون الصبيان من القرية الواقعة على الضفة الأخرى للنهر إلى موسكو للعمل في المخابز فقط وكان ذلك معمولاً به منذ القدم، منذ عهد القنائة، عندما كان شخص يدعى لوقا إيفانيتش، وهو فلاح من جوكوفو، أصبح الآن أسطورياً، يعمل عامل بوفيه في أحد نوادي موسكو، وكان لا يستخدم عنده إلا أبناء قريته فقط، وعندما يستقر هؤلاء في وظائفهم كانوا يجلبون أقرباءهم ويساعدونهم في الحصول على عمل في الحانات والمطاعم ومنذ ذلك الحين وأهالي المناطق المجاورة لجوكوفو لا يسمونها إلا بالوقحة والخدمة وقد أرسلوا نيكولاي إلى موسكو وهو في الحادية عشرة، وساعده في الحصول على عمل إيفان مكاريتش من آل ماتفيفيتش، الذي كان يعمل آنذاك حاجباً في حديقة أرميتاج وها هو ذا نيكولاي الآن يخاطب آل ما تفيفيتش بلهجة الواعظ: - إيفان مكاريتش هو ولي نعمتي، ومن واجبي أن أصلي لله من أجله ليل نهار، فعن طريقه أصبحت رجلاً طيباً فقالت عجوز طويلة، هي أخت إيفان مكاريتش، بصوت باك: - آه يا بني، لم نعد نسمع عنه شيئاً في الشتاء كان يعمل لدى أوومون، أما في الموسم الحالي فأشيع أنه يعمل في البساتين، خارج المدينة لقد شاخ كان من قبل، خاصة في الصيف، يكسب عشرة روبلات في اليوم، ولكن العمل الآن كسد في جميع الأماكن، والعجوز يشقى تطلعت العجوز والنسوة



إلى ساقى نيكولاي اللتين كان يضعهما في حذاء من اللباد، وإلى وجهه الشاحب، وقلن بأسي: - لست مطعماً يا نيكولاي اوسيبيتش، لست مطعماً لا حول لك.

وتودد الجميع إلى ساشا كانت قد تجاوزت العاشرة، ولكنها كانت قصيرة، نحيلة جداً، وكانت هيئتها توحى بأنها في السابعة لا أكثر ووسط الفتيات الأخريات، السمرات، ذوات الشعر المقصوص بصورة سيئة، المرتديات جلابيب طويلة باهتة، بدت هي ببشرتها البيضاء، وعينها الواسعتين الداكنتين، والشريط الأحمر في شعرها، مضحكة، كأنما حيوان صغير أمسكوا به في الحقل وجاءوا به إلى الدار وقالت أولجا بفخر وهي تتطلع إلى ابنتها برقة: - إنها تجيد القراءة اقرئي يا بنيتي- قالت وهي تستخرج الإنجيل من الصرة اقرئي وسيصغي إليك المسيحيون كان الإنجيل قديماً، ثقيلاً، في غلاف جلدي، مهترئ الزوايا، وفاحت منه رائحة وكأنما دخل الدار رهبان ورفعت ساشا حاجبها وبدأت تقرأ بصوت عال ناغم:

- دولما انصرفوا إذا بملاك الرب تراءى ليوسف في الحلم قائلاً: قم فخذ الصبي وأمه-الصبي وأمه رددت أولجا وتضرج وجهها كله من الانفعال - واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك وعندما سمعت أولجا الكلمات المقدسة لم تتمالك نفسها فبكت وحذت ماريًا حذوها



فشهقت، وتبعته أخت إيفان مكارينش أما العجوز فسعل وتململ باحثاً عن هدية يقدمها لحفيدته، ولما لم يجد شيئاً أشاح بيده وعندما انتهت التلاوة تفرق الجيران إلى بيوتهم متأثرين ومسرورين جداً من أولجا وساشا وبمناسبة العيد ظلت الأسرة في البيت طول النهار وكانت العجوز التي كان زوجها، وزوجات أبنائها، وأحفادها، جميعاً ينادونها بالجددة، تحاول أن تقوم بنفسها بكل الأعمال إذ أشعلت الفرن، هيأت السماور بنفسها، بل ذهبت بنفسها لحلب البقرة، ثم راحت تشكو من أنهم أرهقوها بالعمل وكانت طوال الوقت تخشى أن يأكل أحدهم قطعة خبز زائدة، أو أن يجلس العجوز وزوجات الأبناء بلا عمل وتارة كان يخيل إليها أن أوزات صاحب الحانة وهى تتسلل من الفناء الخلفي إلى مزرعتها، فتتطلق من الدار ومعها عصا طويلة، ثم تظل بعد ذلك لنصف ساعة تصرخ بصوت حاد بجوار كرنبها الهزيل مثلها وتارة يتراءى لها أن الحداة تتربص بأفراخها، فتتنقض بالسباب على الحداة كانت تغضب وتتذمر من الصباح إلى المساء، وكثيراً ما تصيح صياحاً شديداً يجعل المارة يتوقفون.

ولم تكن تعامل عجوزها برقة، وتنتعه تارة بالتبيل وتارة بالمطعون لم يكن رجلاً قديراً يعتمد عليه، وربما لولا حثها المستمر له لما عمل إطلاقاً، بل لجلس على الفرن فقط وتحدث ظل يحدث ابنه طويلاً



عن أعداء ما، ويشكو له من الإهانات التي ادعى أنه يتحملها كل يوم من جيرانه، وكان سماعه يبعث الملل كان يتحدث ممسكا بخصرة.

- نعم، نعم بعد عيد نصب الصليب بأسبوع بعث الدريس بثلاثين كوبيك اللبود، طواعية نعم حسنا وبينما أنا أنقل، يعنى، الدريس صباحاً طواعية، ولا أتحرش بأحد، وفي ساعة نحس، نظرت فإذا بالعمدة أنتيب سيديلنيكوف خارج من الحانة: إلى أين تحمله يا ابن كذا وكذا؟ وضربني على أذني أما كيرياك فكان الصداق يعذبه عندما أفاق، وكان يشعر بالخجل من أخيه ودمدم وهو يهز رأسه المصدع:

- انظر ماذا تفعل الفودكا، آه يا إلهي اعذرني يا أخي، وأنت يا أختي بحق المسيح، أنا نفسي مستاء وبمناسبة العيد اشتروا من الحانة فسيخاً مملحاً وطبخوا حساء من رؤوس الفسيخ وفي منتصف النهار جلسوا إلى المائدة ليشربوا الشاي، وشربوه طويلاً، حتى سال عرقهم، وبدا كأنما انتفخوا من الشاي، وبعدها فقط بدأوا يتناولون الحساء من صحيفة واحدة أما الفسيخ نفسه فقد أخفته الجدة.

في المساء أحرق الفخار الآنية على جرف النهر وعلى المرج في الأسفل رقصت الفتيات في دائرة وغنين وعزفوا على الأكورديون وعلى الشاطئ الآخر أيضاً اشتعل فرن وغنت الفتيات، وبدا هذا الغناء من بعيد متسقاً ورفيقاً وفي الحانة وحولها تعالى صخب الفلاحين، وغنوا



بأصوات مخمورة متضاربة، وسبوا سباباً فاحشاً حتى إن أولجا كانت تتنفض وتتمتم: - آه، يا إلهي أدهشها أن السباب كان لا ينقطع، وأن الشيوخ الذين آن لهم أن يموتوا، كانواهم أكثر الجميع سباباً وأعلاهم صوتاً أما الأطفال والفتيات فكانوا يسمعون هذا السباب دون أدنى خجل، وبدا أنهم ألفوه منذ المهد ومر منتصف الليل، وانطفأت الأفران على هذا الشاطئ وذلك، لكن الاحتفال المعربد استمر في المرح وفي الحانة وسار العجوز وكيرياك، مخمورين، ممسكين بأيدي بعضهما البعض، متدافعين بالأكتاف، واقتربا من الحظيرة التي كانت ترقد فيها أولجا وماريا.

ومضى العجوز يقنعه-دعها إنها امرأة مسالمة حرام فصاح كيرياك - ماريا؟ -دعها حرام إنها امرأة طيبة ووفقا حوالي دقيقة بجوار الحظيرة ثم انصرفا وفجأة غنى العجوز بصوت تينور عال ثاقب: أحب زهور الحقول، أحب قطاف المروج ثم بصق وأطلق سباباً قذراً ودخل الدار: وضعت الجدة ساشا بجوار مزرعتها وأمرتها أن تحرسها من الأوز كان يوماً حاراً من شهر أغسطس وكان بوسع أوزات صاحب الحانة أن تتسلل إلى المزرعة عبر الفناء الخلفي، لكنها كانت مشغولة الآن بالتقاط الشعير بجوار الحانة وتحدث فيما بينها بسلام، ما عدا ذكر الأوز الذي كان يرفع رأسه عالياً، كأنما



ليعرف ما إذا كانت العجوز قادمة والعصا في يدها أم لا وكان بوسع الأوزات الأخريات أن تتسلل من أسفل، ولكنها كانت ترعى الآن بعيداً وراء النهر وقد امتدت شريطاً طويلاً أبيض فوق المرح وقفت ساشا قليلاً، وعندما ملت ورأت أن الأوزات لا تتسلل، ذهبت إلى جرف النهر وهناك رأت موتكا، ابنة ماريا الكبرى، واقفة بلا حراك فوق صخرة ضخمة تحديق في الكنيسة أنجبت ماريا ثلاث عشرة مرة، ولكن لم يبق على قيد الحياة سوى ستة أطفال، وكلهم فتيات، أكبرهن في الثامنة، ولا صبي واحد وقفت موتكا حافية، في جلاباب طويل، في اللظى، وكانت الشمس تلهب يافوخها مباشرة، ولكنها لم تلاحظ ذلك، وكأنها تجمدت ووقفت ساشا بجوارها وقالت وهي تتطلع إلى الكنيسة: الرب يعيش في الكنيسة وعند البشر تشتعل المصابيح والشموع، أما عند الرب فتشتعل القناديل الحمراء والخضراء والرزقاء كالعيون وفي الليل يسير الرب في الكنيسة ومعه العذراء المقدسة والقديس نيكولاوي ويخطون: دبذب دب والحارس يخاف، يخاف جداً واستطردت مقلدة أمها إيه يا حلوة وعندما تقوم القيامة ستطير كل الكنائس إلى السماء..

وسألت موتكا بصوت غليظ وهي تمط المقاطع: مع أجراسها؟ مع أجراسها وفي يوم القيامة يذهب الطيبون إلى الجنة، أما



الأشعار فيحترقون في النار إلى الأبد ودون انطفاء يا حلوة وسيقول الرب لأمي ولماريا أيضاً: أنتما لم تؤذيا أحداً، لذلك اذهبا إلى اليمين، إلى الجنة وسيقول لكيريالك والجدة: أما أنتما فاذهبا إلى الشمال، إلى النار ومن أفطر في الصيام فسيذهب أيضاً إلى النار.

ونظرت إلى أعلى، إلى السماء، وقد فتحت عينيها واسعاً وقالت: - انظري إلى السماء ولا ترمشي، وسترين الملائكة فنظرت موتكاً أيضاً إلى السماء، ومررت دقيقة صمت فسألتها ساشا: - أترين؟ فتمتمت موتكاً بصوت غليظ: لأري- أما أنا فأراهم ملائكة صفاراً يطيطرون في السماء ويضربون أجنتهم: سيك سيك سيك، كالبعوض وفكرت موتكاً قليلاً، ثم سألت وهي تحرق في الأرض: - هل ستحترق جدتي - ستحترق يا حلوة.

من الصخرة حتى الأسفل تماماً امتد منحدر مائل مستو، مغطى بعشب أخضر طري يبعث في النفس الرغبة في لمسها باليد أو الرقاد عليه فرقدت ساشا وتدحرجت إلى أسفل ورقدت موتكاً أيضاً، بوجه جاد صارم، وهي تزجر، وتدحرجت، وأثناء ذلك انحسر جلبابها حتى كتفيها.

وقالت ساشا بإعجاب: - كم شعرت بالمرح.

وصعدتا معاً إلى أعلى لتدحرجا مرة أخرى، وفي تلك اللحظة



تتأهى إلى سمعهما الصوت الرفيع المألوف أوه ما أفضع ذلك كانت
 الجدة، المعروقة، الحدياء، بقم خال من الأسنان، وشعر قصير أبيض
 يتطاير في الريح، تطارد الأوز من المزرعة بعضا طويلة وتصرخ:
 داسوا الكرب كله، الملاعين، فلتأخذكم مصيبة، عليكم ألف لعنة،
 فليهلككم طاعون ورأت الفتاتين فألقت بالعصا والتقطت غصناً جافاً،
 وأمسكت ساشا من رقبتها بأصابعها الجافة الصلبة كأسنان المذرة
 وراحت تجلدها وبكت ساشا من الألم والخوف، وفي تلك اللحظة
 اقترب ذكر الأوز من الجدة وهو يتمايل من جنب إلى جنب وقد مط
 عنقه، وفتح بشيء ما، وعندما عاد إلى السرب صاحت الأوزات محيية
 ومشجعة: قو قو قو ثم شرعت الجدة في جلد موتكا، وأثناء ذلك
 انحسر جلاباب موتكا ثانية وذهبت ساشا إلى الدار لكى تشكو وهي
 تشعر بالحرق وتبكي عالياً وتبعثها موتكا التي كانت تبكي أيضاً، ولكن
 بصوت غليظ، ولا تمسح دموعها، فأصبح وجهها مبللاً حتى بدا
 كأنها غمرته في الماء- يا إلهي - ذهلت أولجا عندما دخلت الفتاتان
 إلى الدار- أيتها السيدة العذراء .

وبدأت ساشا تروى لها ما حدث، وفي تلك الأثناء دخلت الجدة
 وهي تصرخ بصوت ثاقب وتسب، وغضبت فيكلا، وارتفع الصخب في
 الدار وقالت أولجا الشاحبة الحزينة وهي تطيب خاطر ساشا وتمسد



رأسها: - لا بأس، لا بأس، إنها جدتك حرام أن تغضبي منها لا بأس با بنيتي أما نيكولاى الذي عذبه هذا الصراخ المستمر، والجوع الدائم والاختناق، والرائحة الكريهة، وأصبح يمقت الفقر ويزدرية، والذي كان يشعر بالخجل أمام زوجته وابنته من أمه وأبيه، فقد دلى ساقيه من فوق الفرن، ودمدم بصوت منزعج باك مخاطباً أمه: ليس لك أن تضربيهما ليس لك أي حق في ضربها.

فصاحت فيه فيكلاً - فلتزهق روحك هناك على الفرن أية مصيبة جاءت بكم إلى هنا يا عائلة واختبأت ساشا وموتكا وكل الفتيات الموجودات على الفرن خلف ظهر نيكولاى وسمعن من هناك كل ذلك في صمت وخوف، وترددت مسموعة دقائق قلوبهن الصغيرة عندما يوجد في الأسرة شخص مريض منذ أمد طويل مرضاً ميئوساً منه، تمر أحياناً لحظات صعبة يتمنى فيها أقاربه موته في أعماق قلوبهم بوجل وخفية ولكن الأطفال وحدهم هم الذين يخشون موت القريب، ويشعرون بالرعب كلما خطر لهم ذلك وها قد حبست الفتيات أنفاسهن ونظرن بتعبير حزن على وجوههن إلى نيكولاى، وفكرن في أنه سيموت قريباً فشعنن بالرغبة في البكاء وفي أن يقلن له بضع كلمات رقيقة مشفقة.

والتصق نيكولاى بأولجا، وكأنما يبحث فيها عن حماية، وقال لها



بصوت خافت متهدج- أوليا يا عزيزتي، لا أستطيع أن أبقى هنا لم أعد أحتمل بحق الله، بحق المسيح في السماء، اكتبني لأختك كلافديا أبراموفنا، فلتبع ولترهن كل شيء لديها، ولترسل لنا نقودا لنرحل من هنا أوه يا إلهي - استطرد يقول بكآبة - لو ألقى نظرة واحدة على موسكو لو أراها، مدينتي العزيزة، ولو في الحلم عندما حل المساء وأظلمت الدار، غشيت الوحشة النفوس حتى أصبح من الصعب التفوه بكلمة وبللت الجدة الغاضبة كسراً من خبز الجودار في كوب ومضت تمصها فترة طويلة، ساعة كاملة وبعد أن فرغت ماريا من حلب البقرة، جاءت بدلو اللبن ووضعت على الأريكة ثم صبتة الجدة من الدلو في أباريق، وأيضاً فترة طويلة، على مهل، ويبدو أنها كانت مسرورة من أن أحداً لن يشرب اللبن الآن، في صيام رفع العذراء، سيبقى دون مساس ولم تصب منه إلا قليلاً جداً في طبق صغير لطفل فيكلا وعندما حملت مع ماريا اللبن إلى القبو قفزت موتكا فجأة، وهبطت من فوق الفرن، واقتربت من الأريكة التي كان عليها الكوب الخشبي بالخبز المبلل، وصبت فيه قليلاً من اللبن من الطبق.

وعادت الجدة إلى الدار ومضت تمص خبزها ثانية، ونظرت ساشا وموتكا إليها وهما جالستان على الفرن، وشعرنا بالسرور لأن الجدة أظطرت وسوف تدخل النار بالتأكيد وسرى ذلك عنهما فأوتا إلى



النوم، وتخليلت ساشا وهي تنعس يوم الحساب الرهيب: كان هناك فرن كبير مشتعل، مثل فرن الفخار، وراح عفريت بقرون كقرون البقرة، أسود كله، يطارد الجدة إلى النار بعصا طويلة كما كانت تطارد الأوز منذ وقت قريب في عيد الرفع، وفي الساعة الحادية عشرة مساءً، أطلق الفتيات والفتيان المتنزهون في المرح في الأسفل فجأة صراخاً وعويلًا، وركضوا نحو القرية أما أولئك الجالسون في الأعلى، على حافة الجرف، فلم يدركوا للوهلة الأولى سبب ذلك وترددت في الأسفل صرخة يائسة: حريق حريق إننا نحترق والتفت الجالسون في الأعلى فتبدت لهم صورة رهيبة عجيبة ففوق إحدى الدور المتطرفة، وعلى سطحها القشّي، انتصب عمود من النيران بارتفاع مترين، كان يتلوى ويطلق الشرر في جميع الجهات وكأنه نافورة وعلى الفور اشتعل السطح كله بلهب ساطع، وسمعت قرقعة النيران.

وخبا ضوء القمر، وأصبحت القرية كلها مغمورة بضوء أحمر مرتعش وعلى الأرض تحركت ظلال سوداء وانتشرت رائحة الحريق ولهث الراكضون من أسفل ولم يستطيعوا أن يتكلموا من الرجفة، وتدافعوا، وتساقطوا، ولعدم التعود على الضوء الساطع لم يروا جيداً ولم يميز بعضهم بعضاً وسيطر الرعب وكان مرعباً بصفة خاصة أن الحمام كان يطير فوق النيران وسط الدخان، وفي الحانة، حيث لم



يعلموا بعد بالحريق، استمر الغناء والعزف على الأكورديون كأنما لم يحدث شيء.

وصاح شخص ما بصوت عال غليظ: - دار العم سيميون تحترق وتراكضت ماريا أمام دارها وهي تبكي وتلوي ذراعيها، وأسنانها تصطك، رغم أن الحريق كان بعيداً، في الطرف الآخر للقرية وخرج نيكولاي في حذاءه اللباد، وتقاطر الأولاد إلى الخارج في قمصانهم القصيرة وبجوار دار الخفير دقوا على لوح حديدى فتردد في الجو: بمبم بم وبسبب هذا الرنين المتكرر الملحاح تولد إحساس بالبرودة بعصر القلب ووقفت النساء العجائز حاملات الأيقونات ومن الأفنية أخرجوا الغنم والعجول والبقر، وحملوا الصناديق وجلود الخراف والبراميل وكان ثمة مهر أسود لم يضموه للقطيع لأنه كان يرفض ويجرح الخيول، وقد أطلق الآن سراحه فركض عبر القرية مرة أخرى وهو يدق بقوائمه ويصهل، ثم توقف فجأة بجوار عربة وأخذ يضربها بقائمتيه الخلفيتين وعلى الضفة الأخرى من النهر دوت أجراس الكنيسة كان الصهد شديداً بجوار الدار المشتعلة وكان المكان مضيئاً إلى درجة ظهرت فيها واضحة كل عشب على الأرض وعلى أحد الصناديق التي تمكنوا من إخراجها جلس سيميون، فلاح أحمر الشعر، بأنف كبير، وفي عمرة أغمدها في رأسه عميقاً حتى أذنيه،



وفي ستره ورقدت زوجته على وجهها في حالة إغماء، وراحت تثن وكان هناك عجوز ما، في حوالي الثمانين، قصير القامة، بلحية طويلة، يشبه القزم، ليس من أهل الناحية ولكن يبدو أن له صلة بالحريق، أخذ يروح ويجيء بلا طاقة وفي يديه صرة بيضاء وانعكس اللهب على صلغته واقترب العمدة أنتيب سيدلنيكوف، الأسمر والأسود الشعر، والذي يشبه الفجرى، اقترب من الدار بالفأس وحطم النوافذ، الواحدة تلو الأخرى، لسبب غير معلوم، ثم راح يحطم الدرج.

وصاح: - الماء يا نساء الماكينة أسرعوا .

وسحب أولئك الفلاحون، الذين كانوا يمرحون لتوهم في الحانة، ماكينة الإطفاء كانوا جميعا سكارى، فراحوا يتعثرون ويسقطون، وظهر على وجوههم جميعاً تعبير عجز، وترقرقت الدموع في أعينهم وصاح العمدة الذي كان أيضاً مخمور - الماء يا بنات بسرعة يا بنات وركضت النساء والفتيات إلى أسفل، حيث يوجد النبع، وحملن إلى أعلى الدلاء والطسوت المملوءة، وبعد أن يفرغنها في الماكينة كن يركضن ثانية ونقلت الماء أولجا وماريا وساشا وموتكا أيضاً وقامت النساء والصبيان بضخ الماء، وفتح الخرطوم، وصوبه العمدة تارة إلى الباب وتارة إلى النوافذ وهو يضغط التيار بإصبعه فكان يصدر عنه فحيح أشد وترددت أصوات استحسان شاطر يا أنتيب اجتهد



أما أنتيب فاقتحم المدخل وسط اللهب، وصاح من هناك: ضخوا اجتهدوا أيها المسيحيون بمناسبة هذا الحادث الأليم وتجمهر الفلاحون بجوار الدار وهم لا يفعلون شيئاً، وأخذوا يتطلعون إلى النار ولم يكن أحد يعرف ماذا يفعل، ولا أحد يجيد شيئاً، بينما من حولهم أكوام القمح والدريس، والحظائر والحطب الجاف وهنا أيضاً وقف كيرياك وأبوه العجوز أوسيب، وكانا كلاهما ثملين وقال العجوز مخاطباً المرأة الملقاة على الأرض، وكأنما يريد أن يبرر وقوفه بلا عمل: ما الداعي للنواح يا أشبينة الدار مؤمنة، فماذا تريدين وأخذ سيميون يروى كيف شب الحريق مخاطباً تارة هذا الشخص وتارة ذاك: هذا العجوز ذو الصرة، من خدم الجنرال جوكوفكان يعمل طباًخاً عند جنرالنا، عليه الرحمة جاء مساء وقال: دعني أبيت وطبعاً شربنا قليلاً، معلوم وقامت زوجتي تشعل السماور لتسقى العجوز شايًا، ولسوء الحظ وضعت السماور في المدخل، وهكذا طار اللهب من مدخلته إلى السقف مباشرة، إلى القش فاشتعل يعنى نحن أنفسنا كدنا نحترق وطاقيّة العجوز احترقت، يا حرام.

واستمر الطرق على اللوح الحديدي بلا كلل، ودقت أجراس الكنيسة كثيراً وراء النهر ونظرت أولجا برعب، وقد غمرها الضوء، وهي تختنق، إلى الشياه الحمراء والحمامات الوردية المحلقة في الدخان،



وركضت تارة إلى أسفل وتارة إلى أعلى وخيل إليها أن هذا الرنين قد انغرز في قلبها شوكة حادة، وأن الحريق لن ينتهي أبداً، وأن ساشا فقدت وعندما انهار سقف الدار بصخب أصابها الخور من فكرة أن القرية سوف تحترق الآن كلها حتماً، ولم يعد بوسعها أن تجلب الماء، فجلست على الجرف ووضعت الدلاء بجوارها وجلست النساء بقربها وأعلن كأنما يندبن ميتاً ولكن ها هم الوكلاء والعاملون قد جاءوا من الضفة الأخرى، من ضيعة الإقطاعي، في عريبتين، وأتوا معهم بماينة إطفاء وجاء طالب في سترة بيضاء مسدلة، شاب جداً، على ظهر حصان وتعالى طرق الفؤوس، ووضعوا سلماً مائلاً لى الجدار المشتعل، وتسلقه خمسة أشخاص دفعه واحدة، وفي مقدمتهم الطالب الذي كان محمراً، يصرخ بصوت حاد أبج وبلهجة توحى وكأن إطفاء الحرائق كان عملاً معتاداً بالنسبة له وفككوا جذوع الدار، ونقلوا المعلف والسياج وأقرب كوم دريس.

وترددت أصوات حازمة من الحشد: - امنعوهم من تحطيم الدار امنعوهم فتوجه كيرياك نحو الدار في هيئة حازمة، كأنما يبغى منع القادمين من تحطيمها، ولكن أحد العمال أداره إلى الخلف وضربه على قفاه وسمعت ضحكات، وضربه العامل مرة أخرى فسقط كيرياك وزحف على أربع عائداً إلى الحشد وجاءت من الضفة الأخرى



فتاتان جميلتان ترتديان قبعيتين، يبدو أنهما شقيقتا الطالب ووقفتا عن بعد تنظران إلى الحريق ولم تعد الجذوع المفكوكة تشتعل لكنها نفثت دخائاً كثيفاً وكان الطالب الممسك بالخرطوم يوجهه تارة إلى الجذوع وتارة إلى الفلاحين، وتارة إلى النسوة جالبات الماء وصاحت به الفتاتان بعتاب وقلق: - جورج جورج.

وانتهى الحريق وعند الانصراف فقط لاحظوا أن الفجر حل، وأن الجميع شاحبون وسمروا إلى حد ما هكذا يبدو دائماً في الصباح الباكر عندما تتطفئ آخر نجوم السماء وضحك الفلاحون وهم ينفضون وسخروا من طاهي الجنرال وطاقيته التي احترقت كانوا يرغبون الآن في تحويل الحريق إلى مزحة، وكأنما حتى كانوا يأسفون على انتهاء الحريق بهذه السرعة وقالت أولجا للطالب: - لقد أطفأتم الحريق جيداً يا سيدي حبذا لو جئتم إلينا في موسكو فهناك كل يوم حريق فسألتهما إحدى الفتاتين: وهل أنت من موسكو؟.

هو كذلك كان زوجي يعمل في سلافيانسكي بازار وهذه ابنتي - وأشارت إلى ساشا المقرورة الملتصقة بها: وهي أيضاً موسكوفية وقالت الفتاتان شيئاً ما بالفرنسية للطالب فأعطى هذا لساشا قطعة نقدية بعشرين كوبيكاً ورأى العجوز أوسبب ذلك فأشرق وجهه بالأمل فجأة وقال مخاطباً الطالب: الحمد لله يا صاحب المعالي إنه لم تكن



هناك ريح، وإلا لاحترقنا في الحال ثم أضاف بحرج وبنبرة أخفض - يا صاحب المعالي، أيها السادة الطيبون، الفجر بارد، لو نتدفاً لو تكرمتم بثمان نصف زجاجة.

فلم يعطوه شيئاً فسعل وجر ساقيه إلى البيت أما أولجا فوقفت على الجرف وتطلعت إلى العربيتين وهما تعبران النهر خوا، وإلى السادة وهم يسيرون في المرح وعلى الشاطئ الآخر كانت هناك عربية في انتظارهم وعندما عادت أولجا إلى الدار قصت لزوجها بإعجاب: ما أطيبهم ما أجملهم أما الآنستان فمثل ملاكين ودمدمت فيكلا الناعسة بغل: فلتمزقهم مصيبة كانت ماريا تعتبر نفسها تعيسة وتقول إنها تود بشدة لو ماتت أما فيكلا فعلى العكس، كانت تروق لها كل هذه الحياة: الفقر، والقذارة، والسباب الجامح كانت تأكل ما يقدم لها دون تمييز، وتنام حيثما كان وعلى أي شيء وكانت تلقى بالقاذورات بجوار المدخل مباشرة تقذف بها من العتبة ثم تخوض بقدميها الحافيتين في البركة القذرة ومنذ اليوم الأول مقتت أولجا ونيكولاى بالذات لأن هذه الحياة لم تعجبهما وكانت تقول بتشف:- سأري ماذا ستأكلون هنا أيها النبلاء الموسكوفيون سأرى.

وذاث صباح وكان ذلك في بداية سبتمبر أتت فيكلا من أسفل بدلوى مياه وكانت وردية من البرد، عفية وجميلة وفي تلك الأثناء



كانت ماريا وأولجا جالستين إلى المائدة تشربان الشاي قدمدمت فيكلا بسخرية وهي تضع الدلوين: - الشاي والسكر يا لهما من سيدتين، أصبحت موضة عندهما أن تشربا الشاي كل يوم احترسا وإلا انفختما من الشاي استطردت وهي تنظر إلى أولجا بحقد - سمت في موسكو سحنة ممتلئة يا كثيرة اللحم.

ورفعت المغرفة وضربت أولجا على كتفها حتى أن كلتا الزوجتين أشاحتا بأيديهما ودمدما: - آه، يا إلهي.

ثم ذهبت فيكلا إلى النهر لتغسل الملابس وظلت طوال الطريق تسب بصوت عال كان يسمع في الدار ومر النهار وحل مساء خريفى طويل وكانوا يلفون خيوط الحرير في الدار كانوا يلفون جميعاً ما عدا فيكلا التي ذهبت إلى ما وراء النهر كانوا يأخذون الحرير من مصنع قريب فتكسب منه الأسرة كلها قليلاً، حوالي عشرين كوبيكا في الأسبوع وقال العجوز وهو يلف الحرير:

كان الحال أفضل أيام السادة تعمل، وتأكّل، وتنام، وكل شيء بنظام في الغداء تتناول حساء الكرنب والعصيدة، وفي العشاء الكرنب والعصيدة وما أكثر الخيار والكرنب، گل طواعية قدر ما تشاء والحزم كان أكثر فكل واحد يعرف قدره ولم يشتغل سوى مصباح صغير كان يرسل ضوءاً كابياً ودخائلاً وعندما يحجب أحد ما الضوء فيسقط ظل



كبير على النافذة، يلوح نور القمر الساطع وكان العجوز أوسيب يتحدث على مهل عن الحياة قبل التحرر وكيف أنه في نفس هذه الأماكن التي يعيشون فيها الآن بملل وفقر كان السادة يصطادون بكلاب الصيد والكلاب السلوقية وكلاب بسكوف، وكانوا أثناء المطاردة يقدمون الفودكا للفلاحين، وكيف كانت تمضي إلى موسكو العربات المحملة بالطيور البرية من أجل السادة الشبان، وكيف كانوا يعاقبون الأشرار بالجلد أو بالنفي قرب ضيعة تفير، ويكافئون الأخيار وروت الجدة أيضاً شيئاً ما كانت تذكر كل شيء، كل شيء بحذافيره وتحدثت عن سيدتها السابقة، تلك المرأة الطيبة التقية، التي كان زوجها عرييدا وفاسقا والتي تزوجت بناتها جميعا بصورة سيئة ما بعدها سوء، فقد تزوجت واحدة من سكير، والأخرى من شخص متوسط الحال، والثالثة هربت سراً وساعدت الجدة نفسها، التي كانت فتاة آنذاك، في عملية الهرب ثم سرعان ما متن جميعاً، مثل أمهن، من الآسي وبكت الجدة قليلاً إذ تذكرت ذلك وفجأة دق الباب فانفضوا جميعاً ياعم أوسيب، اسمح لي بالمبيت ودخل عجوز صغير أصلع، طاهي الجنرال جوكوف، ذلك الذي احترقت طاقيته وجلس يصغي ثم راح هو الآخر يتذكر ويروي مختلف الحكايات.

كان نيكولاى، الجالس على الفرن مدلياً ساقيه، يصغي ويسأل عن



الأطعمه التي كانوا يطبخونها أيام السادة فتحدثوا عن اللحم المحمر والكستليتة ومختلف ألوان الحساء والصلصة، وكان الطاهي، الذي يذكر أيضاً كل شيء، يسمى أنواع المأكولات التي لم يعد لها وجود الآن كانت هناك مثلاً أكله تجهز من عيون الثيران وتسمى صباحا بعد الاستيقاظ.

سأل نيكولا يوهل كنتم تعدون كستليتة ماريشال؟ كلا فهز نيكولاى رأسه بعباب وقال: - إيه، طهاة خائبون وحدت الفتيات الرافقات والجالسات على الفرن إلى أسفل دون أن تطرف عيونهن وبدا أنهن كثيرات جداً، كالملائكة في السحب وأعجبتهن القصص، فرحن يتتهدن وينتفضن ويشحن تارة من الإعجاب وتارة من الخوف وأصغين إلى الجدة التي كان حديثها أمتع من حديث الآخرين بأنفاس مبهورة محاذرات ألا تند عنهن حركة.

وأووا إلى النوم في صمت وفكر العجائز المنفعلون الذين أثارتهم الحكايات في روعة الصبا الذي لا يبقى بعده، مهما كان، إلا ما هو حي ومفرح ومؤثر، وما أروع برودة هذا الموت غير البعيد من الأفضل ألا تفكر فيه وانطفأ المصباح ولسبب ما ذكرهم الظلام والنافذتان، المضاءتان بنور القمر الساطع، والهدوء، وصرير المهد بأن الحياة قد انقضت، ولا يمكن استرجاعها بأي حال ما إن تنعس



وتغيب حتى يلمس أحد ما كتفك، وينفخ في خدك، فيطير النوم، وتشعر بجسدك كأنما هرس هرسا، ولا ترد إلى الذهن إلا الأفكار عن الموت وتستدير إلى الجنب الآخر، فتتسى الموت ولكن تجوس في رأسك الأفكار القديمة المملة المقبضة عن الفاقة والعلف، عن ارتفاع أسعار الدقيق، وبعد قليل تتذكر ثانية أن الحياة قد انقضت، ولا يمكن استرجاعها.

وتتهد الطاهي: - أوه، يا إلهي وطرق أحدهم على النافذة طرقات خافته يبدو أنها فيكلا قد عادت ونهضت أولجا وهي تتئأب وتهمس بالصلوات، وفتحت الباب، ثم نزعت مزلاج المدخل ولكن لم يدخل أحد بل هبت برودة من الخارج وانتشر الضوء فجأة من القمر ومن الباب المفتوح ظهر الشارع الهادئ المقفر، والقمر ذاته الذي كان يسبح في السماء وهتفت أولجا: - من هناك؟ - أنا - تناهي الرد - هذه أنا.

وقفت فيكلا بجوار الباب، ملتصقة بالحائط، عارية تماما كانت ترتعش من البرد وأسنانها تصطك، ولاحت في ضوء القمر الساطع شاحبة للغاية وجميلة وغريبة وبدت الظلال الساقطة عليها ولمعان القمر على جلدها ملفتة للأنظار بشدة، وبرز بشكل خاص حاجباها الأسودان ونهداها الفتيان القويان وتمتمت: - نزع الأشقياء في



الضفة الأخرى ثيابي وتركوني هكذا جئت إلى البيت بلا ملابس كما ولدتني أمي هاتي شيئاً ألبسه فقالت أولجا وقد بدأت هي أيضاً ترتعش: ادخلي إذن؟ أخشى أن يراني العجوزان وبالفعل كانت الجدة تتململ وتذمر والعجوز يسأل: من هناك؟ وجاءت أولجا إليها بمقيصها وجونلتها، وألبستها، ثم دخلت كليهما بهدوء محاذرتين ألا تصطفق الأبواب ودمدمت الجدة بغضب وقد خمنت من القادم أهى أنت يا ناعمة؟ أه يا صايعة فلتأخذك داهية فهمست أولجا وهي تتدثر فيكلا - لا بأس، لا بأس، لا بأس يا حلوة.

وعاد الهدوء كان النوم في الدار سيئاً دائماً فقد كان لدى كل منهم شيء لزج ملحاح يمنعه من النوم: الألم في الظهر لدى العجوز، والهموم والحقد لدى الجدة، والخوف لدى ماريا، والجرب والجوع لدى الأطفال والآن أيضاً كان نومهم قلقاً، يتقلبون من جنب إلى جنب، ويهزون، وينهضون ليشربوا.

وفجأة أجهشت فيكلا بصوت عال غليظ، ولكنها كتمت بكاءها على الفور، ثم أخذت تشهق أقل وأخفت إلى أن سكنت وأحياناً كان رنين الساعة ينهاى من الضفة الأخرى من وراء النهر ولكنها كانت ساعة غريبة، إذ دقت في البداية خمس دقائق ثم بعد ذلك ثلاث وتتهد الطاهي: - أوه، يا إلهي.



بالنظر إلى النوافذ كان من الصعب معرفة ما إذا كان ذلك ضوء القمر أم أن الفجر حل ونهضت ماريا وخرجت، وسمع صوتها وهي تحلب البقرة في الفناء وتقول لها: قفى وخرجت الجدة أيضاً وكان الظلام لا يزال منتشراً في الدار ولكن معالم الأشياء أصبحت واضحة وهبط نيكولاى، الذي لم ينم طوال الليل، من فوق الفرن واستخرج من الصندوق الأخضر فراكه، ولبسه، واقترب من النافذة فمسح كمية وشد أطرافه وابتسم ثم نزع بحرص، ودسه في الصندوق، وعاد فرقد وعادت ماريا وبدأت تشعل الفرن ويبدو أنها لم تتفق تماماً من النوم وهاهي ذي الآن تفيق أثناء الحركة وربما تراهى لها شيء في الحلم أو تذكرت حكايات الأمس، إذ إنها تمطت أمام الفرن بتلذذ وقالت: كلا، التحرر أفضل.

وصل السيد - هكذا كانوا في القرية يسمون وكيل مأمور الشرطة كانوا يعرفون منذ أسبوع، متى، ولماذا سيأتي فرغم أن جوكوفو لم تكن تضم سوى أربعين داراً فإن متأخرات الضرائب، الحكومية والإقليمية، بلغت أكثر من ألفي روبل نزل وكيل المأمور في الحانة وأكل هنا كوبين من الشاي، ثم توجه مشياً إلى دار العمدة، حيث كان ينتظر حشد من المتخلفين عن السداد وبالرغم من صغر سن العمدة إنتيب سيديلنيكوف - كان يجاوز الثلاثين بقليل.



فقد كان صارماً ويقف دائماً في صف الرؤساء، وإن كان هو نفسه فقيراً ولا يسد الضرائب بانتظام يبدو أنه كان يسليه أنه عمدة، ويعجبه الإحساس بالسلطة التي لم يكن يستطيع إظهارها إلا بالصرامة وكانوا في الاجتماعات يخشونه ويطيعونه كان يحدث أحياناً أن ينقض فجأة على أحد السكاري في الشارع أو بجوار الحانة، فيوثق يديه خلف ظهره ويودعه في غرفة الحبس بل إنه أودع الجدة غرفة الحبس ذات مرة لأنها، إذ جاءت إلى الاجتماع بدلاً من أوسيب، أخذت تسب، فأبقاها هناك يوماً كاملاً ولم يعيش في المدينة، ولم يقرأ الكتب أبداً، لكنه جمع من مكان ما شتى الكلمات الذكية وكان يهوى استخدامها في حديثه، ولهذا احترموه رغم أنهم لم يكونوا يفهمونه دائماً.

عندما دخل أوسيب دار العمدة ومعه بطاقة الضرائب، كان وكيل الأمور، وهو عجوز نحيف، بسالفين طويلين أشيبين وفي سترة رمادية ثقيلة، جالساً إلى طاولة في الركن تحت الأيقونات يسجل شيئاً ما كانت الدار نظيفة، والجدران كلها مبرقشة بالصور المنزوعة من المجلات، وفي أبرز مكان، بجوار الأيقونات، علقت صورة باتتبرج، الأمير البلغاري السابق وبجوار الطاولة وقف أنتيب سيديلنيكوف، عاقداً يديه على صدره وقال عندما جاء دور أوسيب:



- عليه يا صاحب المعالي مائة وتسعة عشر روبلاً منذ أن دفع قبيل عيد الفصح لم يدفع بعدها كوبيكا.

فرفع وكيل المأمور بصره إلى أوسيب وسأله: - لم هكذا يا صاحبي؟ فشرع أوسيب يقول مضطرباً: اصنعوا معروفاً لله يا صاحب المعالي، اسمحوا لي بأن أقول، في السنة الماضية قال لي سيد من ضيعة لوتريتس: يا أوسيب بع لي الدريس هيا بعه لي، ولم لا؟ كان لدى حوالي مائة بود للبيع حصدها النساء في المروج قرب النهر حسناً، اتفقنا كل شيء تمام، طواعية.

اشتكى من العمدة وهو يستدير بين الحين والحين نحو الفلاحين كأنما يدعوهم شهوداً واحمر وجهه وتقصد عرقاً، وأصبحت عيناه حادتين، شريرتين فقال وكيل المأمور: لست أفهم لماذا تحكي لي كل هذا؟ إني أسألك أسألك أنت، لماذا لا تدفع المتأخرات؟ أنتم جميعاً لا تدفعون وتريدون أن أتحمل أنا المسؤولية؟ لا قدرة عندي فقال العمدة:

- هذه الكلمات لا أثر لها يا صاحب المعالي صحيح آل تشيكيديف من طبقة غير ميسورة، ولكن تفضلوا واسألوا الآخرين، السبب واحد: الفودكا وهم عابثون جداً بدون أدنى مفهومية وسجل وكيل المأمور شيئاً ما ثم قال لأوسيب بسكينة وبغمّة هادئة وكأنه



يطلب كوب ماء.

- اغرب من هنا وسرعان ما رحل وعندما جلس في عربته الرخيصة وسعل، بدا واضحاً حتى من منظر ظهره الطويل، أنه لم يعد يذكر شيئاً عن أوسيب أو العمدة أو عن متأخرات جوكونو، بل كان يفكر في أموره الخاصة وما أن ابتعد فرساً واحداً حتى كان إنتيب سيديلنيكوف يخرج من دار آل تشيكيلدييف حاملاً السماور، بينما سارت الجدة خلفه وهي تصيح بصوت رفيع، نافخة صدرها: لن أعطيه لن أعطيه لك يا ملعون.

كان أنتيب يسير بسرعة، بخطوات واسعة، أما هي فركضت خلفه وهي تختنق وتكاد تسقط، حذاء، شرسة وسقط منديل رأسها على كتفها، وتطاير شعرها الأشيب المائل إلى الخضرة في الريح وفجأة توقفت، وكتمردة حقيقية، أخذت تضرب صدرها بقبضتيها وتصبح أعلى من ذي قبل بصوت ناغم وكأنها تعول: الإهانات والاستعباد، من الفاقة غير المحتملة ومن الفودكا الرهيبة وانتحبت ماريا وهي تقول: يا مخلص، يا أمانا يا مخلص.

ولكن ها هو ذا القداس قد انتهى، وحملوا الأيقونة، وعاد كل شيء إلى سابق عهده، ومن جديد ترددت من الحانة أصوات فظة مخمورة ولم يكن يخشى الموت سوى الفلاحين الأغنياء الذين كلما ازدادوا



ثراء قل إيمانهم بالله وبخلاص الأرواح، وبسبب الخوف وحده من نهاية العالم، وتحوطا، كانوا يضعون الشموع وقيّمون القداست، أما الفلاحون الفقراء فلم يكونوا يخشون الموت كان يقال للعجوز والجدة في حضورهما إنهما عاشا طويلا وان لهما أن يموتا، فلا يعبان وفي حضور نيكولاى لم يكونوا يخلجون من القول لفيكلا بأنه عندما يموت نيكولاى، فسيستفيد زوجها دينيس، إذ سيسرحونه من الخدمة العسكرية أما ماريا فلم تكن لا تخشى الموت فحسب بل كانت تأسف لأنه تأخر إلى هذا الحد، وكانت تشعر بالسرور عندما يموت أطفالها.

لم يكونوا يخشون الموت لكنهم كانوا ينظرون إلى الأمراض بخوف مبالغ فيه كانت تكفى أية إصابة تافهة - كاضطراب في المعدة، أو حرارة بسيطة - حتى ترقد الجدة على الفرّ وتندثر وتبدأ في التآوة بصوت عال وبلا توقف آه، أموت ويسرع العجوز باستدعاء القس لمناولتها ومسحها بالزيت وكثيرا ما كانوا يتحدثون عن نزلة البرد، وعن الديدان، وعن الأورام المتحركة في البطن والواصلة إلى القلب وكانت نزلة البرد أكثر ما يخشونه، ولذلك كانوا يلبسون الملابس الثقيلة حتى في الصيف ويتدفأون على الفرّ وكانت الجدة تهوى العلاج، وكثيراً ما تسافر إلى المستشفى، حيث تقول إن عمرها ليس



سبعين سنة بل ثمانية وخمسين وكانت تعتقد أنه لو عرف الطبيب عمرها الحقيقي فلن يعالجها بل سيقول إنه آن لها أن تموت لا أن تتعالج وكانت ترحل إلى المستشفى عادة في الصباح الباكر، وتأخذ معها صبيتين أو ثلاثاً، وتعود في المساء جوعي وغاضبة بقطرات لها ومراهم للصبيات وذات مرة أخذت نيكولاى، الذي ظل بعدها أسبوعين يتناول القطرات ويقول إنه يشعر بتحسن.

كانت الجدة تعرف جميع الأطباء والحكماء والمطبيين لمدى ثلاثين فرسخاً، ولم يعجبها واحد منهم وفي عيد التجلي، عندما طاف القسيس بالصليب على الدور، قال لها الشماس إن هناك عجوزاً، حكيماً عسكرياً سابقاً، يعيش في المدينة قرب السجن، يعالج جيداً جداً، ونصحها باللجوء إليه وعملت الجدة بنصيحته وعندما هبط الثلج لأول مرة سافرت إلى المدينة وجاءت بعجوز متتصر، بلحية وفي ثوب طويل الذيل، وكان وجهه مغطى بعروق زرقاء وفي تلك الأثناء كان يعمل في الدار عمال مياومة، كان خياط عجوز يضع نظارة رهيبة يفصل من بعض الأسمال صديرياً، وشابان يلبدان الصوف ويصنعان أحذية اللباد وكان كيرياك الذي طردوه من العمل بسبب السكر وأصبح يعيش الآن في المنزل، جالساً بجوار الخياط يصلح النير وكانت الدار ضيقة، خائقة، كريهة الرائحة وفحص العجوز المتتصر



نيكولاي وقال إنه بحاجة إلى كاسات هواء وأخذ يضع كاسات الهواء بينما وقف العجوز الخياط وكيرياك والفتيات ينظرون، وخيل إليهم أنهم يرون كيف يخرج المرض من جسد نيكولاي ونظر نيكولاي أيضا إلى الكاسات وهي تلتصق ب صدره فتمتلئ شيئا فشيئا بدم داكن، فشعر كما لو كان شيء ما يخرج بالفعل من جسده، فابتسم مستمتعا وقال الخياط: - هذا حسن، جعل الله فيه الشفاء.

وضع المنتصر اثنتي عشرة كأسا، ثم اثنتي عشرة أخرى، وشرب الشاي ثم رحل وأخذ نيكولاي يرتجف، وهزل وجهه، وكما قالت النساء، تضائل بحجم القبضة، وازرقت أصابعه، وتدثر بالبطانية وبمعطف جلد الخروف، ولكنه شعر بازدياد البرودة وبحلول المساء تملكته الوحشة، وطلب أن يضعوه على الأرض، ورجا الخياط ألا يدخن، ثم سكن تحت المعطف، وفي الصباح توفي.

أوه، يا له من شتاء قاس، طويل منذ أعياد الميلاد لم يعد لديهم قمح، فابتاعوا الدقيق وكان كيرياك، الذي أصبح يعيش الآن في المنزل، يثور كل مساء فيلقى الرعب في قلوب الجميع، وفي الصباح يتعذب من الصداع والخلج فكان منظره يبعث على الرثاء وفي المعلق كان يتردد ليل نهار خوار البقرة الجائعة فيمزق نياط قلب الجدة وماريا وكأنما عن عمد ظل الصقيع قارصاً طوال الوقت،



وتراكم الثلج أكواما، وامتد الشتاء، وفي عيد البشارة هبت عاصفة شتائية حقيقية، وفي أسبوع الفصح هطل الثلج ولكن أيا ما كان الحال فقد انتهى الشتاء وفي بداية أبريل حلت أيام دافئة بينما كانت الليالي قارسة، ولم يتراجع الشتاء، ولكن يوماً دافئاً تغلب عليه أخيراً، فسالت الجداول، وصدحت الطيور وغرق المرج كله والخمائل بقرب النهر في مياه الربيع، وتحولت المساحة الواقعة بين جوكوفو والشاطيء الآخر من النهر إلى خليج كبير رفرفت فوقه هنا وهناك أسراب من البط البري وكان الغروب الربيعي المثلج، بسحبه المنفوشة، يقدم كل مساء شيئاً عجبياً، جديداً خيالياً، ذلك الشيء الذي لا تصدقه عندما ترى فيما بعد نفس هذه الألوان ونفس هذه السحب على قماش لوحة وطارت اللقالب بسرعة كبيرة وصاحت بحزن، كأنما كانت تدعو للذهاب معها ووقفت أولجا على حافة الجرف ونظرت طويلاً إلى الفيضان، وإلى الشمس، وإلى الكنيسة المشرقة التي بدت كأنما تجدد شبابها، وسالت الدموع من عينيها واختنقت أنفاسها من الرغبة الجارفة في الرحيل إلى مكان ما، إلى حيث يمتد البصر، ولو إلى آخر الدنيا وكانوا قد قرروا أن تعود ثانية إلى موسكو لتعمل خادماً، وسيمضي معها كيرياك ليعمل بواباً أو أي عمل آخر أه، كم تود لو ترحل بسرعة وعندما جفت الأرض وأصبح الجو دافئاً استعدوا للرحيل خرجت أولجا وساشا، بالصرر



على ظهرهما، وفي نعلين قرويين ما أن لاح الفجر وخرجت ماريا لكي تودعهما وكان كيرياك مريضاً فتأجل رحيله أسبوعاً وصلت أ لجا لآخر مرة في اتجاه الكنيسة وهي تفكر في زوجها، ولم تبك لكن وجهها تغضن وصار قبيحا كوجه عجوز لقد هزلت خلال الشتاء وقبحت وشابت قليلاً، وبدلاً من ملاحظتها السابقة وابتسامتها اللطيفة الودود ظهر على وجهها تعبير حزين مسالم بالأسى الذي عاشته، وظهر في نظرتها شيء جامد بليد كأنما كانت لا تسمع كانت آسفة على فراق القرية والفلاحين وتذكرت كيف حملوا نيكولاى وبجوار كل دار كانوا يقيمون الصلاة وكيف بكى الجميع مشاركين لها بلواها وأثناء الصيف والشتاء كانت تمر بها ساعات يبدو لها فيها أن هؤلاء الناس يعيشون أسوأ من الحيوانات، وكانت الحياة بينهم مرعبة فهم أفضاظ، غير شرفاء، قذرون، مخمورون، لا يعيشون في وفاق، يتشاجرون دائماً لأنهم لا يحترمون بعضهم بعضاً ويخافون ويرتابون من يفتح الحانات وسكر الناس؟ الفلاح ومن يبدد الأموال العامة وأموال المدارس والكنائس وينفقها على الشراب؟ الفلاح ومن سرق جاره، وأحرق، وشهد زوراً في المحكمة مقابل زجاجة فودكا؟ من أول من يهاجم الفلاحين في اجتماعات المجلس المحلي وغيرها؟ الفلاح نعم، كانت الحياة بينهم مرعبة، ومع ذلك فهم بشر، يعانون ويكون كالبشر، وليس في حياتهم شيء لا يمكن إلا تجد له مبرراً للعمل



الشاق الذي يئن منه الجسد تعباً في الليالي، وفصول الشتاء القاسية، والمحاصيل الشحيحة، وضيق المسكن، ولا مساعدة، وليس من جهة تتوقعها منها فالأغنى والأقوى منهم لا يستطيعون مساعدتهم لأنهم هم أنفسهم أفضاظ، غير شرفاء، مخمورون، ويسبون نفس السباب الكريه وأصغر موظف أو وكيل يعامل الفلاحين معاملة المتشردين ويخاطب حتى الشيوخ ورؤساء الكنائس بصيغة المفرد ويعتقد أن له الحق في ذلك وهل يمكن أن يكون ثمة أي عون أو مثال طيب من أناس مغرضين، جشعين، فاسقين، كسالى، لا يذهبون إلى القرى إلا لكي يهينوا وينهبوا ويرهبوا؟ وتذكرت أولجا كيف كان منظر العجوزين بائساً ذليلاً عندما سيق كيرياك شتاء لمعاقبته بالجلد وهي الآن تشعر بالرتاء والألم لكل هؤلاء الناس، وراحت طوال سيرها تتلفت نحو الدور وبعد أن سارت ماريا معهما حوالي ثلاثة فراسخ ودعتهما، ثم جثت على ركبتيها وأعولت وهي تسقط بوجهها على الأرض وتصيح: عدت وحيدة يا ماريا آه يا تعيسة يا بائسة وظلت تعول هكذا طويلاً، وظلت أولجا وساشا يريانها طويلاً وهي جائئة على ركبتيها تسجد جانباً لشخص ما وقد أمسكت رأسها بيديها، وفوقها حلقت الغريان وارتفعت الشمس عالياً واشتد الحر وبقيت جوكوفو بعيداً في الورا وكان السير محبباً، فسرعان ما نسيت أولجا وساشا القرية وماريا، وأحسنا بالمرح وكان كل شيء يبدو مسلياً تارة



تل، وتارة صف أعمدة البرق التي يمضي كل منها وراء الآخر إلى جهة غير معلومة، وتختفي في الأفق، والأسلاك تنز بالغاز وتارة تبدو على البعد عزبة، غارقة في الخضرة، تهب منها الرطوبة ورائحة القنب، ولسبب ما يخیل إليهما أن قاطنيتها أناس سعداء وتارة يلوح هيكل عظمي لحصان، أبيض وحيد في الحقل والقبرات تصدح بلا توقف، وتتصايح السمانات ويصرخ طائر الدراج بصوت متحشرج يشبه بالفعل صوت درج حديدى صدئ يسحب بلغت أولجا وساشا في الظهر قرية كبيرة وهناك قابلتا في شارع واسع طاهي الجنرال جوكوف، ذلك العجوز كان حران، ولمعت في الشمس صلته العرقانة الحمراء ولم تعرفه أو لجا ولا هو أيضا عرفها، ثم نظر كل منهما إلى الآخر في نفس اللحظة فعرقا بعضهما البعض، ودون أن يتفوها بكلمة، مضى كل منهما في سبيله وتوقفت أولجا بجوار دار بدت أكثر ثراء وجدة، وانحنت أمام النوافذ المفتوحة وقالت بصوت عال رفيع ناغم حسنة لله أيها المسيحيون الأتقياء، حسنة بحق المسيح، رحمة وسلاما على أرواح موتاكم وغنت ساشا: حسنة لله أيها المسيحيون الأتقياء، حسنة بحق المسيح، رحمة وسلاماً.



في الخور

كانت قرية أو كليفو تقع في خور، لذلك، لم يكن يبدو منها للناظر من الطريق ومن محطة السكة الحديدية سوى برج الكنيسة ومداخل فبارك صباغة الشيت وعندما كان العابرون يسألون أيه قرية هذه يقال لهم: - إنها تلك القرية التي أكل فيها الشماس في المآثم كل الكافيار. فذات مرة، أثناء وليمة التآبين عند الصناعى كوستيوكوف، رأى الشماس العجوز بين أطباق المزة كافياراً أسود فراح يلتهمه بشراهة وأخذوا يدفعونه، ويشدون من كمه، إلا أنه بدا كأنما فقد الإحساس من شدة المتعة، فلم يعد يشعر بشيء، بل مضى يأكل فقط والتهم علبة الكافيار كلها، وكان فيها حوالي أربعة أرطال وقد مضى على ذلك اليوم زمن طويل، ومات الشماس منذ فترة بعيدة، لكن الناس ظلوا يذكرون قصة الكافيار وسواء كانت الحياة هنا فقيرة إلى هذه الدرجة، أم أن الناس لم يكونوا قادرين على ملاحظة أي شيء غير هذه الحادثة التافهة التي وقعت منذ عشرة أعوام، فإنهم لم يروا أي شيء آخر عن قرية أو كليفولم تكن الحمى تختفي منها، وحتى في الصيف كان فيها وحل كوحل المستنقعات، خاصة تحت الأسيجة



التي تتحني فوقها أشجار الصفصاف العتيقة بظلالها الوارفة وكانت تفوح هنا دائماً رائحة المخلفات الصناعية وحامض الخل الذي كانوا يستخدمونه في معالجة الشيت الملون ولم تكن الفبارك إلا ثلاث لصباغة الشيت وواحدة للجلود تقع في القرية، بل في طرفها وقريباً منها كانت هناك فبارك صغيرة، وكان يعمل فيها جميعاً حوالى أربعمئة عامل لا أكثر وبسبب فابريكة الجلود كانت مياه النهر كثيراً ما تصبح نتنة ولوثت المخلفات المرج، فأصبحت ماشية الفلاحين بالقرحة السيبرية، وصدر أمر بإغلاق الفابريكة واعتبرت مغلقة، لكنها كانت تعمل سراً، بعلم وكيل المأمور وطبيب الناحية اللذين كان صاحبها يدفع لكل منهما عشرة روبلات في الشهر ولم يكن في القرية كلها سوى منزلين محترمين، مشيدين من الحجر، وبسقف معدنى كان أحدهما مقراً لإدارة الناحية، وفي الثاني، ذي الطابقين، والمواجه مباشرة للكنيسة، عاش جريجورى بتروف تسيبوكين، البرجوازي الصغير.

كان جريجورى يملك دكان بقالة، ولكن ذلك كان ستاراً، أما في الحقيقة فكان يتاجر في الفودكا، والماشية، والجلود، والحبوب، والخنازير كان يتاجر في كل ما يتاح له، وحينما كانوا في الخارج مثلاً، يحتاجون إلى ريش العقق لقبعات النساء، كان يكسب من كل



زوج ثلاثين كوبيكاً وكان يشتري الأشجار لتقطيعها خشباً، ويقرض بفائدة، وعموماً كان عجوزاً ماهراً في الأعمال وكان لديه ولدان الأبن الأكبر، أنيسيم، كان يعمل في الشرطة، في قسم المباحث، ونادراً ما يأتي إلى البيت أما الابن الأصغر، ستيبان، فسار على درب التجارة، وكان يساعد أباه، وإن لم ينتظروا منه مساعدة حقيقية لأنه كان معتل الصحة وأطرش وكانت زوجته أكسينيا، وهي امرأة جميلة، ممشوقة، ترتدى في الأعياد قبعة وتحمل مظلة، تستيقظ مبكراً وتنام متأخراً، وتركض طول النهار، مشمرة جونيولاتها، وهي تصلصل بالمفاتيح، تارة إلى المخزن، وتارة إلى القبو، وتارة إلى الدكان، فكان العجوز تسيبوكين ينظر إليها بمرح، وتتوقد عيناه، وفي تلك اللحظات كان يأسف أنها ليست متزوجة من ابنه الأكبر، بل من الأصغر، الأطرش، الذي لم يكن، فيما يبدو، يفقه كثيراً في جمال النساء.

كان العجوز ميالاً دوماً إلى الحياة العائلية، فكان يحب أسرته أكثر من أي شيء في الدنيا، وخاصة ابنه الأكبر المخبر وزوجة ابنه الأصغر وما أن تزوجت أكسينيا من الأطرش حتى كشفت عن مهارة عملية فائقة، وأصبحت تعرف من الذي يمكن أن تبيع له بالدين ومن الذي لا يمكن، واحتفظت بالمفاتيح فلم تأتمن عليها حتى زوجها، وكانت تعد على العداد الخشبي، وتفحص أسنان الخيول



مثل الفلاحين وطول الوقت تضحك أو تصيح وكلما عملت أو قالت شيئاً كان العجوز ينظر بتأثر ويدمدم: - عفارم ياكنة عفارم يا حلوة كان أرملاً، ولكن بعد زواج ابنه بسنة، لم يتمالك نفسه فتزوج هو الآخر وجدوا له على بعد ثلاثين فرسخاً من أوكلييفو فتاة تدعى فارفارا نيكولايفنا، من أسرة طيبة، تقدمت بها السن ولكنها جميلة، حسنة الهيئة وما أن سكنت الغرفة الصغيرة، في الطابق العلوي، حتى أشرق كل شيء في البيت، كأنما وضع زجاج جديد في جميع النوافذ وسطعت القناديل، وفرشت على الطاولات مفارش بيضاء كالثلج، وظهرت على النوافذ وفي الحديقة أزهار بأكامم حمراء، ولم يعودوا يتناولون الغداء من صحيفة واحدة بل وضعت الأطباق أمام كل شخص وكانت فارفارا نيكولايفنا تبتسم برقة ولطف فبدأ أن كل ما في البيت يبتسم وأخذ الشحاذون والجوالون والمتعبدات يعرجون على فناء الدار، الأمر الذي لم يحدث أبداً من قبل، وترددت تحت النوافذ أصوات فلاحات أوكلييفو الشاكية الناعمة، وسعال خجل للفلاحين المنهكين المفصولين من الفابريكة بسبب السكر كانت فارفارا تساعدهم بالنقود والخبز والملابس القديمة، وبعد أن ألفت البيت راحت تختلس لهم من الدكان وذات مرة لمحها الأطرش وهي تسرق من الشاي فتملكه الحرج وفيما بعد قال لأبيه: نينة أخذت مني شاي على أي حساب أسجلهما؟ فلم يجب العجوز بشيء، ووقف



قليلاً وفكر وهو يلعب حاجبيه، ثم صعد إلى زوجته وقال لها برقة:
يا فارفاروشكا يا روجي إذا ما احتجت إلى شيء من الدكان فخذيه
خذي كما تشائين ولا تهتمي.

وفي اليوم التالي صاح لها الأطرش وهو يجري عبر الفناء: - يا
نينة، إذا احتجت لشيء، خذيه كانت تتصدق، وكان في ذلك شيء
جديد، وشيء مرح وخفيف، كما في القناديل والأزهار الحمراء
وحيثما كانوا ليلة الصيام أو في عيد راعي الكنيسة الذي كان يستمر
ثلاثة أيام، يبيعون للفلاحين اللحم المملح العفن ذا الرائحة الفظيعة
حتى ليصعب الوقوف بجوار البرميل، ويأخذون من السكارى المناجل
والطواقي ومناديل زوجاتهم رهناً، وحيثما كان عمال الفبارك يتمرغون
في الأوحال وقد أفقدتهم الفودكا السيئة صوابهم، ويبدو أن الحرام
قد تكاثف وأصبح معلقاً في الجو كالضباب، عندها يداعب النفس
شعور بالراحة من فكرة أن هناك في البيت امرأة هادئة، لطيفة، لا
شأن لها لا باللحم المملح ولا بالفودكا كان لصدقاتها في تلك الأيام
الممضة المضحية مفعول صمام الأمان في الآلة.

كانت الأيام في منزل تسيبوكين تمضي في المشاغل فقبل أن تبزغ
الشمس تتردد زفرات أكسينيا وهي تغتسل في المدخل، بينما يغلى
السماور في المطبخ ويؤز منذراً بشيء شرير وكان العجوز جريجوري



بتروف، وقد ارتدي سترة سوداء طويلة وسروالاً من الشبت، وحذاء عالياً لامعاً، يتجول في الغرف نظيفاً، صغيراً، ويدق بكعبيه كوالد الزوج في الأغنية المعروفة ثم يفتحون الدكان وعندما ينتشر الضوء يأتون بالعربة إلى درج المدخل فيقفز إليها العجوز بفتوة، ويغمد عمرته الكبيرة حتى أذنيه، فإذا نظرت إليه لا يمكن أن تقول أنه في السادسة والخمسين وتودعه زوجته وكنته وفي تلك اللحظة، عندما يكون مرتدياً سترة جيدة نظيفة، وقد شد إلى العربة حصان أسود ضخمة، ثمنه ثلاثمائة روبل، لا يحب العجوز أن يقصده الفلاحون بطلباتهم وشكاواهم كان يمقت الفلاحين ويتقزز منهم، وعندما يرى أحدهم واقفاً ينتظر بجوار البوابة، يصبح فيه بغضب:

- ما لك واقفاً هناك؟ سر في طريقك أو تصرخ إذا كان ذلك شحاذاً
الله يسهل لك كان يرحل لقضاء أعماله وكانت زوجته تتظف الغرف أو تساعد في المطبخ، مرتديه ثياباً داكنة ومريلة سوداء وتتاجر أكسينيا في الدكان، وكان يسمع في الفناء رنين الزجاجات والنقود وضحكها أو صياحها وكلمات الزبائن الغاضبة الذين أهانتهم وفي الوقت نفسه كان واضحاً أن التجارة السرية في الفودكا قد بدأت في الدكان وكان الأطرش يجلس أيضاً في الدكان، أو يسير في الشارع بلا طاقيّة، وقد دس يديه في جيبيه، ويتطلع شاردّاً إلى الدور أو إلى السماء وكانوا



يشربون الشاي في البيت حوالي ست مرات في اليوم، ويجلسون إلى المائدة لتناول الطعام أربع مرات وفي المساء يحسبون الدخل ويسجلونه، ثم يخلدون إلى نوم عميق كانت فبارك(مصانع) الشيت الثلاث في أوكليفو، وكذلك بيوت الصناعيين آل خريمين الأكبر وآل خريمين الأصغر وكوستيوكوف مجهزة بالتليفون ومدوا التليفون أيضاً إلى إدارة الناحية ولكنه سرعان ما تعطل هناك إذ عتش فيه البق والصراصير وكان شيخ الناحية ضعيف التعليم، يبدأ كل كلمة في الأوراق الرسمية بحرف كبير، ولكنه قال عندما تعطل التليفون نعم، ستكون أحوالنا أصعب بلا تليفون وكان آل خريمين الأكبر يقاضون دائماً آل خريمين الأصغر، وأحياناً كان آل خريمين الأصغر يتشاجرون، هم أيضاً، فيما بينهم ويلجأون إلى المحاكم، وعندئذ تتوقف فابريكتهم شهراً وشهرين إلى أن يتصالخوا، وكان ذلك يسلى أهالي أوكليفو، إذ كان كل شجار يثير الكثير من الأحاديث والقييل والقال وفي أيام الأعياد كان كوستيوكوف وآل خريمين الأصغر ينظمون ترحلاً بالزحافات، فيمرقون في أوكليفو ويدوسون العجولوكانت أكسينيا تنزه في الشارع قرب دكانها، في كامل زينتها وهي تخرخش بجونلاتها المنشأة، فكان آل خريمين الأصغر يلتقطونها ويحملونها معهم كأنما عنقوفي ذلك الحين كان العجوز تسيبو كين يتزحلق أيضاً لكي يظهر حصانه الجديد، ويصطحب معه فارفارا .



وفي المساء، بعد الترحلق وقبيل النوم، كانوا يعزفون في فناء آل خريمين الأصغر على أكورديون ثمين، وعندما يكون هناك قمر تبعث هذه الألحان القلق والبهجة في القلب، ولا تعود أوكلييفو تبدو كالحفرة. كان الابن الأكبر أنيسيم لا يأتي إلى البيت إلا نادراً، في الأعياد الكبيرة فقط، ولكنه كان كثيراً ما يرسل مع بلديه الهدايا والرسائل، المكتوبة بخط شخص غريب، جميل للغاية، وفي كل مرة على فرخ ورق في صورة التماس وكانت الرسائل ممتلئة بتعبيرات لم يستخدمها أنيسيم أبداً في حديثه: بابا وماما العزيزين أبعث إليكما بر طل من شاي الزهور لتلبية احتياجاتكما البدنية وفي أسفل كل رسالة توقيع مخربش، كأنما كتب بريشة مكسورة: أنيسيم تسيبوكين وتحت هذا كتب بنفس الخط الرائع السابق: المخبر.

كانت الرسائل تقرأ جهراً عدة مرات، فيقول العجوز المتأثر المتضرع من شدة الانفعال: - لم يشأ أن يبقى معنا، وقرر أن يسلك طريق العلم طيب، ليكن كل واحد وله وظيفته وذات مرة، قبل أيام المرافع، هطل مطر غزير ببرد، واقترب العجوز وفارقارا من النافذة ليتفرجا، فإذا بهما يريان أنيسيم قادماً من المحطة في زحافة لم يكونوا يتوقعون مجيئه أبداً دخل الغرفة قلقاً ومنزعجاً من شيء ما، وظل هكذا طوال فترة بقائه وكان يتصرف بشيء من الاستهتار ولم



يتعجل الرحيل، وبدا الأمر وكأنما فصلوه من عمله وكانت فارفارا مسرورة بمجيئه، وكانت تنظر إليه بمكر، وتتنهد وتهز رأسها وتقول: - يا إلهي، كيف ذلك؟ الشاب أصبح في الثامنة والعشرين وما زال يتسكع أعزب، أوه، هو، هو. من الغرفة الأخرى كان حديثها الهادئ الخافت يسمع هكذا: أوه، هوها، هو وأخذت تتهاشم مع العجوز وأكسينيا، فارتسم على وجهيهما أيضاً تعبير ماهر غامض، كما على وجوه المتأمرين.

وقرروا تزويج أنيسيم وقالت فارفارانا وها، هو الأخ الأصغر زوجوه من زمان، وأنت لا تزال بلا شريكة كالديك في السوق في أي شرع هذا؟ أوه هو بعد أن تتزوج إن شاء الله، افعل كما تشاء، اذهب إلى العمل، لكن زوجتك ستبقى في البيت، لتساعدنا إنك تعيش بلا ترتيب باشاب، وقد نسيت كل القواعد كما أرى أوه، هو، هو، ما العمل معكم يا أهل المدينة؟.

عندما كان آل تسييو كين يتزوجون، كانوا يختارون لهم أجمل العرائس باعتبارهم أغنياء وقد وجدوا لأنيسم أيضاً عروساً جميلة أما أنيسيم نفسه فلم تكن هيئته جذابة، ولا ملفتة فمع بنيانه الضعيف المريض وقامته القصيرة، كان له خدان ممثلتان منتفخان كأنما نفخهما عمداً وعينه لا تطرفان ونظرته حادة، ولحيته حمراء، خفيفة



الشعر، وعندما يستغرق في التفكير كان يدسها في فمه ويعضها وعلاوة على ذلك كان يسكر كثيراً، وبدا ذلك واضحاً على وجهه ومشيته ولكن عندما أخبروه أنهم وجدوا له عروساً جميلة جداً، قال: حسناً، أنا أيضاً لست أحول نحن آل تسيبوكين، كلنا جميلون كانت قرية تورجوفو بجوار المدينة مباشرة وقد ضم أحد شطريها مؤخراً إلى المدينة، وظل الشطر الآخر قرية وفي الشطر الأول كانت تعيش إحدى الأرامل، في دار ملكها وكانت لديها أخت، فقيرة تماماً، تعمل في المنازل باليومية وكان لدى هذه الأخت ابنة تدعى لييا، تعمل أيضاً وكانت الألسنة في تورجوفو تتحدث عن جمال لييا، لكن الشيء الوحيد الذي كان يثير حرج الجميع هو فقرها المدقع وكانوا يقولون إنه ربما تزوجها كهل أو أرمل غير عابئ بفقرها، أو ربما أخذها لنفسه وهكذا، وعندئذ تعيش أمها معها فتجد لقمة العيش وعلمت فارفارا عن لييا من الخاطبات فسافرت إلى تورجوفو ثم أقيم في بيت الخالة حفل عرض، حسب الأصول، بطعام وشراب، وكانت لييا في فستان وردي جديد، حاكنه خصباً لحفل العرض، وتوهج في شعرها شريط أحمر كالنار كانت نحيلة، ضعيفة، شاحبة، وقسماتها دقيقة رقيقة، سمراء من العمل في الهواء الطلق ولم تفارق وجهها ابتسامة حزينة وجلة، وأطلت من عينيها نظرة أطفال، بريئة وفضولية وكانت صبية، طفلة بعد، بصدر لا يكاد يبين، ولكن كان



بوسعها أن تتزوج، إذ بلغت السن القانونية وكانت جميلة بالفعل، ولكن كان فيها شيء واحد ربما لا يحوز الإعجاب: بداها الكبيرتان الرجاليتان، اللتان كانتا تتدليان الآن بلا عمل مثل مخلبين طويلين وقال العجوز للخالة ليس لديكم مال، ونحن لن نشغل البال لقد أخذنا لابننا ستيبان عروساً من أسرة فقيرة أيضاً، وهي الآن موضع فخرنا وسواء في الدار أم في العمل فلها يدان من الذهب.

كانت لييا واقفة بجوار الباب وكأنما تريد أن تقول: اصنعوا بي ماتريدون، أنا أثق بكم، أما أمها، براسكوفيا، فاختبأت في المطبخ وقد تجمدت من الوجع في زمن ما وأيام شبابها، غضب منها تاجر كانت تمسح الأرضية لديه، فشق الأرض بقدميه ثائراً فيها فارتعبت بشدة واعتراها الذهول، وبقي الخوف في نفسها طوال العمر ومن الخوف كانت يداها وساقاها ترتعش دائماً، وكذلك خذاها جلست في المطبخ وهي تحاول أن تتسمع ما يقوله الضيوف، وترسم طوال الوقت علامة الصليب وهي تلتصق أصابعها بجبهتها وتتنظر إلى الأيقونة وشد إنيسيم، الذي ثمل قليلاً، باب المطبخ وقال باستهتار: - لماذا تجلسين هنا يا نينة الغالية؟ نحن نشعر بالوحشة بدونك أما براسكوفيا التي اشتد وجلها فقد أجابته وهي تضغط بيديها على صدرها الهزيل النحيل: - ماذا تقول، العفو العفو بارك الله فيكم.



وبعد العرض حددوا يوم الزفاف وعندما عادوا إلى البيت راح إنيسيم يجوس بالغرف مصفراً، أو يتذكر فجأة شيئاً ما فيستغرق في التفكير، محدقاً في الأرض بنظرة جامدة ثابتة، كأنما كان يريد بنظرته أن ينفذ عميقاً في الأرض ولم يعرب لا عن رضاه بأنه سيتزوج، سيتزوج قريباً، وفي نهاية عيد الفصح، ولا عن رغبته في رؤية عروسه، بل كان يصفر فقط وكان واضحاً أنه لا يتزوج إلا لأن تلك كانت رغبة أبيه وزوجة أبيه، ولأن العادة جرت هكذا في الريف: أن يتزوج الابن لكي يأتي إلى البيت بمساعدة وعندما استعد للرحيل لم يتعجل، وعموماً كانت تصرفاته لا تشبه تصرفاته السابقة.. كان مستهتراً بشدة، ولم يكن يتحدث كما ينبغي كانت تعيش في قرية شبكالوفا خياطتان شقيقتان، من طائفة الخليست.

وقد أوصيتا بتجهيز ثياب جديدة بمناسبة العرس، فجاءتا لقياس الملابس، وظلتا طويلاً تشربان الشاي حاكتا لفارفاراً فستاناً بنياً بدانتيلاً سوداء وخرزات زجاجية، وحاكتا لأكسينيا فستاناً أخضر فاتحاً، بصدر أصفر وذيل طويل وبعد أن أنهت الخياطتان عملهما لم يدفع لهما تسيبوكين أجرهما نقداً بل سلعاً من دكانه، فانصرفتا من عنده حزينتين، وفي أيديهما صرر بها شموع وسردين ليستا بحاجة إليها أبداً، وحينما غادرتا القرية وأصبحتا في الحقل، جلستا على



تلة صغيرة وراحتا تبكيان وجاء أنيسيم قبل العرس بثلاثة أيام، وكان كل ما عليه جديداً كان ينتعل خفاً لامعاً من المطاط، ويضع بدلاً من رابطة العنق خيطاً أحمر بكريات، وعلى كتفيه تدلى معطف وكان أيضاً جديداً.

وصلى بوقار ثم سلم على أبيه وأعطاه عشرة روبلات فضية وعشر قطع من فئة النصف روبل وأعطى لفارافارا نفس المبلغ، ولأكسينيا عشرين قطعة من فئة الربع روبل وكان أروع ما في هذه الهدايا أن جميع القطع النقدية كانت جديدة كلها وتلمع في الشمس ولكي يظهر أنيسيم وقوراً وجاداً شد عضلات وجهه ونفخ شذقيه، وفاحت منه رائحة الخمر، إذ يبدو أنه كان يخرج من العربة في كل محطة ويشرب في البوفيه ومن جديد كان فيه نوع من الاستهتار وشيء زائد وفيما بعد شرب أنيسيم والعجوز الشاي وأكلا، أما فارافارا فراحت تقلب الروبلات الجديدة في يديها وتسأل عن بلديهم القاطنين في المدينة.

وقال أنيسيم: لا بأس، يعيشون بخير والحمد لله ولكن وقعت لإيفان يجوروف حادثة في حياته العائلية ماتت عجوزه صوفيا نيكيفر وفنا، بالسل أوصوا على غداء التأبين عند الحلوانى، برولين ونصف للشخص وكان هناك خمر عنب. وحتى القاء غداء الفلاحين - بلدينا دفعوا أيضاً روبلين ونصف للشخص. ولكنهم لم يأكلوا شيئاً وهل يفقه



الفلاح في المأكولات المرفهة فقال العجوز وهو يهز رأسه: - روبلان ونصف ولم لا؟ هناك مدينة لا قرية تدخل المطعم لتأكل، فتطلب هذا وذاك، وتجتمع الشلة، فتشرب، وإذا بالفجر حل، وتفضل، ادفع ثلاثة أو أربعة روبلات للشخص أما مع سامورودوف، فإنه يحب بعد كل ذلك أن يشرب القهوة بالكونياك، وكأس الكونياك وحده بستين كوبيكاً فدمدم العجوز معجبا: - يا له من كذاب يا له من كذاب أنا الآن مع سامورودوف دائماً إنه هو الذي يكتب لكم رسائل رافع في الكتابة، واستطرد أنيسيم يقول بمرح لفارفاراً لو حكيت لك يا نينة أي رجل سامورودوف هذا لما صدقت إننا جميعاً ندعوه مختار أنه أسود تماماً، مثل الأرمن إنني أعرف خباياه، أعرف كل أعماله كمعرفتي لأصابعي الخمس، وهو يشعر بذلك يا نينة ولهذا يسير دائماً ورائي ولا يتركني، ولا يفرقنا الآن شيء ويبدو أنه يشعر بالرهبة مني، ولكنه لا يستطيع العيش بدوني أينما ذهبته ذهب ورائي إن لى يا نينة عينا صائبة صادقة عندما أكون في السوق أنظر، فإذا فلاح يبيع قميصاً قف القميص مسروق وبالفعل، يتضح أن القميص مسروق فسألت فارفاراً: وكيف تعرف؟.

هكذا، عيني هكذا أنا لا أعرف ما هذا القميص ولكني أجد نفسي لسبب ما مشدوداً نحوه: قميص مسروق وانتهى الأمر عندنا في قسم



المباحث يقولون: ذهب أنيسيم لاصطياد دجاج الغابة ومعنى ذلك: ذهب للبحث عن المسروقات نعم كل واحد يستطيع أن يسرق ولكن كيف تخبي المسروق الأرض واسعة ولكن لا مكان تخبئ المسروق فيه. - في قريتنا سرقوا من آل جونتوريف في الأسبوع الماضي خروفا ونعجتين.

قالت فارفارا ثم تنهدت - وليس هناك من يبحث عنها أوهوه هولم؟ البحث ممكن بسيط، ممكن وحل يوم الزفاف كان يوماً بارداً من شهر أبريل ولكنه صحو وبهيج ومنذ الصباح الباكر أخذت عربات الترويكَا وعربات الجوادين المزينة بالأشرطة الملونة على أقواسها وأعراف خيولها تطوف بأوكلييفو وهي تصلصل بأجراسها وصاحت الغربان في أشجار الصفصاف وقد أزعجها مرور العربات، وصدحت الزرازير بلا توقف وبإجهاد، وكأنما أسعدها أن لدى آل تسييوكين عربات.

وفي المنزل مدت على الطاولة الأسماك الطويلة ولحم فخذ الخنزير والطيور المحشوة وعلب السردين وشتى المملحات والمخللات وعدد كبير من زجاجات الفودكا والخمر، وفاحت رائحة السجق المدخن والكركد البحري الفاسد وكان العجوز يتمشى بجوار الموائد وهو يدق بكعبيه ويشحذه سكيناً بسكين وكانوا ينادون على فارفارا كل حين طالبين منها شيئاً ما فتركض شاردة لاهثة



إلى المطبخ حيث يعمل منذ الفجر طاه من عند آل كوستيوكوف وطاهية ماهرة من عند آل خريمين الأصغر وكانت أكسينيا تركض في الفناء كالأعصار، مجمعة الشعر، بدون فستان بل في الكورسيه فقط، وفي حذاء جديد ذي صرير، فلا تلمح منها سوى ركبتيها العاريتين وصدرها العاري. وعلا الضجيج وتردد السباب والأيمان، وتوقف المارة أمام البوابة المفتوحة على مصراعها، وبدا محسوساً في الجو كله أنه سوف يحدث شيء غير عادي.

ذهبوا لإحضار العروس ودوت الأجراس ثم صمتت بعيداً خلف القرية وفي الساعة الثالثة ركض الناس، فقد ترددت الأجراس ثانية، لقد أحضروا العروس كانت الكنيسة غاصة، واشتعلت ثريا الكنيسة، وغنى المنشدون على النوت الموسيقية حسب رغبة العجوز تسيبوكين وبهر بريق الأضواء والفساتين الساطعة عيني لييا، وخيل إليها أن المنشدين يدقون بأصواتهم العالية كالقطار على رأسها وضغط عليها الكورسيه، الذي ارتدته لأول مرة في حياتها، وكذلك الحذاء، وارتسم على وجهها تعبير، كأنما أفاقت لتوها من إغماء كانت تحرق ولا تفهم أما أنيسيم، الذي كان في حلة سوداء وخط أحمر بدلاً من رباط العنق، فقد استغرق في التفكير وهو يحرق في نقطة واحدة، وعندما يصرخ المنشدون عالياً كان يرسم علامة الصليب



بسرعة كان يشعر بالتأثر وبالرغبة في البكاء. كانت هذه الكنيسة مألوفاً لديه منذ الصغر ففي وقت ما جاءت به أمه لمناولته، وفي وقت ما غنى مع الصبيان في جوقة المنشدين إنه يذكر جيداً كل ركن هنا وكل أيقونة وها هم أولاء يزفونه، هاهم يزوجونه كما تقتضى الأصول، ولكنه لم يعد يفكر في ذلك أو يذكر بل نسي العرس تماماً كانت دموعه تعوقه عن تأمل الأيقونات، وثمة شيء كان يضغط على قلبه راح يصلي ويدعو الله أن يجنبه المصائب المحتومة المتأهبة للانقضاض عليه اليوم أو غداً، أن تتخطاه بصورة ما كما تتخطى العواصف الممطرة القرية في وقت الجفاف دون أن تلقى إليها بقطرة مطر واحدة وما أكثر الذنوب التي ارتكبت في الماضي، ما أكثر الذنوب، وما أعمق التردى والتخبط حتى ل يبدو طلب الغفران غير مناسب لكنه طلب الغفران بل أفلتت منه شهقة عالية، إلا أناحداً لم يلتفت إلى ذلك، إذ ظنوا أنه سكران.

وتردد بكاء طفل مضطرب خذيني من هنا يا أمي يا حبيبتي فصاح القس: صمتاً هنالك عند عودتهم من الكنيسة جرى الناس خلف موكب العرس وبجوار الدكان، وحول البوابة وفي الفناء تحت النوافذ تجمهر حشد وجاءت المادحات لتحية العروسين وما أن عبر العروسان العتبة حتى رفع المغنون عقيرتهم بالغناء وكانوا واقفين في



المدخل مع نوتهم الموسيقية، وعزفت الفرقة الموسيقية المستأجرة خصيصاً من المدينة وحملوا خمر الدون الفوارة في كؤوس طويلة، وقال المقاول النجار بليزاروف، وهو عجوز طويل نحيف، بحاجبين غزيرين حتى لا تكاد عيناه تظهران، مخاطباً العروسين أنت يا أنيسيم وأنت يا بنيتي، تحابا، عيشا يا أبنائي بما يرضي الله، وسترعاكما السيدة العذراء ومال على كتف العجوز وانتحب يا جوجورى بتروف، هيا نبكى، لنبك من السعادة قال بصوت رفيع وعلى الفور قهقهه فجأة واستطرد بصوت عال غليظ: هاهاها وهذه العروس أيضاً حلوة كل شيء فيها، يعني، في محله، كل شيء فيها ناعم، لن يقرقع، كل عددها سليمة مضبوطة، والبراغي كثيرة.

كان أصله من إقليم يجوريفسك، ولكنه عمل منذ الصبا في فبارك أو كلييفو وفي الإقليم واستقر هنا وعرفوه منذ زمن طويل عجوزاً هكذا ونحيفاً وطويلاً على هذا النحو، ومنذ زمن طويل سموه بالعكاز وربما لأنه ظل يعمل في الفبارك أكثر من أربعين عاماً في تصليح الآلات فقط، لذلك كان يحكم على كل إنسان أو جماد من زاوية متانته فحسب: ألا يحتاج إلى تصليح؟ وقبل أن يجلس إلى المائدة جرب عدة مقاعد، هل هي متينة، وجس السمك المملح أيضاً.

بعد تناول الخمر الفوارة بدأوا يجلسون وأخذ الضيوف يتحدثون



ويحركون المقاعد وفي المدخل غنى المغنون وعزفت الموسيقى، وفي تلك الأثناء غنت المادحات في الفناء بصوت واحد، وتعالى خليط أصوات فظيع رهيب يصدع الرؤوس كان العكاز يتلوى على مقعده ويدفع جيرانه بمرفقيه ويشوش على الكلام، وتارة يبكي وتارة يقهقه ودمدم بسرعة: - يا أبنائي، يا أبنائي، يا أبنائي أكسينيوشكا يا عزيزتي، يا فارفاروشكاسنعيش جميعاً في وئام وسلام، يا فؤوسي الغالية كان قليلاً ما يشرب فسكر الآن من كأس فودكا إنجليزية واحدة أدارت هذه الفودكا الفظيعة، التي لا يعرف من أي شيء صنعت، رؤوس كل من شربها كأنما أهوت عليها بضربة وتلعثمت الألسنة.

حضر الحفل رجال الدين والوكلاء في الفبارك مع زوجاتهم، والتجار، وأصحاب الحانات من القرى الأخرى وجلس شيخ الناحية وكاتب الناحية اللذان يعملان معاً منذ أربعة عشر عاماً ولميوقعا طوال هذه المدة ورقة واحدة، ولم يتركا أحداً يخرج من مقر إدارة الناحية دون أن يخدعاه ويهيناه، جلسا الآن متجاورين، كلاهما بدينان، شبعانان، وبدا أنهما تشبعا بالكذب إلى درجة أن بشرة وجهيهما كانت من طينة خاصة، بشرة نصابة وجاءت زوجة الكاتب، وكانت امرأة هزيلة، حولاء، بجميع أولادها معها، وأخذت تنظر شزرراً، كالطير الجارح، إلى الأطباق وتخطف كل ما تقع عليه يدها، وتدسه في



جيوبها وجيوب الأطفال.

جلست ليلى جامدة، بنفس التعبير الذي ارتسم على وجهها في الكنيسة ومنذ أن تعرف بها أنيسيم لم يتبادل معها كلمة واحدة، حتى إنه لم يعرف إلى الآن ما صوتها وقد جلس الآن بجوارها صامتاً أيضاً، يشرب الفودكا الإنجليزية، وعندما ثمل تحدث مخاطباً خالتها الجالسة قبالة له لدى صديق اسمه سامورودوف رجل مخصوص مواطن فخري خاص ويستطيع أن يتحدث ولكني يا خالة أعرف خباياه، وهو يشعر بذلك اسمحيلي أن أشرب معك في صحة سامورودوف يا خالة ودارت فارفارا حول الموائد وهي تضيف المدعويين مرهقة، شاردة وكانت فيما يبدو سعيدة لكثرة المأكولات وفخامة المائدة، إذن فلن يعتب أحد الآن وغربت الشمس ولكن الغداء استمر، ولم يعد أحد يدرك ماذا يأكل أو يشرب، ولم يعد مسموعاً ماذا يقال وأحياناً، وفقط عندما تصمت الموسيقى، كان يسمع بوضوح صوت امرأة تصيح في الفناء مصوا دماءنا الملاحين، فلتبلعكم جهنم.

وفي المساء رقصوا بمصاحبة الموسيقى وجاء آل خريمين الأصغر بخمورهم، ورقص أحدهم الكادريل ممسكاً في كل يد بزجاجة وبكأس في فمه فأضحك ذلك الجميع وفي أثناء رقصة الكادريل بدأوا فجأة يرقصون قرفصاء وكانت أكسينيا الخضراء تمرق



فقط فتثير الهواء بذيل فستانها وداس أحد ما على كورنيش ذيلها الأسفل فصاح العكاز: - هيه، خلعوا لك الأفريز يا أبنائي كانت عينا أكسينيا رماديتين، ساذجتين، نادراً ما تطرفان، وارتسمت على وجهها دائماً ابتسامة ساذجة وكان في هاتين العينين اللتين لا تطرفان، وفي رأسها الصغير فوق عنقها الطويل، وفي قدها الرشيق كله ثمة شيء ثعبانى كانت تنظر، بجسمها الأخضر وصدرها الأصغر وابتسامتها، كما تنظر الأفعى في حقل الجودار الفتى في الربيع إلى شخص عابر، وقد تمددت ورفعت رأسها وكان الإخوة خريمين يعاملونها بلا تحفظ، وظهر واضحاً تماماً أنها على علاقة غرامية بأخيهم الأكبر منذ فترة طويلة ولكن الأطرش لم يفهم شيئاً ولم ينظر إليها كان جالساً، وقد وضع ساقاً على ساق، يأكل الجوز ويكسره بفرقة عالية، حتى بدا كأنه يطلق النار من مسدس وها هو ذا العجوز تسيبو كين نفسه يخرج إلى وسط الحلبة ويلوح بمنديله مشيراً إلى أنه هو أيضاً يريد أن يرقص الرقصة الروسية، فانداح في المنزل كله وفي الفناء وسط الحشد هدير استحسان: هو ذاته خرج ذاته فارفارا هي التي رقصت، أما العجوز فكان يلوح بالمنديل فحسب ويحرك كعبيه، ولكن أولئك الذين جثم بعضهم فوق بعض في الفناء وهم يطلون فيالنوافذ كانوا في غاية الإعجاب، وللحظة غفروا له كل شيء: ثراه وإهاناته لهم وسمعت أصوات في الحشد:



جدع يا جريجورى بتروف هكذا، اجتهد إذن فما زلت قادراً بعد هاها
وانتهى كل ذلك في وقت متأخر، والساعة تدور في الثانية وممر أنيسيم
على المنشدين والعازفين مودعاً وهو يترنح وأهدى كلاً منهم نصف روبل
جديداً أما العجوز فلم يكن يترنح، ولكنه كان يخطو على ساق واحدة
وهو يودع الضيوف ويقول لكل منهم: - العرس تكلف ألفين وبينما كانوا
ينصرفون أخذ شخص ما معطف صاحب حانة شيكالوفو الجديد وترك
له معطفه القديم فانفجر أنيسيم فجأة وراح يصرخ:

قف سأجده حالاً أنا أعرف من سرق قف واندفع إلى الخارج
وطارد شخصاً ما ولكنهم امسكوا به واقتادوه من إبطيه إلى المنزل
ودفعوه ثملاً، متضرجاً من الغضب، مبلاً، إلى الغرفة التي كانت
الخالدة تنزع فيها الثياب عن لييا، وأوصدوا الباب مرت خمسة أيام
وصعد أنيسيم، الذي كان يستعد للسفر، إلى غرفة فارفارا لكي
يودعها كانت جميع القناديل لديها مشتعلة، وفاحت رائحة البخور،
أما هي فكانت جالسة بجوار النافذة تحوك جورباً من صوف أحمر
وقالت: لم تبق معنا كثيراً تراك مللت؟ أوه هوه هو إننا نعيش عيشة
طيبة، كل شيء لدينا كثير، وأقمنا عرسك كما يجب، مضبوط قال
العجوز تكلف ألفين وباختصار نعيش كالتجار لكن الحياة مملة عندنا
وكم نؤذي الناس قلبي يؤلمني يا صاحبي، من أذيتنا للناس، يا إلهي



وسواء استبدلنا حصائاً، أو اشترينا شيئاً، أو استأجرنا عاملاً فكله قائم على الخداع الخداع ثم الخداع الزيت في الدكان مر، عطن، حتى القطران عند الناس أفضل منه هلا قلت لى من فضلك، ألا يمكن أن نبيع زيتاً جيداً؟ كل واحد وله وظيفته يا نينة ولكن الموت قريب آه، آه هلا تحدثت مع أبيك هلا تحدثت أنت معه.

طيب، طيب أقول له ذلك فيجيبنى مثلما تقول بالحرف: كل واحد وله وظيفته أتظن أنهم سيبحثون يوم القيامة في وظيفة كل واحد؟ إن حساب الله عادل بالطبع لن يبحث أحد في شيء قال أنيسيم وتهد الله على أي حال غير موجود يا نينة فأى بحث إذن.

تطلعت إليه فارقاراً بدهشة، ثم ضحكت وأشاحت بيديها ولأنها أبدت هذه الدهشة الصادقة من كلماته وتطلعت إليه وكأنه شاذ الأطوار، فقد أحس بالخجل وقال: ربما كان الله موجوداً، ولكن ليس هناك إيمان عندما كللوني في الكنيسة تملكني انقباض شديد مثلما تمد يدك أحياناً لتأخذ بيضة من تحت الدجاجة فإذا فيها كتكوت يصيح، هكذا صاح ضميرى فجأة، وطوال فترة التكليل كنت أفكر: الله موجود ثم خرجت من الكنيسة وإذا لا شيء ومن أين لي أن أعرف هل الله موجود أو لا؟ علمونا غير ذلك منذ الصغر الصغير وهو لا يزال يرضع أمه يعلمونه شيئاً واحداً: كل واحد وله وظيفته



أبي أيضاً لا يؤمن بالله لقد قلت لى ذات مرة أنهم سرقوا خرفان آل جونتوريف لقد وجدت السارق سرقها فلاح من شيكالوفو الفلاح سرقها أما جلودها فعند أبي رأيت إذن الإيمان.

غمز أنيسيم بعينه وهز رأسه ومضى يقول: وشيخ الناحية أيضاً لا يؤمن بالله، والكاتب أيضاً، والشماس أيضاً وإذا كانوا يترددون على الكنيسة ويصومون فما ذلك إلا لكي لا يقول عليهم الناس بسوء، وتحوطاً، إذ ربما يأتي حقاً يوم الحساب والآن يقال إن يوم القيامة قد جاء لأن الناس ضعفوا ولا يحترمون آباءهم وخلافه هذا كلام فارغ أما أنا، يا نينة، فأرى أن البلوى كلها سببها قلة الضمير عند الناس أنا أرى خبايا الأمور، يا نينة، وأفهم إذا كان الشخص يرتدي قميصاً مسروقاً، أرى ذلك يجلس الشخص في الحانة فيخيل إليك أنه يشرب الشاي فقط، أما أنا فأرى غير الشاي، إنه عديم الضمير وهكذا تسير طوال اليوم فلا ترى إنساناً ذا ضمير والسبب كله أنهم لا يعرفون هل الله موجود أو لا حسناً يا نينة، الوداع عيشى طويلاً وفي عافية ولا تذكريني بسوء.

وانحنى أنيسيم لفارفاراً حتى الأرض وقال:نشكرك على كل شيء أنت تعودين على أسرتنا بفائدة كبيرة أنت امرأة محترمة جداً أنا ممتن لك كثيراً وأخرج أنيسيم المتأثر، ولكنه عاد ثانية وقال: لقد



ورطني سامورودوف في أحد الأعمال، فيما أن أصبح غنياً وإما
أنأهلك فإذا حدث لي شيء فأرجوك يا نينة أن تعزي أبي.

لا تقل ذلك ما هذا؟ أوه، هو، هو رحمة الله عليك ولكن هلا
لاطفت زوجتك يا أنيسيم، أوه، هو، فإني أراكما دائماً عابسين حقاً،
اضحكا مرة على الأقل فقال أنيسيم متتهداً: نعم، إنها غريبة لا تفهم
شيئاً وتصمت طول الوقت ما زالت صغيرة جداً، فلتكبر إلى جوار الدرج
كان يقف مهر عال، شبعان، أبيض، مشدود إلى العربة وركض العجوز
تسيبو كين وقفز بفترة وأمسك باللجام وتبادل أنيسيم القبلات مع
فارفارا وأكسينيا وأخيه وعلى الدرج وقفت ليلى أيضاً، وفتجامة،
تحقق جانباً، كأنما لم تخرج للوداع بل هكذا لسبب غير معروف
اقترب منها أنيسيم ومس بشفتيه خدها مساً خفيفاً وقال: - وداعاً.

فابتسمت ابتسامة غريبة دون أن تنظر إليه وارتعش وجهها،
ولسبب ما أحس الجميع بالرتاء لها وقفز أنيسيم أيضاً إلى العربة
وذراعه في خصره إذ كان يعتبر نفسه جميلاً حين صعدا من الخور
إلى أعلى كان أنيسيم يتلفت إلى الورا، إلى القرية كان يوماً دافئاً
صحواً ولأول مرة بعد الشتاء أخرجوا الماشية من الحظائر، فسارت
الفتيات والنساء بجوار القطيع مرتديات ثياب العيد وخار ثور بنى
فرحاً بالحرية وحفر الأرض بقائمتيه الأماميتين وفي كل مكان، في



الأعلى وفي الأسفل، صدحت القبرات وتطلع أنيسيم إلى الكنيسة الممشوقة البيضاء فقد بيضوها حديثاً وتذكر كيف صلي فيها منذ خمسة أيام وتطلع إلى المدرسة ذات السطح الأخضر، وإلى النهر، الذي سبح فيه في وقت ما واصطاد السمك، فتحركت الفرحة في قلبه، وودلو برز حائط من سطح الأرض فجأة ومنعه من المضي قدماً، فبقى مع الماضي وحده في المحطة ذهباً إلى البوفيه وشرب كل منهما كأس خيريس ومد العجوزيده في جيبه ليخرج المحفظة كي يدفع الحساب فقال أنيسيم: - أنت ضيفي فريت العجوز على كتفه بتأثر وغمز بعينه لعامل البوفيه: انظر أي ابن لدى وقال له: لو بقيت يا أنيسيم لدينا تمارس عملنا لما كان لك نظير ولأغرقتك ذهباً من رأسك إلى قدميك.

مستحيل يا أبت كان النبيذ حامضاً قليلاً وفاحت منه رائحة شمع التغليف، ولكنهما شربا كأساً أخرى عندما عاد العجوز من المحطة لم يتعرف للوهلة الأولى على كنته الصغرى.

فما إن رحل أنيسيم عن الفناء حتى تغيرت ليبيا، وأصبحت فجأة مرحلة كانت تغسل درج المدخل، حافية، في جونية قديمة، مشمرة عن ساعديها، وهي تغني بصوت فضي رفيع، وعندما حملت وعاء الماء القذر الكبير إلى الخارج ونظرت إلى الشمس وهي تبتسم



ابتسامتها الطفولية بدا وكأنها هي أيضاً قبرة وهز عامل عجوز كان ماراً بجوار الدرج رأسه وتحنج، وقال:

- يا لهن من كنات رزقك الله بهن يا جريجورى بتروف لسن نساء بل كنوزاً حقيقية.

في الثامن من يوليو، يوم الجمعة، كان بليزاروف، الشهير بالعكاز، وليا عائدين من قرية كازانسكويه، التي ذهبا إليها للزيارة بمناسبة عيد راعية المعبد عذراء كازانوعلى مسافة بعيدة خلفهما سارت براسكوفيا، أم لييا، التي كانت تتخلف دائماً لمرضها ولهاثها كان الوقت يقترب من المساء.

وقال العكاز بدهشة وهو يستمع إلى لييا: آه.آه وبعدين؟ فمضت لييا تقول:

- إنني يا إيليا مكاريتش أحب المربي جداً أجلس وحدي في الركن وأظل أشرب الشاي بالمربي أو أشرب مع فارفارا نيكولايفنا وهي تحكى لى شيئاً مؤثراً عندها مربي كثيرة، أربعة برطمانات تقول لى: كلى يا لييا ولا يهملك.

آه أربعة برطمانات

-يعيشون في رغد شاي بالخبز الأبيض ولحم البقر أيضاً بقدر ما



تريديعيشون في رغد، ولكن الحياة مخيفة بينهم يا إيليا مكاريتش،
مخيفة جدا

- ما الذي يخيفك يا بنيتي؟ - سأل العكاز ونظر إلى الورا ليرى
هل تخلفت براسكوفيا كثيراً.

- في البداية، بعد حفلة العرس، خفت من أنيسيم جريجوريتش
لم يفعل بي شيئاً، لم يؤذني، ولكن ما إن يقترب مني حتى يقشعر
جلدي، وعظامي كلها تقشعرلم أنم ليلة واحدة، كنت طوال الوقت
أرتعش وأصلى للرب والآن أخاف من أكسينيا يا إيليا مكاريتش لم
تفعل بي شيئاً، فقط تضحك مني، ولكن أحياناً تطل من النافذة،
وعيناها غاضبتان، خضراوان تلمعان، كعيني النعجة في المعلق آل
خريمين الأصغر يغرونها يقولون لها عند عجوز كم قطعة أرض في
بوتيوكينو، حوالي أربعين ديساتينا، فيها رمل وماء، هيا يا أكسيوشا
ابني لك مصنع طوب وسنشاركك فيه الطوب الآن الألف بعشرين
روبلاً عمل رائع وبالأمس قالت أكسينيا للعجوز أثناء الغداء: أنا أريد
أن أبني مصنع طوب في بوتيوكينو، أريد أن أصبح تاجرة مستقلة
قالت ذلك وضحكت أما جريجورى بتروفتش فقد أربد وجهه، يبدو
أن ذلك لم يعجبه وقال لها: طالما أنا حي فلا يصح أن نفترق، ينبغي
أن نكون معاً فلمعت عيناها كالبرق، وصرت أسنانها وعندما قدموا



الطعام لم تأكل.

آه دهش العكاز - لم تأكل فاستطردت ليبا: - وهل تقول لي لو تكرمت متى تنام تنام نصف ساعة ثم تقفز ناهضة، وتروح وتجيء، وتتخلص: ألم يحرق الفلاحون شيئاً؟ ألم يسرقوا شيئاً العيشة معها رهيبة يا إيليا مكاريتش أما آل خريمين الأصغر فلم يناموا بعد العرس، بل ذهبوا إلى المدينة ليتقاضوا والناس يثرثرون بأن ذلك من تحت رأس أكسينيا اثنان من الإخوة وعداها ببناء المصنع، ولكن الثالث غضب والفابريكة توقفت شهراً، وخالبروخور، المتعطل عن العمل، كان يجمع الفئات من الأفنية أقول له هلا ذهبت يا خالي فحرثت الأرض أو قطعت الحطب مؤقتاً، لا داعي للفضيحة فيقول لي: بعدت أنا عن العمل الفلاحي، لم أعد أجيد شيئاً يا لينكا..

وتوقفا بجوار غيضة حور رجراج فتي ليستريحا وينتظرا براسكوفيا كان بليزاروف مقاولاً منذ زمن طويل، ولكن لم يكن لديه حصان فكان يجوب الإقليم سيراً على الأقدام وليس معه إلا كيس فيه خبز وبصل فكان يسير بخطوات واسعة ويلوح بذراعيه وكان من الصعب مجاراته في السير عند مدخل الغيضة انتصب عمود حدود الأراضي فتحسسه بليزاروف ليختبر متانته وجاءت براسكوفيا وهي تلهث وتهلل بالسعادة وجهها المغضن، المدعور دوماً: لقد كانت



اليوم في الكنيسة مثل الناس، ثم ذهبت إلى السوق، وشربت هناك منقوع الكمثرى كان نادراً ما يقع لها ذلك حتى إنه خيل إليها الآن أنها تستمتع بحياتها لأول مرة هذا اليوم ونهضوا ثلاثتهم بعد أن استراحوا وساروا متجاورين كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، وتسللت أشعتها عبر الغيضة وأضاءت جذوع الأشجار وفي الأمام ترددت أصوات داوية كانت فتيات أو كليفو قد سبقن منذ وقت طويل ولكنهن توقفن هنا في الغيضة، يبدو لجمع الفطر.

وصاح بليزاروف هيه يا بنات هيه يا حلوات وسمعواضحكا: -
العكاز قادم العكاز الشيطان العجوز وضحك الصدى أيضاً وها هي ذي الغيضة قد أصبحت خلفهم وظهرت قمم مداخن الفبارك، ولمع الصليب على برج الكنيسة كانت تلك هي القرية، نفس القرية التي أكل فيها الشماس في المآتم كل الكافيار هاهم أولاء قد وصلوا تقريبا لم يبق إلا النزول إلى ذلك الخور الكبير جلست ليلى وبراسكوفيا، اللتان كانتا تسييران حافيتين، على العشب لارتداء الأحذية وجلس معهما المقاول ولو نظرت من أعلى لبدت أو كليفو بصفصافها وكنيستها البيضاء ونهرها جميلة هادئة لا يفسدها إلا أسقف الفبارك المطلية بلون قاتم فضيع من باب التوفير وعلى الجانب الآخر، عند المنحدر ظهر الجودار أكواماً وأجراناً هنا وهناك، وكأنما بعثرته العاصفة، وكذلك



الجودار المحصود لتوه صفوقاً ونضج الشوفان أيضاً فأصبح الآن يتموج بالألوان في ضوء الشمس كالصدف كان أوان موسم الحصاد اليوم عيد، وغداً، السبت سيجمعون الجودار وينقلون الدريس، وبعد ذلك الأحد، سيكون عيد مرة أخرى كان الرعد البعيد يقرقع كل يوم، وكان الجو حاراً رطباً، وبدا أن المطر سيسقط، وكان كل من ينظر إلى الحقل الآن يفكر في أن يهبهم الله الفرصة لجمع المحصول، وكانت النفوس مبتهجة فرحة بل وقلقة وقالت براسكوفيا: الحصادون الآن أسعارهم عالية بروبل وأربعين كوبيكا في اليوم؟ وكان الناس يتقاطرون بلا انقطاع قادمين من سوق كازانسكريه نساء، وعمال مصانع في عميرات جديدة، وشحاذون وأطفال وتارة تمر عربية مثيرة الغبار، ومن خلفها يجري حصان لم يبيع وكأنه سعيد لأنهم لم يبيعوه، وتارة يسحبون بقرة من قرونها، بينما تحرن، وتارة عربية أخرى وفيها فلاحون سكارى يدلون منها سيقانهم وقادت امرأة عجوز صبيلاً في طاقة كبيرة وحذاء كبير وكان الصبي مرهقاً من الحر والحذاء الثقيل الذي كان يمنع ساقيه من الانثناء عند الركبتين، ولكنه سار، وهو ينفخ بكل قواه ودون انقطاع في بوق صغير وهبطوا إلى أسفل وانعطفوا إلى الشارع بينما كان صوت البوق لا يزال مسموعاً.

وقال بليزاروف: - صناعونا ثائرون لسبب ما يا للمصيبة غضب



كوستيو كوف منى قال: استهلكتم ألواحاً كثيرة في عمل الأفاريز ما معنى كثيرة؟ قتلته استهلكنا يا فاسيلي دانييلتش بالقدر المطلوب إنني لا أكلها مع العصيدة هذه الألواح فقال: كيف تجرؤ على توجيه هذه الكلمات لى؟ يا مغفل، يا بليد اعرف قدرك وصرخ - أنا الذي جعلت منك مقاولاً فقلت له: يا سلام، شيء عظيم عندما لم أكن مقاولاً كنت مع ذلك أشرب الشاي كل يوم فقال: كلكم محتالون فسكت وقلت لنفسى: نحن محتالون في هذه الدنيا، وأنتم ستكونون محتالين في الآخرة هاها ها وفي اليوم التالي هدأت ثائرته قال لى لا تغضب منى يا مكاريتش على ما قتلته لك لو كنت قلت شيئاً زائداً فلا بأس، أنا تاجر من الطبقة الأولى، أكبر منك، ومن واجبك أن تسكت فقلت له: أنت تاجر من الطبقة الأولى وأنا نجار، هذا مضبوط ويوسف القديس كان أيضاً نجاراً إن عملنا ورع، يرضى عنه الله، أما إذا كنت تريد أن تكون أكبر فتفضل يا فاسيلي دانييلتش وبعد ذلك، بعد هذا الحديشعنى فكرت من الأكبر؟ التاجر من الطبقة الأولى أم النجار؟ هو النجار يا أبنائى وفكر العكاز ثم أضاف: - هو كذلك يا أبنائى من يعمل، من يتحمل فهو الأكبر.

غربت الشمس، وتساعد ضباب كثيف أبيض كاللبن فوق النهر وفي باحة الكنيسة وفي الفسحات المحيطة بالفبارك والآن، عندما



زحفت الظلمة بسرعة، وومضت الأضواء في الأسفل، وعندما بدأ أن الضباب يخفي تحته هوة سحيقة، ربما خيل لليبا وأمها، اللتين ولدتا شحاذتين وكانتا على استعداد للعيش هكذا حتى النهاية، ولتقديم كل ما لديهما للغير ما عدا روحيهما المذعورتين الوديعتين ربما خيل إليهما للحظة أنهما هما أيضاً قوة في هذا العالم الهائل الغامض، ضمن الأعداد اللانهائية من الأرواح، وأنهما أكبر من أشخاص ما كانتا تشعران بالراحة وهما جالستان هنا في الأعلى، وابتسمتا بسعادة، ونسيता أنه لا بد مع ذلك من العودة إلى أسفل وأخيراً عادوا إلى البيت كان الحصادون جالسين على الأرض عند البوابة وقرب الدكان وفي العادة لم يكن حصادو أوكلييفو يذهبون للعمل عند تسيبوكين، فيضطر إلى استئجار الغرباء، فبدأ الآن في العتمة أن الجالسين مجرد أشخاص ذوى لحى طويلة سوداء كان الدكان مفتوحاً وظهر الأطرش من الباب وهو يلعب صبيها الضامة وغنى الحصادون بصوت خافت لا يكاد يسمع أو كانوا يطالبون عالياً بنقدهم أجرهم عن يوم أمس ولكن لم يدفعوا لهم حتى لا ينصرفوا قبل الغد وكان العجوز تسيبوكين بلا سترة، فيالصديري، بشرب الشاي مع أكسينيا قرب المدخل تحت شجرة بتولا وعلى المائدة اشتعل مصباح.

ونادى حصاد من وراء البوابة وكأنه يشاكسه: - يا جدو ادفع ولو



النصف يا جدو وعلى الفور تردد ضحك، ثم عادوا يغنون بصوت لا يكاد يسمع وجلسا العكاز ليشرب الشاي أيضاً وشرع يتحدث ذهبنا إذن للسوق تفسحنا يا أبنائي، تفسحنا جيداً جداً، الحمد لك يا رب ووقعت حادثة سيئة اشترى الحداد ساشكا تبقاً وأعطى للتاجر نصف روبل وإذا بنصف الروبل مزيف قال العكاز وتلفت حوله كان يريد أن يتحدث همساً ولكنه تحدث بصوت مكتوم مبجوح سمعه الجميع: وإذا بنصف الروبل مزيف سألوه: من أين أخذته؟ فقال: أعطاه لي أنيسيم تسيبوكين عندما حضرت حفل زواجه واستدعوا الشرطي، وأخذوه احذر يا بتروفيتش وإلا وقع سوء وتردد ثانية نفس الصوت المشاكس: يا جدو يا جدو وساد الصمت.

- آه يا أبنائي، يا أبنائي، يا أبنائي دمدم العكاز بسرعة ثم نهض، فقد تملكه النعاس طيب، شكرا على الشاي والسكر يا أبنائي حان وقت النوم أصبحت خائفاً، نخر السوس كل عوارضى هاهاها وقال وهو ينصرف: - يبدو أنه آن أن أموت وشهق أما العجوز تسيبوكين فلم يكمل شرب الشاي، ولكنه ظل جالساً يفكر وبدا على وجهه كأنما كان ينصت لخطوات العكاز الذي أصبح بعيداً.

وقالت أكسينيا وقد فطنت إلى ما يفكر فيه: ربما كان ساشكا الحداد كاذباً دخل العجوز الدار ثم عاد بعد قليل بصرة وعندما فكها



برقت روبلات جديدة تماماً وأخذ واحداً منها واختبره بأسنانه ثم ألقاه على الصينية ثم ألقى بآخر.

- الروبلات فعلاً مزيفة - دمدم وهو ينظر إلى أكسينيا كأنما متعجباً إنها تلك التي أحضرها أنيسيم آنذاك، هديته ثم قال هاماً وهو يدس الصرة في يديها - خذوها يا بنتى، خذوها وارميها في البئر في داهية واحذري أن يعلم أحد وإلا وقع سوء احملني السماور، أطفئي النور.

رأت لييا وبراسكوفيا الجالستان في الحظيرة كيف انطفأت الأنوار واحداً تلو الآخر، ولم تشتعل إلا القناديل الزرقاء والحمراء عند فارفارا في الطابق العلوي، وتناهت من هناك السكينة والرضا واللامعرفة لم تستطع براسكوفيا أبداً أن تتعود على فكرة أن ابنتها متزوجة من غنى، وعندما كانت تأتي لزيارتها تنكمش بوجل في المدخل وتبتسم باستجداء فيرسلون إليها الشاي والسكر ولم تستطع لييا أيضاً أن تتعود، وبعد أن سافر زوجها لم تعد تنام في سريرها بل حيثما كان، في المطبخ أو في الحظيرة، وكل يوم تمسح الأرضية أو تغسل الملابس، وخيل إليها أنها تعمل بالأجرة والآن، بعد عودتهما من الزيارة جلسا في المطبخ تشربان الشاي مع الطاهية، ثم ذهبتا إلى الحظيرة ووقدتا على الأرض بين الزحافة والحائط كان المكان



هنا مظلماً وفاحت رائحة الطيور وانطفأت الأنوار بقرب المنزل، ثم ترددت جلبة الأطرش وهو يغلق الدكان وهسيس الحصادين وهم يستعدون للنوم على أرض الفناء وبعيداً عند آل خريمين الأصغر عزفوا على أكورديون ثمين ونعست براسكوفيا وليبا.

وعندما أيقظتهما خطوات ما كان المكان مضيئاً من نور القمر كانت أكسينيا واقفة في الباب وفي يديها فراش أبيض كله أضن هنا أبرد دمدمت ثم دخلت فرقدت قرب العتبة تماماً، وأضاءها القمر كلها لم تتم وظلت تزفر زفرات ثقيلة وهي تتململ من الحر، وطرحت عن جسدها كل شيء تقريباً وفي ضوء القمر الساحر كم كان جميلاً وأبياً هذا الحيوان ومر بعض الوقت ثم ترددت خطوات مرة أخرى كان العجوز يقف في الباب.

ونادى: - أكسينيا، هل أنت هنا؟ فأجابت بغضب: - وماذا؟

لقد قلت لك من فترة أن ترمي النقود في البئر هل رميتها؟- وهل تريدني أن أرمى الخير في الماء لقد أعطيتها للحصادين.

- يا إلهي، يا إلهي - دمدم العجوز في ذهول ورعب - يا لك من امرأة شقية آه يا إلهي أشاح بيديه وانصرف وظل طوال ابتعاده يدمدم بشيء ما وبعد ذلك بفترة نهضت أكسينيا فجلست وزفرت



زفرة ثقيلة وبأسي، ثم قامت وجمعت الفراش تحت إبطها وذهبت وتمتعت ليلاً: لماذا زوجتي هنا يا أماء.

- الزواج ضرورى يا بنتي ولسنا نحن الذين ابتدعنا هذه الأمور كان الإحساس بالأسى الذى لا عزاء له على وشك أن يستولى عليهما ولكن خيل إليهما أن أحداً ينظر إليهما من علياء السماء، من زرقتهما، من هناك حيث النجوم، ويرى كل ما يحدث في أوكليفو ويراقب ومهما كان الشر عظيماً فالليلة مع ذلك هادئة رائعة، والحقيقة في دنيا الله رغم ذلك موجودة وستبقى موجودة، بهذا الهدوء والجمال، وكل ما على الأرض في انتظار أن يتحد بالحقيقة كما تتحد أشعة القمر بالليل.

وإذ هدأتا نامتا، وقد التصقت إحداهما بالأخرى علموا منذ فترة طويلة نبأ القبض على أنيسيم وسجنه بتهمة تزيف النقود وترويج العملات المزيفة ومرت أشهر، مر أكثر من نصف عام، وانقضى الشتاء الطويل وحل الربيع وتعود الجميع، في المنزل وفي القرية على وجود أنيسيم في السجن وعندما كان أحد ما يمر ليلاً بجوار المنزل أو الدكان كانوا يتذكرون أن أنيسيم في السجن وعندما يتردد رنين الأجراس عند المدافن كانوا أيضاً لسبب ما يتذكرون أنه في السجن ينتظر المحاكمة وبدا كأن ظلاً ارتمى على الدار فقد أصبح



المنزل داكناً، وصدئ السطح، أما باب الدكان المصنح بالحديد الثقيل والمطلي باللون الأخضر فقد تجعد أو كما قال الأطرش: تكرمش وحتى العجوز تسيبو كين نفسه بدا كأنما أصبح داكناً كف منذ وقت طويل عن قص شعره ولحيته فاستطالت، ولم يعد يجلس في العربة قفاً، ولا يصرخ بالشحاذين: الله يسهل لك وأخذت قوته تتدهور، وظهر ذلك واضحاً في كل شيء وأصبح الناس يخشونه أقل من ذي قبل، وحرر له الشرطى محضراً في الدكان رغم أنه كان يتلقى نصيبه كما في السابق واستدعوه ثلاث مرات إلى المدينة لمحاكمته على الاتجار سراً في الخمر، فكانت القضية تتأجل باستمرار لعدم حضور الشهود، وأرهق العجوز كان يسافر إلى ابنه كثيراً، ويستأجر أشخاصاً ما، ويرفع التماسات لأشخاص ما، وتبرع بقماش بيرق لكنيسة ما وقدم لحارس السجن الذي كان فيه أنيسيم حاملاً فضيلاً لكوب منقوشاً عليه الروح تعرف حدودها وملعقة طويلة.

وكانت فارفاراً تقول: - لا يوجد من يسعى من أجله بحق، أو هو هو هو لو تطلب من أحد السادة أن يكتب إلى المسؤولين الكبار لو يطلقوا سراحه لحين المحاكمة على الأقل ما الداعي لتعذيب الفتى كانت هي أيضاً حزينة، لكنها سمت وابتضت، وكانت تشعل القناديل في غرفتها كما في السابق وتراعي أن يكون كل شيء



في المنزل نظيفاً، وتقدم للضيوف المربي وباستيليا التفاح وكان الأطرش وأكسينيا يعملان في الدكان وافتتحو مشروعاً جديداً مصنعاً للطوب في بونيو كينو، فكانت أكسينيا تسافر إلى هناك كل يوم تقريباً بالعربة كانت تقودها بنفسها، وعندما تقابل أحد المعارف تمط عنقها، كالأفعى في الجودار الفتي، وتبتسم بسذاجة وغموض، أما لييا فكانت تلعب طول الوقت مع ابنها الذي ولد قبيل الصيام كان طفلاً صغيراً، هزياً، يثير الشفقة، وكان من الغريب أنه يصرخ وينظر وهم لا يعتبرونه إنساناً، بل يسمونه نيكيفور كان يرقد في مهده، بينما تمضي لييا إلى الباب ثم تقول من هناك وهي تتحني: مرحبا يا نيكيفور أنيسيميتش ثم تركض نحوه باندفاع وتقبله وتعود إلى الباب وتتحني وتقول مرة أخرى: مرحبا يا نيكيفور أنيسيميتش؟.

فكان يرفع ساقية الحمرابين ويختلط بكأؤه بالضحك مثل النجار بليزاروف وأخيرا تحدد يوم المحاكمة وسافر العجوز قبل ذلك بخمسة أيام ثم قيل إن الفلاحين قد سيقوا من القرية للإدلاء بالشهادة ورحل أيضاً العامل العجوز الذي تلقى هو الآخر استدعاء.

كانت المحاكمة يوم الخميس، ولكن مر الأحد ولم يعد العجوز ولم تصلهم عنه أية أخبار وفي يوم الثلاثاء، قبيل المساء، جلست فارفارا أمام النافذة المفتوحة تصيح إذ ربما يأتي العجوز وفي الغرفة



المجاورة كانت ليبيا تلعب مع ابنها كانت تقذف به وتتلقاه على ذراعيها وتقول بإعجاب: ستكبر وتصبح كبيراً كبيراً وستصبح فلاحاً ونذهب معاً للعمل سنذهب للعمل فقالت فارفارا باحتجاج إخص ما هذه المداعبة العمل باليومية التي تفكرين فيها يا مغفلة؟ سيصبح ابننا تاجراً وغنت ليبيا بصوت خافت، ولكنها نسيت نفسها بعد قليل وقالت ثانية: - ستكبر وتصبح كبيراً كبيراً، ستصبح فلاحاً، وسنذهب معاً إلى العمل باليومية إخص، كفاك فوقفت ليبيا في الباب ونيكيفور على ذراعيها وسألت: - لماذا أحبه هكذا يا نينة؟ لماذا أشفق عليه هكذا؟.

- واستطردت تقول بصوت متهدج واغرورقت عيناها بالدموع من هو؟ وكيف يبدو؟ إنه خفيف كالريشة، كالوبرة، ولكني أحبه، أحبه كأنه إنسان حقيقي ها هو ذا لا يقدر على شيء، ولا يتكلم، ولكني أفهم من عينيه الصغيرتين كل ما يريد وأصاحت فارفارا السمع، فقد تناهى دوى قطار المساء القادم إلى المحطة.

ألم يصل العجوز؟ ولم تعد تسمع أو تفهم ما تقوله ليبيا، ولا تذكر كيف يمضي الوقت، بل كانت ترتعش كلها، لا بسبب الخوف بل من شدة الفضول ورأت عربة تمر بسرعة وجلبة، محملة بالفلاحين كانوا الشهود العائدين من المحطة وعندما مرت العربة أمام الدكان قفز منها العامل العجوز وتوجه إلى الدار وتناهت من الفناء أصوات تسلم



عليه وتسأله عن شيء ما .

فقال بصوت عال:- مصادرة الحقوق وجميع الأملاك، ثم انفضى إلى سيبيريا، أشغال شاقة لست سنوات وظهرت أكسينيا وهي تخرج من الباب الخلفي للدكانفرغت لتوها من صب الكيروسين فكانت ممسكة في إحدى يديها بزجاجة وفي الأخرى بقمع، وفي فمها بنقود فضية .

وسألت بثأثة:- وأين بابا؟ فأجاب العامل:

- في المحطة قال: سأعود عندما تظلم الدنيا وعندما علموا في الدار أن أنيسيم قد حكم عليه بالأشغال الشاقة أعولت الطاهية في المطبخ فجأة كأنما على ميت، معتقدة أن ذلك ما تقتضيه الأصول:- لمن تركتنا يا أنيسيم جريجوريتش، يا صقرنا الغالي .

ونبحت الكلاب المنزعجة وهرعت فارفارا إلى النافذة وقد تملكها الوحشة وأخذت تصرخ في الطاهية مستجمعة صوتها بكل قواها: كفاك يا ستيبانيدا، كفاك لا تعذبنى بحق المسيح ونسوا إشعال السماور، ولم تعد لديهم قدرة على التفكير ليلا وحدها هي التي لم تستطع أبداً أن تفهم ماذا حدث وواصلت لهوها مع الطفل وعندما جاء العجوز من المحطة لم يسأله أحد عن شيء سلم، ثم طاف بجميع الغرف في صمت، ولم يتناول العشاء ولما جلسا معاً



بدأت فارفارا تقول: ليس هناك من يسعى أَلَمْ أَقُلْ لك أن تطلب من السادة، ولكنك لم تطاوعني؟ لو التماس.

بل سعت - قال العجوز ثم أشاح بيده ما إن حكموا على أنيسيم حتى هرعت إلى ذلك السيد الذي كان يحامى عنه، فقال: لا أستطيع أن أفعل شيئاً الآن، تأخرت وأنيسيم أيضاً قال: تأخرت ومع ذلك فما إن خرجت من المحكمة حتى اتفقت مع أحد المحامين، وأعطيته عربوناً سأنتظر أسبوعاً ثم أسافر ثانية الله على كل شيء قدير وطاف العجوز ثانية بجميع الغرف في صمت، وعندما عاد إلى فارفارا قال:

- يبدو أنني مريض في رأسي هذا ضباب أفكارى مشوشة وأغلق الباب حتى لا تسمعه لييا واستطرد بصوت خافت: أموري سيئة مع النقود أذكرين عندما أعطاني أنيسيم قبيل العرس، في عيد الفصح، روبلات وأنصاف روبلات جديدة؟ ساعتها خبأت صرة، أما بقية النقود فخلطتها بنقودي عندما كان عمى ديميتري فيلاتيتش، عليه الرحمة، على قيد الحياة، كان يسافر كثيراً تارة إلى موسكو وتارة إلى القرم لشراء البضائع وكانت لدية زوجة، وعندما كان يسافر لشراء البضائع كانت هذه الزوجة يعنى تخونه مع الآخرين وأنجبت ستة أبناء وحين يسكر عمي كان يضحك ويقول: لا أعرف أبداً أين أبنائي في هؤلاء وأين أبناء الآخرين كان دمث الطباع يعنى وهكذا



أنا الآن لا أعرف أي نقودي الحقيقي وأيها المزيف ويخيل لي أنها كلها مزيفة.

- ماذا تقول، اتق الله.

وأنا أشتري التذكرة في المحطة دفعت ثلاثة روبلات، وخيل إلى أنها مزيفة كم شعرت بالرعب يبدو أنني مريض - ما العمل، الأعمار بيد الله أوه هوه هو دمدمت فارفارا وهزت رأسها - ينبغي أن تفكر في ذلك يا بتروتش قد يحدث شيء بين يوم وليلة، فأنت لست شاباً وإذا مت فربما آذوا حفيدك من بعدك آه كم أخشى أن يؤذوا نيكيفور طبعاً، أبوه اعتبره انتهى، وأمه صغيرة، عبيطة سجل له ولو قطعة الأرض في بوتيوكينو يا بتروفتش حقاً سجلها باسمه فكر في ذلك مضت فارفارا تقنعه الصبي لطيف، مسكين اذهب غداً واكتب الورقة فيم الانتظار؟ فقال تسيبوكين:

حقاً لقد نسيت الحفيد ينبغي أن أسلم عليه تقولين إنه صبي لا بأس به؟ حسناً، فليكبر على بركة الله وفتح الباب وثنى أصبعه داعياً ليلاً فاقتربت منه والصبي على ذراعها وقال لها: إذا احتجت شيئاً يا ليلاً قولي كلى ما تشائين، نحن لا نبخل بشيء، المهم أن تكوني بخير ورسم علامة الصليب على الصبي حافظي على الحفيد لم يعد لدي ابن، فليبق لي الحفيد.



وانحدرت الدموع على خديه وشهق وابتعد وبعد ذلك بقليل أوى إلى الفراش فنام نوماً عميقاً بعد سبع ليالٍ من السهاد سافر العجوز إلى المدينة لمدة قصيرة وعاد وأخبر شخص ما أكسينيا أنه ذهب إلى مكتب التسجيل ليكتب وصية، وأنه أوصى لحفيده نيكيفور بيوتيوكينو، التي كانت أكسينيا تصنع فيها قوالب الطوب المحروق أخبروها بذلك صباحاً، عندما كان العجوز وفارفاً جالسين قرب الدرج، تحت شجرة البتولا، يشربان الشاي. فأوصدت الدكان من جهة الشارع ومن جهة الفناء، وجمعت كل ما كان لديها من مفاتيح، وقذفت بها تحت قدمي العجوز.

- لن أعمل بعد الآن في خدمتكم صاحبت بصوت عال وانفجرت في البكاء فجأة وإذن فأنا لست كثة عندكم بل عاملة الناس كلهم يضحكون مني يقولون انظروا أية عاملة وجدها آل تسيبو كين أنتم لم تستأجروني أنا لست شحاذة ولا وضيعة الأصل، أنا بنت ناس ودون أن تمسح دموعها سددت إلى العجوز عينيْن مليئتين بالدموع، حاقدتين، حولوين من الغضب وكان وجهها ورقبتها أحمرين متوترين إذ كانت تصرخ بكل قواها ومضت تقول لا أريد أن أخدمكم أكثر انهذ حيلي العمل، والجلوس في الدكان طول النهار، والخروج ليلاً لبيع الفودكا هذالي، أما إهداء الأرض فلهذه الشقية زوجة المجرم



وشيطانها الصغير هي هنا السيدة، المالكة، وأنا خادمته أعطها كل شيء، زوجة المجرم هذه، فلتغص به، أما أنا فسأذهب إلى بيتنا؟ هاتوا لكم حمقاء غيري أيها السفاحون الملاعين.

لم يحدث أبدا أن سب العجوز في حياته أو عاقب أولاده، بل لم تخطر حتى بذهنه فكرة أن يجروا أحد من أفراد أسرته على توجيه هذه الكلمات النابية إليه أو معاملته بعدم احترام لذلك قد خاف جداً، وهرول إلى الدار، واختبأ خلف الصوان أما فارفارا فاستولى عليها الذهول حتى إنها لم تستطع أن تنهض من مكانها، بل أخذت تشيح بكلتا يديها كأنما تحمي نفسها من نحلة ستلدغها.

ودمدمت في رعب: - آى، يا ربي ما هذا؟ ما لها تصرخ؟ أوه هوه هو سيسمع الناس اخفضي صوتك اخفضي صوتك وواصلت أكسينيا صباحها:

- أعطيتم زوجة المجرم بونيوكينو، ولتعطوها إذن كل شئ، لا أريد منكم شيئاً فلتذهبوا في داهية كلكم عصابة واحدة كفانى ما رأيته عندكم نهبتم السائرين والراكبين أيها الأشقياء، نهبتم الصغير والكبير ومن الذي كان يبيع الفودكا بدون ترخيص؟ والنقود المزيفة؟. ملأتم صناديقكم نقوداً مزيفة، والآن لم تعودوا بحاجة إلى تجمع



حشد من الناس أمام البوابة المفتوحة على مصراعها وأخذوا يطلون في الفناء وصاحت أكسينيا: - فليُنظر الناس سأفضحكم سأجعلكم تحرقون خزيا ستركعون تحت قدمي ونادت الأطرش اسمع يا ستيبان لنذهب حالاً إلى دارنا لنذهب إلى أبي وأمي، لا أريد أن أعيش مع المجرمين هيا كان الغسيل معلقاً على حبال مشدودة في الفناء فراحت تنزع جونيالاتها وبلوزاتها، المبللة بعد، وتلقي بها إلى يدي الأطرش ثم جن جنونها فأخذت تدور في الفناء حول الغسيل وتنزع كل شيء، وتلقي بما ليس لها على الأرض وتدوسه بقدميها.

وتأوهت فارفارا: آه يا ربي، أمسكوها ما هذا الذي تفعله؟ أعطوها بونيو كينو، أعطوها بحق المسيح في السماء وقال الواقفون عند البوابة: - يا لها من امرأة أيما امرأة ما أعنف ثورتها واندفعت أكسينيا إلى المطبخ حيث كانوا يغسلون في تلك اللحظة كانت اليبا هي التي تغسل وحدها، أما الطاهية فذهبت إلى النهر لتشطف الغسيل وتساعد البخار من الطست والقدر بجوار الموقد، وكان الجو في المطبخ خائفاً وكابياً من الضباب وكانت كومة من الملابس القذرة ما تزال على الأرض، ورقد نيكيفور رافعاً ساقية الحمراءين على أريكة بجوارها حتى لا يصاب بسوء لو وقع وفي اللحظة التي دخلت فيها أكسينيا كانت ليبا قد استخرجت من الكومة قميص أكسينيا ووضعت



في الطست، ومدت يدها إلى الإبريق الكبير الموضوع على الطاولة وكان به ماء يغلي.

هاتى - قالت أكسينيا وهي تنظر إليها بكراهية، وشدت القميص من الطست: لا شأن لك بملابسي حتى تلمسيها أنت زوجة مجرم ويجب أن تعرفي مكانك ومركزك نظرت إليها ليلاً بذهول وعدم فهم، لكنها لمحت فجأة تلك النظرة التي صوبتها أكسينيا إلى الطفل، وأدركت على الفور معناها فشعبت وتثلجت أطرافها أخذت أرضي، فلتأخذي جزاءك .

قالت أكسينيا ذلك والتقطت الإبريق بالماء المغلي ورمت بالماء على نيكيفور دوت أثر ذلك صرخة لم تسمع أو كليفو لها مثيلاً من قبل، وكان أمراً لا يصدق أن مخلوقاً صغيراً وضعيفاً مثل ليلى يمكن أن يصرخ هكذا وفجأة شمل السكون الفناء.

وذهبت أكسينيا إلى البيت في صمت، بنفس ابتسامتها الساذجة المعهودة. وظل الأطرش يتمشى في الفناء ضاماً الغسيل إلى صدره، ثم أخذ يعلقه ثانية في صمت وعلى مهل وإلى أن عادت الطاهية من النهر لم يجرؤ أحد على دخول المطبخ لمعرفة ماذا هناك ذهبوا بنيكيفور إلى مستشفى الإقليم، وفي المساء توفي هناك ولم تنتظر ليلى حتى يحضروا ليأخذوها، بل لفت الميت في بطانية صغيرة



وحملته عائدة إلى البيت.

كان المستشفى، الجديد، المبنى مؤخراً، بنواذ كبيرة، يقوم فوق تل عال ولمعت نوافذه كلها في ضوء الشمس الغاربة فبدا كأنه يشتعل في الداخلوفي الأسفل كانت قرية هبطت ليلاً على الطريق، وقبل أن تبلغ القرية جلست عند بركة صغيرة وجاءت امرأة ما بحصان لتسقيه، ولكنه لم يشرب فقالت المرأة بصوت خافت مستغربة: - ماذا تريد أيضاً؟ ماذا تريد؟.

وجلس صبي في قميص أحمر قرب الماء يغسل حذاء أبيه ولم يظهر سواه أحد بتاتاً لا في القرية ولا على التل وقالت ليلاً وهي تنظر إلى الحصان لا يشرب وهاهي ذي المرأة والصبي بالحذاء في يديه قد انصرفا ولم يعد يرى أحد وأوت الشمس إلى النوم وتغطت بوشاح أحمر موشى بالذهب، وامتدت في السماء سحب طويلة، حمراء وبنفسجية تحرس سكينتها وفي جهة بعيدة، غير معروفة، صاحت واقة بصوت كئيب أصم مثل بقرة محبوسة في حظيرة كان صياح هذا الطائر الغامض يسمع كل ربيع، ولكن أحداً لم يعرف كيف يبدو وأين يعيش وصدحت البلابل عند المستشفى في الأعلى، وفي الخمائل بجوار البركة تماماً ووراء القرية وفي جميع أنحاء الحقل ونعق الوقوق وهو يعد سنوات عمر شخص ما ويخطئ في



الحساب فيبدأ من جديد ونقت الضفادع في البركة بغضب وجهد وهي تتنادى، بل كان يمكن تمييز كلمات أنت كذلك أنت كذلك نقيقتها يا لها من ضجة بدا أن كل هذه الدواب تصرخ وتصيح عمداً، لكي لا ينام أحد في هذا المساء الربيعي، يتشبث الجميع، حتى الضفادع الغاضبة، ويستمتعون بكل دقيقة: فالحياة لا تعطى إلا مرة واحدة.

وأضاء في السماء هلال فضي، وكان هناك الكثير من النجوم ولم تذكر لييا كم من الزمن جلست بجوار البركة، ولكن عندما نهضت ومضت كان الجميع نياماً في القرية ولم يلح ضوء واحد كانت المسافة إلى الدار حوالى اثني عشر فرسخاً في الغالب، ولكن قواها خارت ولم تعرف إلى أين تمضي وكان الهلال يلمح تارة أمامها وتارة إلى يمينها، وصاح ذلك الوقوق ولكن بصوت أصبح مبوحاً وضاحكاً وكأنه يغيظها احذري، ستضلين الطريق سارت لييا بسرعة، وفقدت منديل رأسها وتطلعت إلى السماء وفكرت: ترى أين روح ابنها الآن؟ هل تتبعها أم تحلق هناك في الأعلى، قرب النجوم ولا تفكر بعد في أمها؟ أوه، ما أشد الوحدة في الحقل ليلاً، وسط هذا الغناء بينما لا تستطيع أن تغنى، وسط صيحات الفرح المتصلة، بينما لا تستطيع أن تفرح، وبينما يطل الهلال من السماء، وأيضاً وحيداً، سيان لديه أربع الآن أم شتاء، وأحياء الناس أم أموات عندما تحل بالنفس فاجعة



يصبح الأمر قاسياً بدون الناس. لو كانت معها أمها براسكوفيا، أو العكاز، أو الطاهية، أو أي فلاح وصاحت الواقعة: - بو و و وفجأة ترددت بوضوح كلمات بشرية: سرج يا فافيل.

في الأمام، بجوار الطريق تماماً اشتعلت نار لم يعد هناك لهب بل أضاءت الجمرات الحمراء وحدها وتردد مضغ خيول وفي الظلام لاحت عربتان، واحدة تحمل برمية، والأخرى أقل ارتفاعاً، عليها زكائب، وظهر شخصان: أحدهما ساق حصاناً ليسرجه، بينما وقف الآخر بجوار النار جامداً، عاقداً يديه خلف ظهره وزمجر كلب بجوار العربية، فتوقف الذي كان يسوق الحصان وقال يبدو أن أحداً يسير على الطريق وصاح الآخر بالكلب: - اسكت يا شاريكومن الصوت كان من الممكن إدراك أن هذا الشخص الآخر كان عجوزاً.

وتوقفت لييا وقالت: - الله يساعد فاقترب منها العجوز وأجاب بعد فترة: مرحباً ألن يعضني كلبك يا جدى؟ - لا تخافى، مرى، لن يمسك فصمتت لييا قليلاً ثم قالت:

- أنا كنت في المستشفى ولدي مات هناك وها أنا ذا أعود به إلى البيت يبدو أن العجوز انزعج من سماع ذلك فقد ابتعد عنها وتمتم بعجلة: لا بأس با بنيتى مشيئة الله وقال ملتفتاً إلى رفيقه تتباطأ يا فتى، هيا فقال الفنى:



- قوس عربتك غير موجود لا أراه - ما أقل حيلتك يا فافيل
ورفع العجوز جمرة ونفخ فيها فلم تضى إلا عينيه وأنفه، وبعد أن
وجدا القوس اقترب بالنار من لييا وتطلع إليها وكانت نظرتة تعبر عن
الشفقة والرقّة وقال لها: - أنت أم، وكل أم يعز عليها ولدها.

وزفر وهز رأسه إذ قال ذلك وألقي فافيل بشيء ما على النار
وداسها بقدميه، وعلى الفور أطبقت ظلمة حالكة اختفت المرثيات،
ولم يعد هناك إلا الحقل والسماء كما في السابق، وضجت الطيور
وهي تعوق بعضها بعضاً عن النوم. وبدا كأن السمان يصيح في ذلك
المكان الذي كانت فيه النار ولم تمر دقيقة إلا وأصبح من الممكن رؤية
العربتين والعجوز وفانيل الطويل وصرت العربتان وهما تصعدان
إلى الطريق وسألت لييا العجوز: هل أنتم قديسون؟ كلا، نحن من
فرسانوفو عندما نظرت إلى منذ قليل لان قلبي والفتي هادئ ولهذا
فكرت: لابد أنكم قديسون.

- هل تقصدين بعيداً؟ - إلى أوكلينفو - اركبي، سنوصلك إلى
كوزمنكي من هناك تمضين إلى الأمام، أما نحن فإلى الشمال وجلس
فافيل في العربة ذات البرميل، وجلس العجوز ولييا في العربة
الأخرى وسارت الخيول بالخطوة العادية وفانيل في المقدمة.

وقالت لييا: ولدي تعذب طول النهار، كان يحرق بعينه صامتاً،



يريد أن يتكلم ولا يستطيع. يا إلهي، أيتها العذراء كنت أسقط وأسقط
على الأرض من الفجيرة أقف بجوار سريريه وإذا بي أسقط هلا قلت
لى يا جدي لماذا يتعذب طفل صغير قبيل الموت؟ عندما يتعذب رجل
كبير، فلاح أو امرأة، فذلك تكفيراً عن ذنوبه، فلماذا يتعذب الصغير
وهو بلا ذنوب؟ لماذا؟

فأجاب العجوز: - من ذا يعلم وساروا نصف ساعة في صمت ثم
قال العجوز:

لا يمكن معرفة كل شيء، وكيف ولماذا الطير مسموح له بجناحين،
لا أربعة، لأنه يستطيع أن يطير بانطلاق بجناحين اثنين وكذلك
الإنسان، مسموح له أن يعرف ولكن ليس كل شيء، بل فقط النصف
أو الربع يعرف بالقدر الذي يكفيه لكي يعيش.

- من الأفضل لى يا جدي أن أسير على قدمى قلبي الآن يتهز هز.

- لا بأس، ابقى راكبة وتشاء العجوز ورسم علامة الصليب على
فمه وردد: - لا بأس بلواك نصف بلواى الحياة طويلة وسيكون فيها
الطيب والخبيث، سيكون كل شيء أمناً روسيا واسعة - قال العجوز
وتلفت إلى كلى الجانبين - أنا كنت في كل مكان في روسيا، ورأيت
كل شيء فيها، فصدقى ما أقول يا عزيزتي سيكون الطيب وسيكون



الخبيث أنا ذهبت إلى سيبيريا سيراً على الأقدام وكنت على ضفاف أمور، وفي الطأى، وهاجرت إلى سيبيريا، وحرثت الأرض هناك، ثم أوحشتني أمنا روسيا فعدت أدراجي إلى قريتنا عدنا إلى روسيا سيراً على الأقدام وأذكر، كنا نركب المعديّة، وكنت نحيلاً، ممزق الملابس تماماً حافي القدمين، أرتعش من البرد وأمضغ كسرة وكان في المعديّة أيضاً سيد عابر - عليه الرحمة إن كان قد مات - كان ينظر إلى برثاء ودموعه تسيل وقال لي: إيه، خبزك أسود، وأيامك سوداء وعندما رجعت إلى البيت كنت كما يقولون على الحديدية كانت عندي زوجة فبقيت في سيبيريا، دفناها هناك وهكذا أعيش أجيراً. وماذا؟.

سأقول لك: بعد ذلك كان هناك الخبيث وكان هناك الطيب والآن لا أريد يا عزيزتي أن أموت أود لو عشت عشرين عاماً أخرى فالطيب كان أكثر ما أوسع أمنا روسيا. قال و نظر مرة أخرى إلى كلى الجانبين والتفت إلى الوراء.

فسألته ليبا: - يا جدي، عندما يموت الإنسان، كم يوماً تظل روحه تسير على الأرض؟- ومن ذا يعلم لنسأل فافيلّا، فهو قد تعلم في المدرسة الآن يعلمونهم كل شيء - ونادي العجوز - يا فافيلّا أه.



- عندما يموت الإنسان، كم يوماً تظل روحه تسير على الأرض؟
أوقف فافيليا الحصان وبعد ذلك فقط قال تسعة أيام عندما مات
عمى كيريل عاشت روحه عندنا في الدار بعد موته ثلاثة عشر يوماً.
وكيف عرفت؟ طوال ثلاثة عشر يوماً كنا نسمع طرقات في الفرن
طيب، تحرك - قال العجوز وكان واضحاً أنه لا يصدق شيئاً من ذلك.
بالقرب من كوزمنكى انعطفت العربتان إلى الطريق الرئيسي،
بينما مضت لييا إلى الأمام كان الضوء لاح وعندما أخذت تهبط إلى
الخور اختفت دور أو كليفو وكنيستها في الضباب وكان الجو بارداً،
وخيل إليها أن ذلك الوقوف ما زال يصيح وعندما عادت لييا لم تكن
الماشية قد أخرجت من الحظائر بعد كان الجميع نياماً فجلست
على الدرج تنتظر وكان العجوز أول من خرج وأدرك على الفور ومن
أول نظرة ماذا حدث، فوقف مدة طويلة عاجزاً عن التفوه بكلمة وهو
يطلق فقط بشفتيه.

وأخيراً تمت: - إيه يا لييا، لم تحافظي على الحفيد وأيقظوا
فارفارا، فلوت ذراعيها وأجهشت بالبكاء وشرعت على الفور تكفن
الطفل ومضت تقول:

- كم كان صبيّاً طيباً أوه هو هو صبي واحد، ومع ذلك لم تحافظي



عليه يا عبيطة وأقاموا صلاة التأبين صباحاً ومساءً، وفي اليوم التالي دفنوه، وبعد الدفن أكل الضيوف ورجال الكنيسة كثيراً وبشراهة، كأنما لم يأكلوا منذ زمن طويل وقامت ليلى بخدمة الضيوف، وقال لها القس وقد رفع شوكة عليها فطر مملح: لا تحزني على الوليد أمثاله في ملكوت السماوات.

لم تدرك ليلى جيداً، إلا بعد انصراف الجميع، أن نيكيفور لم يعد موجوداً ولن يعود، وإذ أدركت ذلك أجهشت بالبكاء ولم تدر إلى أية غرفة تذهب لكي تتحب، فقد أحست أنه لم يعد لها مكان في هذا المنزل بعد وفاة الصبي، وأنها هنا بلا داع، زائدة على الحاجة وأحس الآخرون بذلك أيضاً.

ما لك تجأرين هناك؟ - صاحت أكسينيا فجأة وقد ظهرت في الباب وكانت ترتدي ثياباً جديدة بمناسبة الجنازة وقد وضعت البودرة - اخرسى.

أرادت ليلى أن تكف عن البكاء فلم تستطع، بل أعولت بصوت أعلى- أسمعين؟ - صاحت أكسينيا في ثورة الغضب ودقت بقدمها - لمن أقول؟ غورى من هنا، وإياك أن تخطو قدمك هنا ثانية غورى. فقال العجوز مضطرباً:



- طيب، طيب، طيب، اهدئي يا أكسينيا، يا بنيتي إنها تبكي، شيء مفهوم وليدها مات شيء مفهوم- قلته أكسينيا مشاكسة - فلتبت الليلة هنا، ولكن إياك أن أراها غدا شيء مفهوم قلته مرة أخرى ثم ضحكت وذهبت إلى الدكان وفي صباح اليوم التالي مبكراً رحلت لييا إلى أمها في تورجوفو وأصبح سقف الدكان وبابه الآن مطلين يلمعان كأنهما جديدان، وعلى النوافذ تزهر كما في السابق زهور الجيرانيوم المرححة، وأصبح ما حدث منذ ثلاث سنوات في منزل فناء تسيبوكين منسياً تقريباً.

وما زال العجوز جريجورى بتروفتش يعتبر هو السيد كما في السابق لكن كل شيء في الواقع انتقل إلى يدي أكسينيا فهي التي تباع وتشتري، وبدون موافقتها لا يمكن عمل شيء ومصنع الطوب يعمل جيداً، ونظراً لازدياد الطلب على الطوب في السكة الحديدية فقد بلغ ثمنه أربعة وعشرين روبلاً للألف وتقوم النساء والفتيات بنقل الطوب إلى المحطة ثم شحنه في العربات، وتحصل الواحدة منهن لقاء ذلك على ربع روبل في اليوم.

وشاركت أكسينيا آل خريمين، فأصبحت الفابريكة تسمى الآن: آل خريمين الأصغر وشركاه واقتتحوا حانة جديدة بقرب المحطة، ولم يعد العزف على الأكورديون الثمين يسمع في الفابريكة، بل في هذه



الحانة، وكثيراً ما يتردد عليها رئيس قسم البريد، الذي أصبحت لديه هو أيضاً تجارة ما، وكذلك رئيس المحطة وأهدى آل خريمين الأصغر إلى الأطرش ساعة ذهبية، فصار يخرجها من جيبه بين الحين والحين ويقربها من أذنه.

ويقولون عن أكسينيا في القرية إنها اكتسبت قوة كبيرة وبالفعل، فعندما تركب العربة في الصباح ذاهبة إلى المصنع، جميلة، سعيدة، بابتسامتها الساذجة، وعندما تصدر تعليماتها هناك في المصنع، تحس فيها بقوة كبيرة ويخشأها الجميع في البيت وفي القرية وفي المصنع وحين تذهب إلى البريد يقفز رئيس قسم البريد ناهضاً ويقول لها: - أرجو أن تتكرمي بالجلوس يا أكسينيا أبراموفنا وذات مرة كان أحد الإقطاعيين، وهو رجل غندور، كهل، في معطف من الجوخ الخفيف، وفي حذاء عال لامع، يبيعها حصاناً، فجذبه الحديد معها حتى أنه تنازل لها في الثمن بقدر ما شاءت وظل ممسكاً بيدها فترة طويلة قائلاً وهو يحدق في عينيها المشرقتين الماكرتين الساذجتين:

لامرأة مثلك يا أكسينيا أبراموفنا أنا مستعد أن أفعل كل ما يسر فقط قولي متى نستطيع أن نتقابل بحيث لا يزعجنا أحد؟ في أي وقت تشاء؟ وبعد ذلك أصبح الغندور الكهل يأتي إلى الدكان كل



يوم تقريباً ليشرب البيرة وهي بيرة فظيعة، مرة كالحنظل وينفض الإقطاعي رأسه بشدة، ولكنه يشرب لم يعد العجوز تسيبوكين يتدخل في الأعمال ولا يحتفظ لديه بنقود لأنه لا يستطيع أبداً أن يميز النقود الحقيقية عن المزيفة، ولكنه ساكت، لا يخبر أحداً بعجزه هذا أصبح ضعيف الذاكرة بصفة خاصة، وإذا لم يطعموه فلن يطلب من تلقاء نفسه وقد تعودوا على الغداء بدونه وكثيراً ما تقول فارفارا: - عجوزنا نام أمس ثانية دون عشاء.

تقول ذلك بعدم اكتراث لأنها تعودت ولسبب ما يرتدي المعطف الثقيل صيفاً وشتاء وفي الأيام الحارة جداً فقط لا يخرج ويبقى في البيت وفي العادة، وبعد أن يرتدي المعطف الثقيل ويرفع ياقته ويزرر كل الأزرار، يتجول في القرية، وفي طريق المحطة، أو يجلس من الصباح إلى المساء على أريكة بجوار بوابة الكنيسة يجلس بلا حراك ويحييه المارة برؤوسهم ولكنه لا يرد لأنه، كسابق العهد، لا يحب الفلاحين وعندما يسألونه عن شيء ما فإنه يجيب إجابة عاقلة تماماً، وبلهجة مهذبة، ولكن باقتضاب وتتردد الأقاويل في القرية بأن كنته طردته من بيته وتحرمه من الطعام، وأنه يأكل من الصدقات والبعض سعيد لذلك والبعض الآخر يرثى له.

وازدادت فارفارا امتلاء وبياضاً وما زالت تقوم بأعمال الخير كما



في السابق، وأكسينيا لا تمنعها من ذلك وأصبحت المربي الآن كثيرة إلى درجة أنهم لا يتمكنون من أكلها كلها حتى موسم الثمار التالي، ولذلك تتكلس فتكاد فارفارا تبكى ولا تعرف ماذا تفعل بها وأخذوا ينسون أنيسيم وذات مرة وصلتهم رسالة منه مكتوبة شعراً، على ورقة كبيرة في صورة التماس، بنفس ذلك الخط الرائع الظاهر أن صديقه سامورودوف كان يقضي فترة العقوبة معه وتحت الأشعار كتب سطر واحد بخط قبيح غير واضح: أنا هنا مريض دائماً، حالتي صعبة، ساعدوني بحق المسيح.

وذات مرة وكان ذلك قبيل المساء في يوم خريفي صحو كان العجوز تسيبوكين جالساً بجوار بوابة الكنيسة، وقد رفع ياقة معطفه، فلم يرى إلا أنفه ومقدمة عمرته وعلى طرف الأريكة الطويلة الآخر جلس المقاول يليزاروف وبجواره حارس المدرسة ياكوف، وهو عجوز في حوالي السبعين، بفم خال من الأسنان وكان العكاز والحارس يتحدثان قال ياكوف بعصبية:

- الأولاد ينبغي أن يطعموا آباءهم احترام أباك وأمك أما وهي، الكنة أقصد، فقد طردت حماها من بيته الملك والعجوز لا يجد الطعام والشراب، فألى أين يذهب؟ لليوم الثالث لم يأكل.

- لليوم الثالث - دهش العكاز.



- يجلس هكذا ويصمت ضعف ولماذا الصمت؟ فليرفع قضية،
وفي المحكمة لن يمتدحوها فسأل العكاز إذ لم يسمع جيداً: - من
الذي امتدحوه في المحكمة؟

- ماذا؟

- إنها امرأة لا بأس بها، مجتهدة بدون ذلك لا تسير أمورهن
أقصد بدون الحرام فاستطرد ياكوف بعصبية:

- من بيته الملك حسناً، افتتئ لك بيتاً أولاً، ثم اطرديه انظر أية
سيدة الملعونة كان تسيبوكين يسمع ولا يتحرك.

- بيت ملك أم بيت غيرك، سيان، المهم أن يكون دافئاً وألا تتشاجر
فيه النساء قال العكاز وضحك - عندما كنت شاباً كنت أشفق على
زوجتي ناستاسيا جداً كانت امرأة هادئة وكانت تقول لي دائماً: اشتر
بيتاً يا مكاريتش اشتر بيتاً يا مكاريتش اشتر حصاناً يا مكاريتش حتى
وهي تموت قالت: اشتر يا مكاريتش عربة حتى لا تسير على قدميك
أما أنا فلم أكن اشترى لها غير الكعك، ولا شيء أكثر ومضى ياكوف
يقول وهو لا يصغي إلى العكاز:

- زوجها الأطرش غبي، أحقق تماماً مثل ذكر الوز فهل هو يستطيع
أن يفهم؟ لوضربت ذكر الوز على رأسه بالعصي فلن يفهم ونهض



العكاز ليعود إلى البيت ونهض ياكوف أيضاً، وسار الاثنان معاً وواصلوا الحديث وعندما ابتعدا حوالي خمسين خطوة نهض العجوز تسيبوكين أيضاً وجر ساقيه في أثرهما بتردد وكأنه يخطو فوق جليد زلق.

غرقت القرية في غسق المغيب، ولم تلمع الشمس إلا في الأعلى على الطريق الذي كان يصعد من أسفل متلويًا كالشعبان وكانت العجائز عائدات من الغابة ومعهن الأولاد يحملون سلالاً مملوءة بالفطر وسار جمع من النساء والفتيات العائدات من المحطة حيث كن يشحن العربات بالطوب، وكانت أنوفهن وخدودهن تحت عيونهن مغطاة بطبقة رقيقة حمراء من غبار الطوب كن يغنين وفي مقدمة الجميع سارت لييا وهي تنظر إلى السماء وتغني بصوت رفيع رنان، كأنما تشعر بالفرحة والظفر لأن النهار انتهى والحمد لله، وأصبح من الممكن أن تستريح وسارت في الجمع أمها، براسكوفيا، ومعها صرة في يدها، وكانت تلهث كالعادة.

- مرحبا يا مكاريتش قالت لييا عندما رأت العكاز مرحباً ياعمى ففرح العكاز وقال: - مرحبا يا لينكا؟ يا نسوان، يا بنات، أحبين تاجرأغنياً ها - ها يا أبنائي، يا أبنائي وشهق العكاز باكياً يا فؤوسى الغالية ومضى العكاز وياكوف في طريقهما، وسمع صوتهما وهما يتحدثان ومن بعدهما التقى الجمع بالعجوز تسيبوكين، وفجأة ساد



السكون تخلفت لييا وبراسكوفيا قليلاً، وعندما حاذاهما العجوز
انحنى لييا بشدة وقالت:

- مرحبا يا جريجورى بتروفتش.

وانحنى أمها أيضاً فتوقف العجوز ونظر إليهما دون أن ينطق
بكلمة كانت شفتاه ترتعشان وعيناه مليئتان بالدموع وأخرجت لييا من
صرة أمها قطعة فطيرة بالعصيدة ومدتها إليه، فأخذها وراح يأكل.

غربت الشمس تماما وانطفأ بريقها في الأعلى، على الطريق
وأصبح الجو مظلماً وبارداً ومضت لييا وبراسكوفيا في طريقهما،
ولفترة طويلة ظلتا ترسمان علامة الصليب.



كاشتانكا

الفصل الأول: سلوك مشين

أخذت كلبة حمراء شابة خليط من فصيلة الهجين والدشهند سحنتها قريبة الشبه جداً بسحنة الثعلب، تجرى إلى الأمام وإلى الخلف على الرصيف وتتلفت حولها بقلق، وأحياناً كانت تتوقف، وترفع باكية تارة هذه الكف المقرورة وتارة تلك، وهي تحاول أن تفهم: كيف حدث أن ضلت الطريق؟ كانت تذكر جيداً كيف قضت النهار، وكيف أصبحت أخيراً على هذا الرصيف المجهول بدأ النهار بأن ارتدى سيدها، صانع الأثاث لوقا ألكسندريتش، الطاقية الفراء، وأخذ تحت إبطه قطعة خشبية ما، ملفوفة في منديل أحمر، وصاح: - كاشتانكا، هيا وعندما سمعت الكلبة الخليط من فصيلة الهجين والدشهند اسمها، خرجت من تحت نضد النجارة حيث كانت تترقد على نشارة الخشب، وتمطت بتلذذ وركضت خلف سيدها كان زبائن لوقا ألكسندريتش يعيشون بعيداً جداً، حتى إنه كان على صانع الأثاث قبل أن يصل إليهم، أن يعرج عدة مرات على الحانة ليتناول ما ينعش



به نفسه وكانت كاشتانكا تذكر أن سلوكها أثناء الطريق كان غير لائق أبداً فقد راحت تقفز، إذ سرها أن سيدها أخذها للتريض، وتنقض على عربات ترام الخيول بالنباح، وتعرج على الأفنية وتطارد الكلاب وكانت بين الحين والحين تغيب عن أنظار صانع الأثاث فيتوقف ويصرخ فيها بغضب بل إنه ذات مرة ضم أذنها الثلجية في قبضته بينما ارتسم على وجهه تعبير نهم، وهزها وقال وهو يشدد على مقاطع الكلمات: - إن شا الله - تأ خذك بلوى ياملعونة وبعد أن زار لوقا ألكسندريتش زبائنه، عرج لحظة على أخته حيث شرب عندها وأكل ومن أخته توجه إلى عامل تجليد من معارفه، ومن عامل التجليد إلى الحانة، ومن الحانة إلى الأشبين وهكذا وباختصار، عندما أصبحت كاشتانكا على هذا الرصيف المجهول كان المساء قد حل، وأصبح عامل الأثاث ثملاً كحوزي وأخذ يلوح بذراعيه، ويزفر بعمق، ويدمدم: ولدتني أمي من رحم الذنوب آه، الذنوب، الذنوب اليوم نسير في الشوارع وننظر إلى المصاييح، فإذا متنا فسنصلى عذاب السعير أو كانت تداهمه نوبة طيبة، فيدعو إليه كاشتانكا ويقول لها:

- أنت يا كاشتانكا لست سوى حشرة وليس أكثر من ذلك أنت بالمقارنة مع الإنسان مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الأثاث وبينما كان يتكلم معها بهذه الطريقة دوت الموسيقى فجأة والتفتت



كاشتانكا فرأت فوج جنود يسير في الشارع نحوها مباشرة ولما كانت لا تطيق سماع الموسيقى التي تثير أعصابها، فقد اندفعت جانباً وهي تعوى ولدهشتها البالغة رأت صانع الأثاث، بدلاً من أن يفرع ويصرخ وينبح، يبتسم ابتسامة عريضة، وينتصب شاداً قامته، ويرفع أصابعه الخمس مؤدياً التحية وعندما رأت كاشتانكا أن سيدها لا يحتاج، عوت بصوت أعلى، وانطلقت عبر الشارع إلى الرصيف الآخر وهي لاتعي شيئاً.

وعندما أفاقت لم تعد الموسيقى تصدح، واختفى الفوج فركضت عبر الطريق إلى المكان الذي تركت فيه سيدها، ولكن هيهات لم يكن صانع الأثاث هناك فاندفعت إلى الأمام، ثم إلى الخلف، وعبرت الطريق ثانية، ولكن لم يكن هناك أثر لصانع الأثاث، وكأنما ابتلعته الأرض وأخذت كاشتانكا تشم الرصيف، على أمل أن تعثر على سيدها عن طريق آثاره، ولكن أحد الأوغاد كان قد مر في خف جديد من المطاط، فاختلطت الآن كل الروائح الرهيفة برائحة الكاوتشوك القوية الكريهة، بحيث لم يعد من الممكن تمييز شيء.

ركضت كاشتانكا إلى الأمام وإلى الخلف دون أن تعثر على سيدها، وفي تلك الأثناء أظلمت الدنيا وعلى جانبي الشارع أضيئت المصابيح، وظهرت الأنوار في نوافذ المنازل وتساقط الثلج ندفاً



كبيرة زغبية، فطلى باللون الأبيض أرض الشارع وظهور الخيول وطواقى الحوزية، وكلما ازداد الجو ظلاماً تبدت الأشياء أكثر بياضاً وممر بجوار كاشتانكا بلا توقف، إلى الأمام وإلى الخلف، زبائن مجهولون، وهم يحجبون عنها الرؤية ويدفعونها بأقدامهم كانت كاشتانكا تقسم البشر إلى قسمين غير متساويين أبداً: إلى سادة وزبائن وكان هناك فرق جوهري بين هؤلاء وأولئك: فقد كان من حق الفريق الأول أن يضربوها، أما الفريق الثاني فكان من حقها هي أن تطبق على سماعات سيقانهم وكان الزبائن يسرعون إلى جهة ما، دون أن يعيروها أي انتباه.

وعندما أطبق الظلام تماماً استولى اليأس والرعب على كاشتانكا فانزوت عند مدخل أحد المنازل وراحت تبكي بمرارة لقد هدها التعب من التجوال مع لوقا ألكسندريتش طول النهار، وبردت أذناها وأكفها، وعلاوة على ذلك كانت جائعة إلى درجة رهيبة فلم تمضغ طوال النهار سوى مرتين: عند عامل التجليد أكلت قليلاً من الصمغ، وفي إحدى الحانات وجدت بجوار النضد قشر سجق وهذا كل ما هناك ولو كانت إنساناً لفكرت على الأرجح: كلا، هذه حياة لا تطاق ينبغي أن أنتحر.



الفصل الثاني: الرجل الغريب الغامض

ولكنها لم تفكر في شيء بل كانت تبكي فحسب وعندما غطى الثلج الزغبى الناعم ظهرها ورأسها تماماً وغابت في نعاس ثقيل بسبب الإرهاق فرقع باب المدخل فجأة وتحشرج ولطمها في جنبها، فقفزت ومن الباب المفتوح خرج رجل ما، ينتمي إلى فريق الزبائن ولما كانت كاشتانكا قد عوت واصطدمت بقدمه فلم يكن من الممكن إلا أن تلفت انتباهه فانحنى عليها وسألها:

- من أين أنت أيتها الكلبة؟ هل أذيتك؟ آه يا مسكينة حسناً، لا تغضبي، لا تغضبي أنا آسف ونظرت كاشتانكا إلى الرجل الغريب من خلال ندف الثلج العالقة برموشها فرأت أمامها رجلاً قصيراً وبديناً، بوجه حليق مكتنز، وبقبعة أسطوانية ومعطف فراء مفتوح ومضى يقول وهو ينفض الثلج عن ظهرها بإصبعه:

- لماذا تعولين؟ أين سيدك؟ يبدو أنك فقدت؟ آه، يا للكلب المسكين وماذا سنفعل الآن؟.

وعندما أحست كاشتانكا في صوت الرجل الغريب بنبرة دافئة



قلبية، لعقت يده، وأعولت بصوت أكثر شكاية فقال الرجل الغريب:
ولكنك لطيفة، مضحكة كالشغب تماماً طيب، ما العمل، هيا معي
ربما تنفعين في شيء ما هيا، فويت.

ومصمص بشفتيه ولوح لكاشتانكا بذراعه بحركة لا يمكن إلا أن
تعنى شيئاً واحداً هيا فمضت كاشتانكا ولم يمر أكثر من نصف ساعة
حتى كانت جالسة على الأرض في غرفة كبيرة مضيئة، تنظر بتأثر
وفضول، وقد أمالت رأسها جانباً، إلى هذا الرجل الغريب، الذي كان
جالساً إلى الطاولة يتناول طعامه كان يأكل ويلقى إليها بقطع في
البداية أعطاها قطعة خبز وقشرة جبن خضراء، ثم قطعة لحم، ونصف
شطيرة، وعظام دجاج، فأكلت من الجوع كل ذلك بسرعة حتى إنها لم
تتمكن من معرفة طعمه وكلما أكلت أكثر ازداد إحساسها بالجوع.

وقال الغريب وهو يرى بأى نهم وحشى تزدرد القطع دون مضغ
ولكن أصحابك يطعمونك بصورة سيئة يا لك من نحيلة جلد على
عظم أكلت كاشتانكا كثيراً لكنها لم تشبع، بل ثملت فقط من الطعام
وبعد الأكل تمددت في وسط الغرفة ومدت قوائمها، وهزت ذيلها
وقد أحست بضعف لذيذ في جسدها كله وبينما كان سيدها الجديد
مضطجعاً في الفوتيل يدخن السيجار، مضت تهز ذيلها وتقرر
مسألة: أين الأفضل، عند الرجل الغريب أم عند صانع الأثاث؟ كان



الفرش عند الرجل الغريب فقيراً وقبيحاً فبخلاف الفوتيلات والكنبة والمصباح والسجاجيد لم يكن لديه شيء وبدت الغرفة خاوية أما لدى صانع الأثاث فالشقة كلها غاصة بالأشياء فليده طاولة، ونضد نجارة وكوم من النشارة، ومساحيق وأزاميل ومناشير وقفص به عصفور، وبرميل ولا تتبعث لدى الغريب أية روائح، أما لدى صانع الأثاث فالضباب يملأ دائماً شقته وتفوح رائحة رائعة من الصمغ وورنيش اللك والنشارة ولكن لدى الغريب ميزة مهمة للغاية، فهو يقدم طعاماً كثيراً، وهو ولإلنصاف، عندما كانت كاشتانكا جالسة أمام الطاولة تتطلع إليه بتأثر، لم يركلها مرة واحدة، ولم يدق بقدمه مرة ولم يصرخ: غورى من هنا يا ملعونة وبعد أن فرغ السيد الجديد من تدخين سيجارة خرج، ثم عاد بعد دقيقة ممسكاً في يده بفرشة. وقال وهو يضع الفرشة في الركن بجوار الكنية تعال هنا يا كلب ارقد هنا ونم ثم أطفأ المصباح وخرج وتمددت كاشتانكا على الفرشة وأغمضت عينيها وتناهى نباح من الشارع فأرادت أن ترد عليه، ولكن الحزن داهمها فجأة تذكرت لوقا ألكسندريتش وابنه فيدوشكا، ومكانها المريح تحت نضد النجارة وتذكرت أنه في أمسيات الشتاء الطويلة، عندما كان سيدها ينجر أو يقرأ الصحف بصوت مسموع، كان فيدوشكا يلعب معها عادة كان يسحبها من قائمتيها الخلفيتين



من تحت النضد ويصنع بها من الألاعيب ما يجعل عينيها تغيتمان ومفاصلها كلها تؤلمها كان يجعلها تسير على قائمتيها الخلفيتين، ويلعب بها لعبة الناقوس، أي يشدها بقوة من ذيلها فتصرخ لذلك وتنبج، ويدس في أنفها التبغ وكانت اللعبة التالية أشدها تعذيباً: كان فيدوشكا يربط قطعة لحم بخيط ويلقى بها إلى كاشتانكا، وبعد أن تبتلعها يسحب القطعة فيخرجها من معدتها وهو يقهقه عالياً وكلما توهجت الذكريات ازداد نحيب كاشتانكا ارتقاعاً ووحشة.

ولكن سرعان ما تغلب الإرهاق والدفع على الحزن وبدأت تنعس. وفي خيالها ركضت كلاب وركض بالمناسبة ذلك البودل العجوز الأشعث الذي رآته اليوم في الشارع، ذو السحابة على عينه وخصل الشعر حول أنفه وطارد فيدوشكا البودل بمعول في يده، وفجأة اكتسى هو بشعر أشعث، ونبح بمرح وظهر بجوار كاشتانكا وتشمم كل منهما أنف الآخر بمودة وركضا إلى الشارع.



الفصل الثالث: تعارف جديد سار جدا

عندما استيقظت كاشتانكا كان النور قد انتشر، وتناهى من الشارع ضجيج النهار المميز ولم يكن هناك أحد في الغرفة وتمطت كاشتانكا وتثاءبت وأخذت تطوف بالغرفة غاضبة متجهمة وتشممت الأركان والأثاث وأطلت في المدخل، فلم تجد أي شيء طريف وكان هناك باب آخر بخلاف الباب المفضي إلى المدخل وفكرت كاشتانكا قليلاً ثم مضت تخمشه بأظافر كفيها دفعة واحدة ففتحته، ودلفت إلى الغرفة التالية وهنا على السرير، كان الزبون، ذلك الرجل الغريب الذي رآته بالأمس نائماً وقد تغطى ببطانية.

هر ر ر، زمجرت، ثم تذكرت غداء الأمس فهزت ذيلها وبدأت تتشممه. تشممت ملابس الرجل الغريب وحذاءه، فوجدت أنه تفوح منها بشدة رائحة خيول وفي غرفة النوم أيضاً كان ثمة باب يفضي إلى مكان ما، وكان أيضاً مغلقاً وخمشت كاشتانكا هذا الباب، واتكأت عليه بصدرها ففتحته، وعلى الفور أحست برائحة غريبة جداً وتوقعت كاشتانكا لقاء غير سار فزمجرت وتلفتت وهي تدلف إلى



غرفة صغيرة، بورق جدران قذر، ثم تقهقرت مذعورة فقد رأت شيئاً غير متوقع ومخيفاً فنحوها مباشرة تقدم ذكر أوز رمادي وهو يفح، وقد أمال رأسه وعنقه إلى الأرض ونشر جناحيه وغير بعيد عنه تمدد قط أبيض على فرشاة وعندما رأى كاشتانكا قفز من مكانه، وقوس ظهره، ورفع ذيله ونفش شعره وفح هو الآخر وخافت الكلبة حقاً، ولكنها لم تشأ أن تفصح عن خوفها فنبحت بصوت عال وانقضت على القط وقوس القط ظهره أكثر وفح، وضرب كاشتانكا بكفه على رأسها وقفزت كاشتانكا مرتدة، وجلست على أكفها الأربع، ومدت بوزها نحو القط وانفجرت في نباح عال حاد وفي تلك الأثناء اقترب ذكر الأوز من الخلف، ونقرها بمنقاره في ظهرها بقوة فهبت كاشتانكا وانقضت على ذكر الأوز - ما هذا؟ - تردد صوت عال غاضب، ودخل الرجل الغريب إلى الغرفة مرتدياً روباً وبين أسنانه سيجار ما معنى هذا؟ الزم مكانك اقترب من القط، ولكزه في ظهره المقوس قائلاً:

- ما معنى هذا يا فيودور تيموفيتش؟ تشيرون شجاراً؟ يالك من محتال عجوزنم واستدار نحو ذكر الأوز وصاح: - إيفان إيفانيتش، الزم مكانك رقد القط بإذعان على فرشته وأغمض عينيه وبدأ من تعبير سحنه و شواربه أنه هو نفسه لم يكن راضياً عن احتداده واشترাকে في المشاجرة وعوت كاشتانكا بإحساس بالإهانة، أما ذكر الأوز فقد



مد عنقه وانطلق متحدثاً عن شيء ما بسرعة وحرارة ووضوح، ولكن بصورة غير مفهومة أبداً فقال رب الدار متثائباً: حسناً، حسناً ينبغي أن تعيشوا في سلام ومودة، وربت ظهر كاشتانكا واستطرد: أما أنت أيها الحمراء فلا تخافي هذه جماعة طيبة، لن تمسك بسوء ولكن مهلاً، كيف سنسميك؟ لا يليق أن تظلي بلا اسم يا أختاه.

وفكر الغريب قليلاً ثم قال: - اسمعي سيكون اسمك: خالة مفهوم؟ خالة وبعد أن كرر كلمة خالة عدة مرات خرج وجلست كاشتانكا وراحت تراقب الموقف كان القط جالساً على الفرشة بلا حراك، متظاهراً بالنوم ومضى ذكر الأوز يتحدث عن شيء ما بسرعة وحرارة، وهو يمد عنقه ويرأوح في مكانه.

ويبدو أنه كان ذكر أوز ذكياً جداً فبعد كل عبارة من عباراته الطويلة كان يتراجع إلى الخلف بدهشة، ويتظاهر أنه يعجب بكلامه وبعد أن استمعت كاشتانكا إليه وأجابته ب هررر أخذت تتشمم الأركان كان في أحد الأركان طست صغير رأت فيه حمضاً منقوعاً وكسرات مبلولة من خبز الجودار وتذوقت الحمص فلم تجده لذيذاً، وتذوقت الكسرات وبدأت تأكل ولم يغضب ذكر الأوز على الإطلاق من أن كلبة غريبة تأكل طعامه، بالعكس، تحدث بحرارة أكثر، ولكي يظهر لها ثقته، تقدم إلى الطست وأكل عدة حمصات.



الفصل الرابع :عجائب مذهلة

بعد فترة قصيرة عاد رب الدار حاملاً معه شيئاً غريباً يشبه البوابة أو حرف وتدلى من عارضة هذا الحرف الخشبي السيئ الصنع ناقوس وشد إليها مسدس ومن لسان الناقوس وحرك المسدس امتدت خيوط وضع الغريب حرف في وسط الغرفة، وأمضى وقتاً طويلاً في فك وربط أشياء ما، ثم نظر إلى ذكر الأوز وقال: - تفضل يا إيفان إيفانيتش؟ فاقترب منه ذكر الأوز ووقف في وضع ترقب فقال الغريب: حسناً فلنبداً من البداية قبل كل شيء يجب أن تحيي الجمهور وتتحني احتراماً بسرعة فمد إيفان إيفانيتش عنقه، وأوماً في جميع الجهات، وحك الأرض بساقه.

حسناً، شاطر والآن مت.

فرقد ذكر الأوز على ظهره ورفع ساقيه عالياً وبعد أن قام الغريب بعدة نمر تافهة كهذه، أمسك برأسه فجأة، راسماً على وجهه الرعب، وصاح: - النجدة حريق النار؟ فركض إيفان إيفانيتش نحو حرف، وأمسك بمنقاره الخيط وقرع الناقوس وأحس الغريب بالرضى تماماً



فمسح عنق ذكر الأوز وقال:

- شاطر يا إيفان إيفانيتش والآن تصور أنك مجوهراتي تباع الذهب والماسات وتصور الآن أنك ذهبت إلى متجر فوجدت فيه لصوصاً فكيف تتصرف في هذه الحالة؟

فأمسك ذكر الأوز في منقاره بخيط آخر وشده، فدوت على الفور طلقة تصم الآذان وأعجبت كاشتانكا جداً بالرنين، أما الطلقة فسلبت لبها حتى أنها دارت حول حرف ونبحت فصاح بها الرجل الغريب:

- يا خالة، الزمى مكانك صمتاً ولم ينته عمل إيفان إيفانيتش عند حد إطلاق النار. فقد ظل الرجل الغريب يديره حوله ساعة كاملة وقد ربطه إليه بحبل، وهو يفرقع بالسوط، وكان على ذكر الأوز أثناء ذلك أن يقفز فوق حاجز وعبر حلقة، ويشب على أطرافه، أي يقع على مؤخرته ويلوح بساقيه ولم تحول كاشتانكا نظرها عن إيفان إيفانيتش، وعوت من شدة الإعجاب، وركضت خلفه عدة مرات وهي تطلق نباحاً رنائاً. وبعد أن أرهق الغريب ذكر الأوز وأرهق نفسه، مسح العرق عن جبينه وصاح: - يا ماريا، هاتي خفرونيا إيفانوفنا إلى هنا وبعد لحظات تردد نخير فزمجرت كاشتانكا، واتخذت مظهر الشجاعة الفائقة، وتحوطاً للأمر، اقتربت أكثر من الرجل الغريب وفتح الباب، وأطلت امرأة عجوز، وقالت شيئاً ما، ثم دفعت إلى



الداخل بخنزيرة سوداء قبيحة للغاية ودون أن تعير الخنزيرة أي اهتمام لزمجرة كاشتانكا، رفعت نخرتها إلى أعلى ونخرت بصوت مرح يبدو أنها كانت مسرورة جداً برؤية سيدها والقط وإيفان إيفانيتشوعندما اقتربت من القط ودفعته بنخرتها برفق في بطنه، ثم تحدثت عن شيء ما مع ذكر الأوز، تجلى في حركاتها وصوتها وفي ارتعاش ذيلها الكثير من الطيبة وأدركت كاشتانكا على الفور أنه لا جدوى من النباح والزمجرة مع مخلوقات كهذه ونحي السيد حرف وصاح: - تفضل يا فيودور تيموفيتش فنهض القط، وتمطى بكسل، واقترب من الخنزيرة بلا رغبة كأنما يصنع معروفاً وقال السيد: - فلنبدأ بالهرم المصري ومضى يوضح شيئاً ما مدة طويلة، ثم أمر واحد اثنان ثلاثة ولدي سماع إيفان إيفانيتش كلمة ثلاثة خفق بجناحيه وقفز على ظهر الخنزيرة وعندما استقر على الظهر الأهلـب وهو يحفظ توازنه بجناحيه وعنقه، صعد فيودور تيموفيتش إلى ظهر الخنزيرة بترخ وكسل، وباستهتار واضح، وبدا كأنما يحتقر فنه ولا يكن له أدنى تقدير، ثم تسلق بلا رغبة ظهر ذكر الأوز ووقف على قائمته الخلفيتين وتكون ما سماه الرجل الغريب بالهرم المصري وعوت كاشتانكا من شدة الإعجاب، ولكن في تلك اللحظة تتأهب القط العجوز فاختل توازنه وسقط من فوق ظهر ذكر الأوز وترنح إيفان إيفانيتش وسقط هو الآخر وصرخ الرجل الغريب، ولوح بيديه،



وعاد يشرح شيئاً ما وبعد أن أنفق ساعة كاملة في نمرة الهرم، بدأ رب الدار الذي لا يكل في تعليم إيفان إيفانيتش كيف يمتطى صهوة القط، ثم بدأ في تعليم القط كيف يدخن وما إلى ذلك.

وانتهى التعليم بأن مسح الرجل الغريب العرق عن جبينه وخرج ونفخ فيودور تيموفيتش بأنفه في اشمئزاز، وورقد على الفرشة وأغمض عينيه، وتوجه إيفان إيفانيتش إلى الطست، أما الخنزيرة فساقتها المرأة العجوز وبفضل هذه الكثرة من الانطباعات الجديدة انقضى النهار بسرعة بالنسبة لكاشتانكا، وفي المساء أنزلت مع فرشتها في الغرفة ذات ورق الجدران القذر، وباتت في صحبة فيودور تيموفيتش وذكر الأوز.



الفصل الخامس : موهبة موهبة

ومر شهر وتعودت كاشتانكا على أنهم كل مساء يطعمونها عشاء لذيذاً وينادونها با الخالة وتعودت أيضاً على الرجل الغريب وعلى شركائها في المسكن ومضت الحياة في يسر وسهولة كانت الأيام كلها تبدأ بداية متشابهة وكان إيفان إيفانيتش يستيقظ عادة قبل الجميع، وعلى الفور يتوجه إلى الخالة أو إلى القط، ويلوى عنقه ويبدأ في الحديث عن شيء ما بحرارة ويقين، ولكن بصورة غير مفهومة كما في السابق.

وأحياناً كان يرفع رأسه ويلقي منولوجات طويلة وفي الأيام الأولى لتعارفهما ظنت كاشتانكا أنه يتحدث كثيراً لأنه ذكي جداً، ولكن ما إن مرت فترة قصيرة حتى فقدت كل احترام له وعندما كان يتوجه إليها بحديثه الطويل لم تعد تهز ذيلها، بل كانت تزدرية باعتباره ثرثاراً مملاً يزعج نوم الآخرين، ودون أدنى تكلفة كانت تجيبه بهرر ر .

أما فيودور تيموفيتش فكان سيداً من طراز آخر فعندما يستيقظ لا يصدر أي صوت، ولا يتحرك، بل حتى لم يكن يفتح عينيه ولو كان



بمستطاعه لما استيقظ، لأنه كما يبدو لم يكن يحب الحياة لم يكن ثمة ما يثير اهتمامه، وكان ينظر إلى كل شيء بتراخ واستخفاف ويحتقر كل شيء، وحتى حينما يتناول طعامه اللذيذ ينفخ بأنفه في اشمئزاز وكانت كاشتانكا عندما تستيقظ تبدأ في الطواف على الغرف وتشمم الأركان ولم يكن مسموحاً إلا لها وللقط فقط بالطواف في الشقة، أما ذكر الأوز فلم يكن يحق له أن يتخطى عتبة الغرفة ذات ورق الجدران القذر، بينما كانت خفرونيا إيفانوفنا تقطن حظيرة في مكان ما في الفناء ولا تظهر إلا فترة التدريب وكان السيد يستيقظ متأخراً، وما إن يشرب الشاي حتى يشرع على الفور في شعوزته وكل يوم يحمل إلى الغرفة حرف والسوط، والحلقات، وكل يوم تجرى نفس التدريبات تقريباً كان التدريب يستمر ثلاث أو أربع ساعات، حتى أن فيودور تيموفيتش كان يترنح أحياناً كالشمل من شدة الإرهاق، ويفتح إيفان إيفانيتش منقاره لاهتاً، أما السيد فيصبح أحمر الوجه ولا يتمكن أبداً من مسح العرق عن جبينه.

كان التدريب والطعام يجعلان أوقات النهار شيقة جداً، ولكن الأمسيات كانت تمضي في ملل وفي العادة كان رب الدار يرحل كل مساء الى مكان ما ويأخذ معه ذكر الأوز والقط وحينما تصبح الخالة وحدها ترقد على الفرشة ويتولاها الحزن كان الحزن يتسلل إليها



بصورة لا تلاحظ، ويشملها تدريجياً، كما تشمل العتمة الغرفة ويبدأ ذلك بأن تفقد الكلبة أية رغبة في النباح أو الأكل أو الركض في الغرف أو حتى التطلع، ثم تلوح في مخيلتها صورتان غير واضحتين لكلاب أو بشر، بوجهين لطيفين رقيقين ولكن غير مفهومين وعند ظهورهما تهز الخالة ذيلها، ويخيل إليها أنها رأتها في وقت ما وفي مكان ما وأحبتهما وعندما يداعبها النعاس كانت تشعر برائحة الصمغ ونشارة الخشب وورنيش اللك تفوح من هاتين الصورتين.

وعندما ألفت تماماً حياتها الجديدة وتحولت من كلبة نحيلة معروقة إلى كلبة شبعانة معتني بها، ربت السيد على ظهرها ذات مرة قبل بدء التدريب وقال:

آن الأوان يا خالة أن تزاولي عمل كفاك تسكعاً أريد أن أجعل منك فنانة أتردين أن تصبحي فنانة؟ وبدأ يعلمها شتى العلوم في الدرس الأول تعلمت كيف تقف وتمشي على قائمتيها الخلفيتين، الأمر الذي أعجبها للغاية وفي الدرس الثاني كان عليها أن تقفز على قائمتيها الخلفيتين وتخطف السكر الذي كان معلمها يمسك به عالياً فوق رأسها وفي الدروس التالية رقصت، ودارت وهي مربوطة بحبل، وعوت على أنغام الموسيقى، وقرعت الناقوس وأطلقت النار، وبعد شهر أصبح بوسعها أن تحل باقتدار محل فيودور تيموفيتش في الهرم



المصرية كانت تقبل على التعليم عن طيب خاطر، وأرضائها نجاحها أما الدوران بالحبل بلسان مدلى، والقفز عبر الحلقة، وامتناء صهوة فيودور تيموفيتش العجوز، فكان يجلب لها متعة عظيمة وكانت تصاحب كل نمرة ناجحة بنباح رنان حماسى، أما المعلم فيدهش، ويتولاه الحماس هو أيضاً فيفرك راحتيه قائلاً: - موهبة موهبة موهبة حقيقية بالتأكيد ستحظين بالنجاح.

وتعودت الخالة على كلمة موهبة حتى أنها كانت تقفز، كلما سمعت السيد يردد لها وتتلقت حولها، كأنما كانت هذه الكلمة اسمها.



الفصل السادس: ليلة مزعجة

رأت الخالة في المنام حلمًا كلابيًا، إذ طاردها البواب بمكنسة، فاستيقظت من الخوف.

كانت الغرفة مظلمة، ساكنة وخائفة جداً وكانت البراغيث تلدغولم يسبق للخالة أن شعرت بالخوف من الظلام ولكنها الآن أحست لسبب ما بالرعب وأرادت أن تتبجح وفي الغرفة المجاورة زفر رب الدار عالياً وبعد ذلك بقليل تخرت الخنزيرة في حظيرتها، ثم لف الصمت كل شيء عندما تفكر في الطعام تشعر في نفسك بالراحة، ومن ثم أخذت الخالة تفكر في أنها سرقت من فيودور تيموفيتش اليوم ورك دجاجة وخبأتها في غرفة الجلوس بين الصوان والحائط، حيث تتراكم خيوط عنكبوت وغبار كثير جداً ولا بأس لو مضت الآن لتتظر هل هذا الورك بخير أو لا؟ من المحتمل جداً أن يكون رب الدار قد عثر عليها وأكلها ولكنها، حسب القواعد، لا تستطيع الخروج من الغرفة قبل الصباح وأغمضت الخالة عينيها لتنعس بسرعة، إذ كانت تعرف بخبرتها أنه كلما أسرع في النوم أسرع الصباح بالمجيء



ولكن دوت فجأة بجوارها صرخة غريبة جعلتها تنتفض وتقفز واقفة على سيقانها الأربع كانت تلك صرخة إيفان إيفانيتش، ولم تكن صرخته ثرثرة ومقنعة كالعادة، بل رهيبة، ثاقبة غير طبيعية، تشبه صرير بوابة تفتح وعندما لم تميز الخالة أو تفقه شيئاً في الظلام، أحست بمزيد من الخوف فزمرجت: هرر رومر بعض الوقت، بقدر ما يكفي للعق عظمة طيبة.

ولم تتكرر الصرخة، وشيئاً فشيئاً هدأت الخالة وأدركها النعاس ورأت في المنام كلبين أسودين كبيرين بخصائل من شعر العام الماضي على أفخاذهما وأجنابهما كانا يأكلان بشراسة من برميل كبير فضلات طعام تصاعد منها بخار أبيض ورائحة لذيدة جداً وأحياناً يتطلعان إلى الخالة ويكشران عن أنيابهما ويزمجران: لن نعطيك شيئاً ولكن رجلاً ارتدي معطف فراء خرج من البيت ركضاً وطردهما بالسوط عندئذ ذهبت الخالة إلى البرميل وشرعت تأكل ولكن ما إن غاب الرجل وراء البوابة حتى انقض الكلبان الأسودان على الخالة وهما يزاران، وفجأة دوت من جديد الصرخة الثاقبة.

صرخ إيفان إيفانيتش: - كيككيكي

واستيقظت الخالة وقفزت واقفة، ودون أن تغادر الفرشة انفجرت في نباح معول أصبح يخيّل إليها أن من يصرخ ليس إيفان إيفانيتش بل



أحد آخر غريب ولسبب ما نخرت الخنزيرة مرة أخرى في الحظيرة. ولكن ها هي ذي تتردد خشخشة حذاء، ودلف السيد إلى الغرفة مرتدياً روباً وفى بده شمعة وتراقص النور المتذبذب على ورق الجدران القذر وعلى السقف وطرد الظلمة ورأت الخالة أنه لا يوجد أحد غريب في الغرفة كان إيفان إيفانيتش جالساً على الأرض، ولم يكن نائماً وكان جناحاه ممدودين ومنقاره مفتوحاً، وعموماً بدا كأنه متعب جداً ويريد أن يشرب ولم يكن فيودور تيموفيتش العجوز نائماً هو الآخر يبدو أن الصرخة أيقظته هو أيضاً وسأل السيد ذكر الأوز: - إيفان إيفانيتش، ماذا بك؟ لماذا تصرخ؟ هل أنت مريض؟ وصمت ذكر الأوز وتحسس السيد عنقه، وربت على ظهره وقال: - يا لك من غريب الأطوار لا تنام ولا تدع الآخرين ينامون.

وعندما خرج السيد وأخذ معه الضوء حل الظلام ثانية وأحست الخالة بالخوف ولم تصرخ ذكر الأوز، ولكن عاد يخيل إليها أن أحداً غريباً يقف في الظلام وكان أرفع شيء أنها لا تستطيع أن تعض هذا الغريب، لأنه لم يكن مرثياً وليس له شكل محدد ولسبب ما فكرت أنه في هذه الليلة حتماً سيحدث شيء ما سيئ جداً

وكان فيودور تيموفيتش هو الآخر قلقاً فقد سمعته الخالة يتقلب في مرقده ويتثائب وينفض رأسه.



وفي مكان ما في الخارج تردد طرق على بوابة، ونخرت الخنزيرة في الحظيرة وعوت الخالة، ومدت قائمتيها الأماميتين وأسندت إليهما رأسها وخيل إليها أن ثمة في الطرق على البوابة، وفي نخير الخنزيرة المستيقظة لسبب ما، وفي الظلام والسكون، شيئاً موحشاً ورهيباً كما في صرخة إيفان إيفانيتش كان كل شيء في اضطراب وقلق، ولكن ما السبب؟ ومن هو ذلك الغريب الذي لم يكن مرئياً؟ وها هي ذي تومض بجوار الخالة للحظة شرارتان خضراوان كابتان كانت تلك أول مرة يقترب منها فيودور تيمو فييتش طوال فترة تعارفهما ترى ماذا يريد؟ ولعقت الخالة كفه، ودون أن تسأله عن سبب مجيئه، أعولت بصوت خافت وبنغمات متنوعة وصرخ إيفان إيفانيتش: - كيكي كيكي كي؟ وفتح الباب مرة أخرى ودخل السيد بالشمعة كان ذكر الأوز جالساً في وضعه السابق بمنقار مفتوح وجناحين ممدودين وكانت عيناه مغمضتين.

وناداه السيد: - إيفان إيفانيتش.

فلم يتحرك ذكر الأوز وجلس السيد أمامه على الأرض، ونظر إليه دقيقة في صمت ثم قال: - يا إيفان إيفانيتش ماذا جرى لك؟ هل نويت أن تموت؟ - وصاح وأمسك رأسه بيديه - آه، الآن تذكرت، تذكرت عرفت السبب هذا لأن الحصان اليوم داسك يا إلهي، يا إلهي. لم تفهم الخالة ما قاله سيدها، ولكنها رأت في وجهه أنه يتوقع



شيئاً رهيباً فمدت بوزها نحو النافذة المظلمة التي خيل إليها أن شخصاً غريباً يطل منها، وأعولت وقال السيد وهو يشيح بيديه: - إنه يحتضر يا خالة نعم، نعم، يحتضر الموت جاء إلى غرفتكم، فما العمل؟ وعاد السيد الشاحب المنزعج إلى غرفة نومه وهو يتهد ويهز رأسه وأحست الخالة بالرعب من البقاء في الظلام، فتبعته وجلس على السرير وردد عدة مرات: - يا إلهي، ما العمل؟.

ودارت الخالة حول ساقيه وهي لا تفهم سر هذه الوحشة التي تحس بها، ولماذا يسيطر الانزعاج على الجميع، ولكي تفهم راحت تراقب كل حركة تصدر عنه أما فيودور تيموفيتش، الذي كان نادراً ما يغادر فرشته، فقد جاء هو الآخر إلى غرفة السيد، وأخذ يتمسح بقدميه وراح ينفذ رأسه، كأنما كان يريد أن ينفذ منها الأفكار المزعجة، ويتطلع تحت السرير بارتياح وتناول السيد طبقاً صغيراً وصب فيه ماء من صنبور المغسل، وذهب إلى ذكر الأوز مرة أخرى وقال برقة وهو يضع الطبق أمامه: - اشرب يا إيفان إيفانيتش اشرب يا عزيزي ولكن إيفان إيفانيتش لم يتحرك ولم يفتح عينيه وأحنى السيد رأس ذكر الأوز إلى الطبق ووضع منقاره في الماء ولكنه لم يشرب، بل بسط جناحيه أكثر، وبقي رأسه في الطبق فتهد السيد قائلاً: - كلا لم يعد من الممكن عمل شيء كل شيء انتهى هلك إيفان إيفانيتش؟.



وانحدرت على خديه قطرات براقه كتلك التي تسيل على النوافذ
أثناء المطر. والتصقت الخالة وفيودور تيموفيتش بسيدهما وهما لا
يفهمان شيئاً، وتطلعا إلى ذكر الأوز برعب وقال السيد وهو يتنهد بأسى:
- مسكين يا إيفان إيفانيتش كنت أحلم بأن آخذك في الربيع إلى
الدار الريفية وأتجول معك على العشب الأخضر.

أيها الحيوان العزيز، يا رفيقي الطيب، لقد فقدتك كيف سأعمل
الآن بدونك؟ وخيل للخالة أنه سيحدث لها نفس الشيء، أي أنها هي
أيضاً ستغمض عينيها هكذا، لسبب غير معروف، وتمد قوائمها،
وتكشر عن أنيابها، وسوف ينظر إليها الجميع برعب.

ويبدو أن مثل هذه الأفكار جالت بخاطر فيودور تيموفيتش أيضاً
ولم يسبق أن كان القط العجوز مكفهرًا ومرعوبًا كما هو الآن.

وبدأ الفجر يلوح، ولم يعد موجوداً في الغرفة ذلك الغريب الذي
أرعب الخالة إلى تلك الدرجة وعندما طلع الفجر تماماً جاء الباب
فرفع ذكر الأوز من ساقيه وحمله إلى مكان ما وبعده بقليل جاءت
العجوز فحملت الطست.

وذهبت الخالة إلى غرفة الجلوس وأطلت وراء الصوان:

لم يأكل السيد ورك الدجاجة، وكانت في مكانها وسط الغبار



وخيوط العنكبوت ولكن الخالة كانت تشعر بالوحشة والحزن وبرغبة
في البكاء ودخلت تحت الكنبه حتى دون أن تشم الورك، وأخذت تعول
هناك بصوت خافت رفيع: - عو عو.



الفصل السابع: بداية غير موفقة

ذات مساء دلف السيد إلى الغرفة ذات ورق الجدران القذر وقال وهو يفرك يديه حسناً كان يريد أن يقول شيئاً آخر ولكنه لم يقل وخرج وخمنت الخالة، التي درست جيداً وجهه ونبراته أثناء التدريبات، أنه منفعل ومهموم، بل على ما يبدو، غاضب وعاد بعد قليل وقال: - اليوم سأخذ معي الخالة وفيودور تيموفيتش أنت يا خالة ستحلين اليوم محل المرحوم إيفان إيفانيتش في الهرم المصري الشيطان يعلم ما هذا لم نستعد أبداً، ولم نحفظ شيئاً، والتدريبات كانت قليلة سننفضح ونفسل ثمخرج مرة أخرى وعاد بعد دقيقة في معطف الفراء والقبعة الأسطوانية واقترب من القط فرفعه من ساقية الأماميتين وخبأه في صدره تحت المعطف، بينما بدا فيودور تيموفيتش غير مبالي أبداً، وحتى لم يكلف نفسه عناء فتح عينيه والظاهر أنه كان يستوي عنده تماماً سواء رقد أو رفع من ساقيه، أو تمدد على الفرشة، أو استقر على صدر سيده تحت المعطف وقال السيد: - يا خالة، هيا بنا .

وسارت الخالة خلفه وهي لا تفهم شيئاً وتهز ذيلها وبعد دقيقة



كانت جالسة في الزحافة عند قدمي سيدها تصغي إلى دمدمة وهو ينكمش من البرد والقلق: - سنفتضح ستفشل.

توقفت الزحافة أمام بيت كبير غريب، يشبه قصعة حساء مقلوبة وكان المدخل الطويل لهذا المنزل، ذو الأبواب الزجاجية الثلاثة، مضاء بدسته مصابيح قوية وكانت الأبواب تفتح برنين، وكالأشداق تبتلع الناس الذين كانوا يتزاحمون عند المدخل كان الناس كثيرين جداً، والخيول أيضاً كثيراً ما كانت تقف راکضة إلى المدخل، ولكن لم يبد أثر للكلاب.

وحمل السيد الخالة على يديه ودسها في صدره تحت المعطف حيث كان فيودور تيموفيتش وكان المكان هنا مظلماً خائفاً ولكنه دافئ وللحظة توهجت شرارتان خضراوان كابتان، إذ فتح القط عينيه وقد أزعجته أكف جارته الباردة الصلبة ولعقت الخالة أذنه، وأرادت أن تتخذ وضعاً مريحاً فتحركت بقلق وداسته تحتها بأكفها الباردة، وأطلت برأسها عفواً من فتحة المعطف، ولكنها زمجرت على الفور بغضب وغاصت تحت المعطف وخيل إليها أنها رأت غرفة ضخمة، سيئة الإضاءة، مليئة بالكائنات الخرافية المخيفة ومن وراء الحواجز والشباك التي امتدت على جانبي الغرفة أطلت سحن رهيبة:

سحن خيول، وسحن بقرون، وبآذان طويلة، وسحنة ضخمة سمينية



بذيل في مكان الأنف، وبعضمتين طويلتين معروقتين تبرزان من فمها .
وماء القط بصوت أبج تحت أكف الخالة، ولكن المعطف انفتح في
تلك اللحظة، وقال السيد هوب فقفز فيودور تيموفيتش والخالة إلى
الأرض كانوا الآن في غرفة صغيرة بجدران رمادية من ألواح الخشب
ولم يكن هنا، بخلاف طاولة صغيرة بمرآة ومقعد بلا ظهر، وخرق
معلقة في الأركان، أي أثاث آخر، وبدلاً من المصباح أو الشمعة توهج
نور ساطع على شكل مروحة كان موضوعاً في أنبوب مدقوق في
الحائط ولحق فيودور تيموفيتش فروته التي جعلتها الخالة، ومضى
فرقد تحت المقعد وبدأ السيد يخلع ملابسه وهو لا يزال مضطرباً
يفرك يديه خلع ملابسه كما يفعل عادة في البيت عندما يستعد للنوم
تحت البطانية الخفيفة، أي نزع عنه كل شيء عدا الملابس الداخلية،
ثم جلس على المقعد، وراح يصنع بنفسه أشياء عجيبة وهو يتطلع
إلى المرأة قبل كل شيء وضع على رأسه باروكة بمفرق وقصتين
تشبهان القرنين، ثم طلى وجهه بطبقة كثيفة من مادة بيضاء، ورسم
فوق الطلاء الأبيض حاجبين وشوارب ووجنتين حمراوين ولم تنته
أفعاله عند هذا الحد فبعد أن لوث وجهه وعنقه بدأ يرتدي حلة غير
عادية لا يمكن مقارنتها بشيء، حلة لم ترها الخالة من قبل أبداً لا
فيالبيوت ولا في الشوارع تصوروا مثلاً سروالاً واسعاً للغاية محاها



من قماش الشيت المنقوش بالأزهار، من ذلك النوع المستخدم في بيوت صغار البرجوازيين للمستائر وتتجيد الأثاث، سرواليزرر عند الأبطين تماماً وإحدى ساقى السروال محاكاة من شيت بنى والأخرى من شيت أصفر فاقع وغرق السيد في هذا السروال، ثم ارتدي أيضاً سترة من الشيت بياقة كبيرة مسننة ونجمة ذهبية على الظهر، وجوراً مختلف الألوان وحذاء أخضر.

ومن كثرة الألوان زاغ بصر الخالة وقلبها وانبعثت من هذا الجسد المترهل الأبيض الوجه رائحة السيد، وكان صوته أيضاً مألوفاً، صوت السيد، ولكن الشكوك كانت تعذب الخالة أحياناً، وعندئذ كانت على استعداد لأن تهرب بعيداً عن هذا الجسد المزركش وتتبع فالمكان الجديد، والنور المروحي، والرائحة، والتحول الذي طرأ على السيد كل ذلك بعث في نفسها خوفاً مبهماً وإحساساً بأنها سوف تقابل حتماً شيئاً مربعاً، مثل تلك السحنة السمينية ذات الذيل في مكان الأنف وعلاوة على ذلك فقد دوت الموسيقى الكريهة في مكان ما بعيداً خلف الجدار، وتناهى أحياناً زئير غير مفهوم شيء واحد فقط هدأ من روعها: برود فيودور تيموفيتشفقد كان نائماً في هدوء تحت المقعد، ولم يفتح عينيه حتى عندما كانوا يزحزون المقعد.

وأطل في الغرفة شخص ما يرتدي حلة الفراخ وصديراً أبيض



وقال: - الآن نمرة ميس أراييللا، وأنتم بعدها فلم يرد السيد بشيء وأخرج من تحت الطاولة حقيبة غير كبيرة، وجلس، وراح ينتظر وكان واضحاً من شفثيه ويديه أنه منفعل، وسمعت الخالة تهدج أنفاسه وصاح أحد ما وراء الباب: - مسيو جورج، تفضل؟.

ونفض السيد، ورسم علامة الصليب ثلاث مرات، ثم أخرج القط من تحتالمقعد ودسه في الحقيبة وقال بصوت خافت: - هيا يا خالة واقتربت الخالة من يديه وهي لا تفهم شيئاً، فقبلها في رأسها ووضعتها بجوار فيودور تيموفيتش ثم حل الظلام وداست الخالة على القط، وخدشت جدران الحقيبة ولم تستطع من الرعب أن تتفوه بصوت، بينما كانت الحقيبة تتأرجح كأنها فوق موج وترتعش وصاح السيد بصوت عال: - أنا هنا أنا هنا؟.

وشعرت الخالة بعد هذه الصيحة بالحقيبة تصطدم بشيء صلب وتكف عن التأرجح وتردد زئير عال غليظ، وربت أحدهم على شخص ما، فزأر هذا الشخص، الذي كان في الغالب تلك السحنة ذات الذيل في مكان الأنف، وقهقه بصوت عال حتى أن أقفال الحقيبة ارتعشت ورد السيد على الزئير بضحك رفيع ثاقب، لم يضحك مثله أبداً في البيت وصاح محاولاً أن يطغى على الزئير: حضرة الجمهور المحترم أنا وصلت حالاً من المحطة جدتي ماتت في داهية وتركت لى ميراثاً



في الحقيبة شيء ثقيل يبدو أنه ذهبها ها ربما فيها مليون سنفتحها الآن ونرى وفرقع قفل الحقيبة وتسלט ضوء ساطع على عيني الخالة، فقفزت من الحقيبة وتراكضت حول سيدها بكل ما في وسعها من سرعة، وقد أصمها الزئير، وانفجرت في نباح رنان.

فصاح السيد: - ها خالى فيودور تيموفيفيتش خالتي العزيزة أقربائي الأعزاء، فلتخطفكم الأبالسة وارتمتى على بطنه فوق الرمل، وأمسك بالقط والخالة وراح يحضنهما وبينما كان السيد يعصر الخالة في أحضانه نظرت هي بطرف عينها إلى ذلك العالم الذي ألقاها فيه القدر، وأذهلتها ضخامته، فتسمرت لحظة من الدهشة والإعجاب، ثم أفلتت من أحضان سيدها، ودارت كالخذروف في مكانها من قوة الانطباع كان العالم الجديد كبيراً ومليئاً بالأضواء الساطعة وأينما نظرت بدت في كل مكان، من الأرض حتى السقف، وجوه، ووجوه فقط، ولا شيء آخر.

وصاح السيد: - يا خالة، اجلسي أرجوك.

ولما كانت الخالة تذكر ما معنى هذا فقد قفزت على الكرسي وجلست ونظرت إلى سيدها كانت نظرة عينيه جادة ورقيقة كالعادة، ولكن وجهه، خاصة فمه وأسنانه، كانت تشوهها ابتسامة واسعة جامدة أما هو نفسه فكان يقهقه ويقفز ويهز كتفيه، ويتظاهر بأنه مسرور



للغاية في حضرة آلاف الوجوه وصدقت الخالة سروره، وفجأة أحست بكل كيائها أن آلاف الوجوه هذه تحقق فيها، فرفعت بوزها الثعلبي إلى أعلى وعوت بمرح فقال لها السيد: - اجلسي أنت يا خالة أما أنا وخالي فسنرقص كما رينسكي كان فيودور تيموفيتش واقفا وهو يتطلع حوله بلا اكتراث، في انتظار اللحظة التي سيجبرونه فيها على القيام بأشياء حمقاء ورقص بفتور، وباستهتار وعبوس، وبدا واضحاً من حركاته، ومن ذيله وشواربه، أنه يحتقر إلى حد بعيد هذا الجمهور، والضوء الساطع، وسيدة، ونفسه وبعد أن أدى دوره تتأهب وجلس.

وقال السيد - طيب يا خالة في البداية سنغنى معاً، وبعد ذلك سنرقص حسناً؟ وأخرج من جيبه مزمراً وعزف عليه وتلملمت الخالة، التي لم تكن تطيق الموسيقى، على الكرسي بقلق وعوت وتناهي الزئير والتصفيق من كل مكان فانحنى السيد محيياً، وبعد أن سكن كل شيء استأنف العزف وأثناء عزفه نوتة عالية جداً ندت عن أحد المتفرجين في أعلى الصالة آهة عالية وصاح صوت طفولي: - بابا هذه كاشتانكا؟ فأكد صوت تينوره ثمل مرتعش:

- بالضبط كاشتانكا كاشتانكا يا فيدوشكا فليعاقبني الله إن لم تكن كاشتانكا فويت وصفر أحد ما في أعلى الصالة، وصاح صوتان عاليان، أحدهما طفولي والآخر لرجل: كاشتانكا كاشتانكا؟.



وانتفضت الخالة ونظرت إلى الموضع الذي تردد منه الصياح كان هناك وجهان، أحدهما أشعر، ثمل، ضاحك باستهزاء، وآخر مكتنز أحمر الخدين ومذعور تسلطاً على عيني الخالة كما تسلط الضوء الساطع من قبل فتذكرت، وسقطت من الكرسي وتقلبت على الرمل، ثم قفزت واقفة واندفعت نحو هذين الوجهين وهى تعوى بفرح ودوى زئير يصم الآذان تخلله الصفير وصيحة طفل ثاقبة: - كاشتانكا كاشتانكا وقفزت الخالة عبر الحاجز، ثم فوق كتف ما، وأصبحت في المقصورة ولكي تبلغ الطابق التالي كان عليها أن تقفز من فوق جدار مرتفع وقفزت الخالة ولكنها لم تصل فانزلقت عن الجدار إلى أسفل ثم انتقلت بعد ذلك من يد إلى يد، وهى تعلق أيدي ورؤوس أشخاص ما، وتقدمت صاعدة أعلى فأعلى، حتى وصلت أخيراً إلى أعلى الصالة.

بعد نصف ساعة كانت كاشتانكا تسير في الشارع خلف شخصين تفوح منهما رائحة الصمغ وورنيش اللك وكان لوقا ألكسندريتش يترنج، ويحاول غريزياً، وقد علمته الخبرة، أن يسير بعيداً عن خندق الطريق. ومضى يدمدم: - في رحم الذنوب السحيق أتمرغ أما أنت يا كاشتانكا فأمرك عجب أنت، بالمقارنة مع الإنسان، مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الأثاث وبجوارهما سار فيدوشكا مرتدياً عمرة



أبيه ونظرت كاشتانكا إلى ظهريهما وخيل إليها أنها تسير خلفهما منذ زمن بعيد وتشعر بالفرحة لأن حياتها لم تتوقف لحظة واحدة. وتذكرت الغرفة ذات ورق الجدران القذر، وذكر الأوز، وفيودور تيموفيتش، والطعام اللذيذ، والتدريب، والسيرك، ولكن ذلك كله بدالها الآن كحلم طويل مشوش مرهق.



القبلة

في 20 مايو، وفي الساعة الثامنة مساء توقفت جميع البطاريات الست من لواء س المدفعية الاحتياطي، التي كانت متجهة إلى المعسكر، للمبيت في قرية ميستيتشكيوفي أوار الهرج، عندما كان بعض الضباط يروحون ويجيئون قرب المدافع، بينما كان البعض الآخر، وقد تجمعوا في الميدان قرب سور الكنيسة، يستمعون إلى تقارير مسئولى الإيواء، ظهر من وراء الكنيسة فارس في زى مدنى وعلى متن حصان غريب كان حصاناً كميئاً، صغيراً، بعنق جميل وذيل قصير، ولم يكن يسير في خط مستقيم، بل منحرف، ويأتى بحركات قصيرة راقصة بقوائمه، كأنما كان أحد ما يضره بالسوط عليها وعندما اقترب الفارس من الضباط رفع قبعته وقال: صاحب السعادة اللفتانت جنرال فون رابيك، الإقطاعي المحلي، يدعوا لسلامة الضباط للحضور إليه حالاً لتناول الشاي وانحنى الحصان، ورقص، وتراجع بجانبه إلى الخلف، ورفع الفارس قبعته مرة أخرى، وبعد لحظة كان قد اختفى مع حصانه الغريب وراء الكنيسة.

ودمدم بعض الضباط بتذمر وهم ينصرفون إلى مساكنهم



الشیطان یعلم ما هذا نرید أن ننام، بینما یأتینا هذا الفون رابیک بشایه ما الداعی؟ وأی شای الآن.

وتذكر ضباط البطاريات الست على الفور حادث العام الماضي، عندما وجهت إليهم الدعوة أثناء المناورات، هم وضباط أحد ألوية القوزاق، بمثل هذه الطريقة، لتناول الشاي عند إقطاعي كونت، عسكري سابق واستقبلهم الكونت المضيف البشوش برققة، وأطعمهم وسقاهم، ولم يدعهم يذهبون إلى القرية للنوم بل استبقاهم للمبيت في داره وكان كل هذا بالطبع حسناً، بل وليس هناك أفضل من ذلك، ولكن المصيبة أن فرحة العسكري المتقاعد بالضباط الشبان فاقت كل الحدود فظل حتى الفجر يروي للضباط مشاهد من ماضيه الطيب، وطاف بهم على الغرف وهو يعرض عليهم لوحاته الثمينة والرسوم القديمة والأسلحة النادرة، وقرأ لهم رسائل خطية من شخصيات كبيرة، أما الضباط المعذبون المنهكون فكانوا يستمعون إليه وينظرون إلى معروضاته وهم يتحرقون شوقاً إلى الأسرة، ويخفون بحذر تناؤباتهم في أكمامهم وعندما أطلق المضيف سراحهم أخيراً لم يكن هناك وقت للنوم.

تري أیكون هذا الفون رابیک مثله؟ وسواء كان مثله أم لم یکن، فلیس ثمة حيلة بدل الضباط ملابسهم، ورتبوا هندامهم، وانطلقوا



جميعاً يبحثون عن دار الإقطاعيوفي الميدان أمام الكنيسة قيل لهم إنه يمكن الذهاب إلى دار السادة من الأسفل أن يهبطوا من خلف الكنيسة إلى النهر ويسيروا على الشاطئ حتى يبلغوا بستان الدار، وهناك ستقودهم دروبها إلى حيث يريدون أو أن يذهبوا من أعلى من الكنيسة مباشرة، على الطريق الذي يفضي بعد نصف فرسخ من القرية إلى مخازن السادة مباشرة وقرر الضباط أن يتبعوا الطريق العلوي وتساءلوا أثناء الطريق: من هو فون رايك هذا؟ أليس هو الذي كان يقود فرقة الخيالة سقرب بليفيا؟

كلا، لم يكن فون رايك، بل راي، وبدون فون ما أروع الطقس وتفرع الطريق عند أول مخزن من مخازن السادة، فاتجه فرع منه إلى الأمام مباشرة حيث اختفى في ظلام المساء، بينما انعطفت الفرع الثاني إلى اليمين نحو منزل السادة ومضى الضباط يميناً وراحوا يتحدثون بصوت خافتوعلى جانبي الطريق امتدت مخازن حجرية بأسقف حمراء، وكانت جبهة ثقيلة، تشبه كثيراً ثكنات مدينة ريفية وفي الأمام لاحت أضواء نوافذ بيت السادة وقال أحد الضباط: يا سادة هذا فال حسن إن كلب صيدنا يسير في مقدمة الجميع، إذن فهو يشم رائحة فريسة.

سار الملازم لوبيتكو في المقدمة، وكان طويلاً وممتلئ الجسم،



ولكنه بلا شوارب على الإطلاق كان قد جاوز الخامسة والعشرين، ولكن لسبب ما لم ينبت في وجهه المستدير الشبان أي شعر وكان مشهوراً في اللواء بحدسه وقدرته على التكهّن بوجود نساء عن بعد فاستدار قائلاً: نعم، هنا ينبغي أن توجد نساء إنني أدرك ذلك بغريزتي واستقبل الضباط عند عتبة الدار فونراييك نفسه، وهو شيخ بهى، في حوالي الستين، في حلة مدنية وقال وهو يصافح الضيوف إنه مسرور جداً وسعيد، ولكنه يرجو السادة الضباط بشدة ويستحلفهم بالله أن يعذروه على عدم دعوته لهم للمبيت فقد حضرت إليه شقيقته وأبناؤهما وإخوته وجيرانه، بحيث لم تبق لديه غرفة واحدة خالية.

صافح الجنرال أيدي الجميع وهو يرجو المَعذرة ويبتسم، ولكن بدا على وجهه أنه لم يكن أبداً مسروراً إلى هذا الحد بهؤلاء الضيوف، مثلما كان ذلك الكونت في العام الماضي، وأنه لم يدع إليه الضباط إلا لأن اللياقة، حسب رأيه، تقتضي ذلك وأدرك الضباط أنفسهم، وهم يصعدون الدرج اللين ويصفون إلى الكونت أنهم لم يدعوا إلى هذا البيت إلا لأن عدم دعوتهم أمر محرج، وعندما رأوا الخدم يسارعون إلى إشعال المصابيح عند المدخل في الأسفل، وفي البهو في الأعلى، خيل إليهم أنهم حملوا معهم إلى هذا البيت الإزعاج والقلق فهل يمكن



أن يكون وجود تسعة عشر ضابطاً غرباء أمراً محبباً في مكان اجتمع فيه، ربما لمناسبة عائلية أو لاحتفال ما، شقيقتان مع أبنائهما وأخوة وجيران؟ وفي الأعلى، عند مدخل القاعة، استقبلت الضيوف عجوز طويلة ممشوقة ذات وجه طويل وحاجبين أسودين، شديدة الشبه بالإمبراطورة أوجين قالت وهي تبتسم بترحاب ومهابة إنها مسرورة وسعيدة برؤية الضيوف في بيتها، واعتذرت لعدم تمكنها هي وزوجها في هذه المرة من دعوة السادة الضباط للمبيت وبدا من ابتسامتها الجميلة المهيبة، التي كانت تختفي من وجهها على الفور كلما حولته عن الضيوف لأمر ما، أنها رأت في حياتها الطويلة كثيراً من السادة الضباط، وأنها في شغل عنهم الآن، وإذا كانت قد دعتهم إلى دارها ومضت تعتذر لهم، فإنما تفعل ذلك فقط لأن ترتيبها ووضعها في المجتمع يقتضيان هذا.

وفي غرفة الطعام الكبيرة التي دلف إليها الضباط، جلس إلى أحد جانبي مائدة طويلة حوالي عشرة رجال ونساء كبار وشبان، يشربون الشاي ومن خلف مقاعدهم بدت مجموعة من الرجال تغلفهم سحب دخان السيجار الخفيفة وفي وسطهم وقف شاب نحيل بسالفين صغيرين أحمرين يتحدث عن شيء ما بصوت عال وبالإنجليزية وهو يلشغ ومن خلف المجموعة بدت من خلال الباب غرفة مضيئة بأثاث



أزرق وقال الجنرال بصوت عال محاولاً أن يبدو مرحاً جداً: أيها السادة، إنكم من الكثرة بحيث يستحيل تقديمكم فلتتعارفوا بأنفسكم يا سادة، دون تكلفة وانحنى الضباط محيين كيفما كان، بعضهم بوجوه جادة للغاية، بل وحتى صارمة، والبعض الآخر بابتسامات متكلفة، وهم يشعرون جميعاً بالحرج الشديد، وجلسوا لتناول الشاي.

كان أكثر الجميع شعوراً بالحرج النقيب ريبوفتش، وهو ضابط صغير الجسم، محنى القامة، يضع نظارة، وذو سؤالف كسؤالف الوشق وبينما كان بعض زملائه يكسبون وجوههم ملامح الجد، والبعض الآخر يتكلف الابتسام، كان وجهه هو، وسؤالفه الوشقية ونظارته، كأنما تقول: أنا أكثر ضباط اللواء كله خجلاً وتواضعاً، وأقلهم تميزاً وفي اللحظات الأولى، عندما دخل غرفة الطعام، ثم بعد ذلك، وهو جالس يتناول الشاي، لم يستطع أبداً أن يركز انتباهه على وجه واحد أو شيء واحد فقد امتزجت الوجوه والملابس وأباريق الكونياك المضلعة، والبخار المتصاعد من أكواب الشاي، والسلال الخزفية، امتزج ذلك كله في انطباع واحد هائل ألقى في قلب ريبوفتش بالجزع والرغبة في إخفاء رأسه وكالممثل الذي يواجه الجمهور لأول مرة، كان يرى كل شيء أمام عينيه، إلا أن ما رآه كان عسير الفهم تسمى هذه الحالة لدى الفسيولوجيين بالعمى السيكلوجي



وذلك عندما يرى الشخص ولا يفهم ما يراه ولكن بعد مضي بعض الوقت تأقلم ريبوفتش فعاد إليه بصره وراح يراقب وكان أول ما أثار انتباهه، كشخص خجول منطو ذلك الشيء الذي كان يفتقده دائماً، أي تلك الجرأة الفائقة للمعارف الجدد إذ أن فون رايبك، وزوجته، والسيدتين الكبيرتين، وتلك الفتاة ذات الثوب البنفسجي، والشاب ذا السوالم الحمراء، الذي اتضح أنه الابن الأصغر لرايبك، قد توزعوا بين الضباط ببراعة شديدة وكأنما تدربوا على ذلك من قبل، وعلى الفور أثاروا نقاشاً حامياً لم يكن بوسع الضيوف إلا أن يشاركوا فيه وراحت الفتاة البنفسجية تؤكد بحرارة أن حياة رجال المدفعية أسهل بكثير من حياة الخيالة أو المشاة، أما رايبك والسيدتان الكبيرتان فكانوا يؤكدون العكس وبدأ حديث متقاطع ونظر ريبوفتش إلى الفتاة البنفسجية التي كانت تجادل بحرارة في أمر غريب عنها وغير مثير لاهتمامها أبداً، وراقب كيف كانت الابتسامات غير الصادقة تظهر على وجهها ثم تختفي.

وجذب فون رايبك وأسرته الضباط إلى الجدل بمهارة، بينما مضوا في نفس الوقت يراقبون بيقظة أكواب الضباط وأفواههم، وهل يشربون جميعاً، وهل شايعهم حلوا، ولماذا لا يتناول الضابط الفلاني البسكويت أو لا يشرب الكونياك وكلما أطال ريبوفتش النظر



وأصاخ السمع ازداد إعجابه بهذه الأسرة التي وإن كانت غير صادقة المشاعر إلا أنها رائعة الانضباط وبعد الفراغ من تناول الشاي اتجه الضباط إلى الصالة ولم يخب حدس الملازم لوبيتكوف فقد كان في الصالة كثير من السيدات والنساء الشابات وكان الملازم - كلب الصيد واقفاً بالفعل بجوار شقراء شابة جدا ترتدي فستاناً أسود، وقد انحنى بجسارة كأنما كان يعتمد على سيف غير مرئي، وهو يبتسم ويلعب كتفيه بدلال كان في الغالب يقول هراء ما طريفاً للغاية، لأن الشقراء كانت تنظر تسامح إلى وجهه الشبعان وتتساءل بلا اكتراث: حقاً؟ ولو كان كلب الصيد ذكياً لما توقع من هذه الحمقاء اللامبالية أن يقولوا له: خذها ودوت أنغام المعزف وانطلق فالس حزين من الصالة عبر النوافذ المفتوحة، ولسبب ما تذكر الجميع أن الربيع الآن وراء النوافذ، وأن الليلة أمسية من شهر مايو وأحس الجميع في الجو برائحة أوراق الحور الشابة والورود والبنفسج أما ريبوفتش الذي أفصح فيه الكونياك المشروب عن نفسه تحت تأثير الموسيقى، فقد حول بصره إلى النافذة وابتسم، ثم راح يتابع حركات النساء، وبدا له الآن أن رائحة الورود والحور والبنفسج لا تنبعث من البستان بل من وجوه النساء وفساتينهن.

ودعا ابن رايبك فتاة ما نحيلة إلى الرقص ودار معها دورتين أما



لوبييتكو فقد هرول، وهو ينزلق على الباركيه، إلى الفتاة البنفسجية وحلق معها في الصالة وبدأ الرقص ووقف ربابوفتش بجوار الباب وسط جمهور غير الراقصين وأخذ يراقب لم يرقص في حياته كلها مرة واحدة، ولم يتسن له في حياته كلها أن يحتضن خصر سيدة محترمة كان يعجبه جداً أن يمسك الشخص بخصر فتاة لا يعرفها على مرأى من الجميع ويقدم لها كتفه لتضع عليها يدها، إلا أنه لم يستطع أبداً أن يتصور نفسه في مكان هذا الشخص وفي وقت ما كان يحسد شجاعة زملائه وشطارتهم ويحز ذلك في نفسه.

وكان إدراكه بأنه خجول، محنى القامة وباهت، وأنه طويل الخصر ووشقي السوالف يترك في نفسه إحساسا عميقا بالمهانة، ولكن بمضي الزمن أصبح هذا الإحساس مألوفاً، ولم يعد الآن، وهو ينظر إلى الراقصين أو المتحدثين بصوت عال، يشعر بالحسد، بل بإعجاب حزين وعندما بدأت رقصة الكادريل اقترب ابن فون رابيك الشاب من غير الراقصين ودعا اثنين من الضباط إلى لعب البلياردو ووافق الضابطان وخرجا معه من الصالة ولما لم يكن لدي ربابوفتش ما يفعله، وبدافع الرغبة في المشاركة بأي شيء في الحركة العامة، فقد مضى في أثرهم خرجوا من الصالة إلى غرفة الاستقبال، ثم إلى ممر زجاجي ضيق، ومنها دلفوا إلى غرفة، حيث قفز لدى ظهورهم



ثلاثة من الخدم الناعسين من على الكنبه بسرعة وأخيراً، وبعد عبور عدد كبير من الغرف، دخل رابيك الشاب والضباط غرفة غير كبيرة، امتدت فيها طاولة البلياردو وبدأ اللعب.

وقف ريبوفتش، الذي لم يمارس في حياته أية لعبة سوى الورق، بجوار الطاولة وراح ينظر بلا اكتراث إلى اللاعبين، أما هم فكانوا يدورون، بسترات مفكوكة الأزرار وبالعصي في أيديهم، وهم يتبادلون القفشات ويصبحون بكلمات غير مفهومة لم يلحظه أحد من اللاعبين، وأحياناً فقط، عندما كان أحدهم يضربه بكوعه أو تشتبك عصاه به عفواً، يستدير إليه ويقول pardon وقبل أن ينتهي الدور الأول كان قد أحس بالملل، وبدأ يتخيل أنه زائد على الحاجة ويعوقهم وراودته رغبة في العودة إلى الصالة فخرج وفي طريق العودة تعرض لمغامرة صغيرة فقد انتبه في وسط الطريق إلى أنه يسير إلى غير الجهة التي يقصدها فقد كان يذكر جيداً أنه ينبغي أن يقابل.



اللعوب

شهد زفاف أولجا إيفانوفنا كل أصدقائها ومعارفها الطيبين.

- انظروا إليه، أليس صحيحاً أن فيه شيئاً ما؟ - قالت لأصدقائها وهي تومئ إلى زوجها وكأنما تريد أن توضح لهم لماذا تزوجت هذا الرجل البسيط والعادي للغاية والذي ليس فيه أي شيء مميز وكان زوجها أوسيب ستيبانتش ضيموف طبيباً يحمل لقب المستشار الاعتراري وكان يعمل في مستشفىين، في إحداهما طبيباً ممارساً منتدباً، وفي الآخر طبيب مشرحة وكان يستقبل المرضى ويعمل في العنبر يومياً من التاسعة صباحاً حتى منتصف النهار، وبعد الظهر يتوجه بالعربة إلى المستشفى الآخر حيث يشرح من يتوفى من المرضى وكان دخله من الممارسة الخاصة ضئيلاً، لا يتعدى خمسمائة روبل في العام وهذا كل ما هنالك فما الذي يمكن أن نضيفه عنه؟ بينما كانت أولجا إيفانوفنا وأصدقائها و معارفها الطيبون أناساً غير عاديين أبداً كان كل منهم يتميز بشيء ما، ومعروفاً قليلاً، وله اسمه وشهرته، أو إذا لم يكن بعد مشهوراً فقد كان يبشر بآمال رائعة كان هناك ممثل من مسرح الدراما، موهبة كبيرة، معترف بها



منذ زمن ورجل رشيق، ذكي ومتواضع وأستاذ ممتاز في الإلقاء كان يعلم أولجا إيفانوفنا فن الإلقاء ومغني أوبرا ورجل بدين طيب، كان يؤكد لأولجا إيفانوفنا متنها أنها تقضى على نفسها، فلو لم تترك إلى الكسل، وحزمت أمرها لأصبحت مغنية رائعة وكان هناك أيضاً عدد من المصورين وعلى رأسهم ريبوفسكى مصور المواضيع والحيوانات والمناظر شاب أشقر، جميل جداً في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، حقق نجاحاً في المعارض وباع لوحته الأخيرة بخمسمائة روبل كان يصحح لأولجا إيفانوفنا رسوماتها ويقول إنها ربما بلغت شيئاً ما وكان هناك أيضاً عازف الفيولنسلو الذي كانت آلتة تنتحب، والذي اعترف صراحة بأنه من بين جميع من يعرفهن من النساء لا توجد من تستطيع مصاحبته في العزف سوى أولجا إيفانوفنا وكان هناك أديب، شاب ولكنه معروف، يكتب الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة ثم من أيضاً؟ نعم، كان هناك فاسيليتش، السيد الإقطاعي، المصور الهاوي والمزخرف، الذي كان يجيد تذوق الأسلوب الروسي القديم والروايات الشعبية والملاحم وكان يصنع المعجزات على الورق والخزف والأطباق المدخنة ووسط هذه الجماعة الأرستقراطية الحرة التي دلها القدر، وإن كانت مهذبة ومتواضعة، هذه الجماعة التي لم تكن تتذكر وجود أطباء ما إلا ساعة المرض، والتي كان اسم ضيموف لا يثير اهتمامها تماماً كأسماء مثل سيدروف أو ساراتوف



وسط هذه الجماعة كان ضيموف يبدو غريباً ونشازاً وصغيراً، رغم أنه كان طويل القامة عريض المنكبين وبدا كأنه يرتدي حلة ليست له، وأن له لحية خولى وعموماً فلو أنه كان كاتباً أو مصوراً لقالوا إنचितه تذكر بالأديب زولا.

وكان الممثل يقول لأولجا إيفانوفنا إنها بشعرها الكتاني وفي ثوب الزفاف تشبه إلى حد كبير شجرة كرز رشيقة عندما تغطيها الأزهار البيضاء الرقيقة تماماً في الربيع.

وقالت له أولجا إيفانوفنا وهي تقبض على يده: كلا، بل اسمع كيف أمكن أن يحدث ذلك فجأة؟ اسمع، اسمع ينبغي أن أقول لك إن أبي كان يعمل مع ضيموف في مستشفى واحد وعندما مرض أبي المسكين ظل ضيموف مرابطاً إلى جوار سريريه ليل نهار أوه، باللتفاني أسمع يا ريبابوفسكى وأنت يا حضرة الأديب اسمع، فهذا طريف جداً اقترب منا باللتفاني والمشاركة المخلصة أنا أيضاً لم أنم الليالي جالسة بجوار أبي، وفجأة أهلاً، انتصرت على الفارس الشجاعغرق ضيموف في حبي حتى أذنيه حقاً ما أغرب تصارييف القدر حسناً، بعد وفاة والدي كان يزورني أحياناً ويلقاني في الشارع، وذات مساء رائع، هوب طلب يدى وكان لذلك وقع الصاعقة على قضيت الليل كله في النحيب ووجدت نفسي أحبه بجنون وها قد أصبحت كما ترون



زوجة أليس صحيحاً أن فيه شيئاً ما قوياً، هائلاً، شيئاً من الدبية؟ إن وجهه الآن لا يبدو لنا من هنا كاملاً، والإضاءة ضعيفة، ولكن عندما يلتفت انظروا إلى جبينه ماذا تقول في هذا الجبين يا ريبوفسكى؟ وصاحت بزوجها - يا ضيموف، إننا نتحدث عنك تعال هنا مد يدك الشريفة إلى ريبوفسكى نعم هكذا فلتكونا صديقين.

ومد ضيموف يده إلى ريبوفسكى وهو يبتسم ببشاشة وسذاجة وقال:
- سعيد جداً لقد تخرج معي شخص يدعى ريبوفسكى، أليس قريبك؟

كانت أولجا إيفانوفنا في الثانية والعشرين من عمرها بينما كان ضيموف في الحادية والثلاثين وعاشا بعد الزفاف حياة رائعة وغطت أولجا إيفانوفنا جدران غرفة الجلوس كلها برسوماتها ورسومات الآخرين، في أطر وبدون أطر، وصنعت بجوار البيانو والأثاث ازدحاماً جميلاً من المظلات الصينية والحوامل والخرق الملونة والخناجر والتماثيل النصفية والصور وغطت جدران غرفة الطعام برسومات اللوب وعلقت على الجدران أحذية اللابتى والمناجل، ووضعت في أحد الأركان محصدة ومجرفة، فأصبحت غرفة طعام على الطراز الروسي أما غرفة النوم فأرادت أن تجعلها تشبه الكهف فكست السقف والجدران بقماش داكن، وعلقت فوق الأسرة مصباحاً من طراز مصابيح البندقية ووضعت بجوار الباب تمثالاً يحمل رمحاً



برأس بلطة وقال الجميع إن لدى الزوجين الشابين ركناً لطيفاً.

وعندما تنهض أولجا إيفانوفنا من الفراش كل صباح في الساعة الحادية عشرة تلعب على البيانو، أو إذا كان النهار مشمساً، ترسم شيئاً ما بألوان الزيت ثم ترحل بعد الثانية عشرة إلى خياطتها ولما كانت نقودها هي وضميموف قليلة وتكفي بالكاد فقد لجأت هي وخياطتها إلى الحيلة لكي تبدو كثيراً في أزياء جديدة وتبهر الناس بفساتينها وكثيراً جداً ما كان يخرج من الفستان القديم المعاد صبغه ومن قطع الدانتلا والقטיפيعة والحريير التي لا قيمة لها معجزات حقيقية، شيء ما خلاب، ليس فستاناً بل حلماً ومن الخياطة كانت أولجا إيفانوفنا تتوجه عادة إلى إحدى معارفها من الممثلات لتعرف أخبار المسرح وبالمناسبة تدبر أمر بطاقة لأول عرض لمسرحية جديدة أو بنفيس ومن الممثلة كان عليها أن تذهب إلى مرسوم مصور أو إلى معرض صور، ثم إلى أحد المشهورين لتدعوه لزيارتهم أو لترد الزيارة أو لمجرد الثرثرة وفي كل مكان كانوا يستقبلونها بمرح ومودة ويؤكدون لها أنها جميلة ورقيقة ونادرة وأولئك الذين كانت تسميهم بالمشهورين أو العظام كانوا يستقبلونها كواحدة منهم، على قدم المساواة، ويتبأون لها في صوت واحد بأنها بمواهبها وذوقها وذكاؤها يمكن أن تصبح ذات شأن كبير إذا لم تبعثر قواها لقد كانت



تغني وتعزف على البيانو وترسم بالألوان وتشكل الصلصال وتشارك في تمثيليات الهواة، ولكنها لم تكن تفعل ذلك كيفما كان، بل بموهبة وسواء أكانت تصنع أحذية فلاحية قديمة كانت تصنع من لحاء الشجر أو المصاييح للزينات، أم تتزين، أم تعقد ربطة العنق لشخص ما فقد كان كل شيء يخرج من بين يديها بفن ورشاقة ولطف لا مثيل له ولكن موهبتها لم تتجل في أي شيء بمثل هذا السطوع كما تجلت في قدرتها على التعارف بسرعة والتقرب من مشاهير الناس فما إن يشتهر شخص ما ولو قليلاً، وما إن يجعل الناس تتحدث عنه حتى تتعرف به على الفور وتتصادق معه في نفس اليوم وتدعوه لزيارتها وكان كل تعارف جديد عيداً حقيقياً بالنسبة لها كانت تعبد المشاهير وتفخر بهم وتراهم كل ليلة في الحلم كانت متعطشة إليهم ولم تستطع أبداً أن تروى ظمأها كان القدامى يرحلون أو يطويهم النسيان، ويأتي محلهم آخرون جدد، ولكنها كانت تعتاد عليهم بسرعة أو يخيب أملها فيهم فتبدأ في البحث بنهم عن الجديد والجديد من المشاهير فتجدهم، ثم تعود تبحث ثانية لأي شيء؟.

وبعد الرابعة كانت تتغدى في البيت مع زوجها كانت بساطته وتفكيره الراجح وطيبة قلبه تثير تأثرها وإعجابها فكانت من حين لآخر تهب واقفة وتعانق رأسه بتأثر وتغمره بالقبلات كانت تقول له:



- أنت يا ضيموف إنسان ذكي، نبيل ولكن فيك عيباً واحداً خطيراً جداً أنت لا تهتم أبداً بالفن أنت تنكر الموسيقى والتصوير.

فيقول باستكانة: - أنا لا أفهمهما لقد اشتغلت طوال حياتي بالعلوم الطبيعية والطب ولم يكن لدي وقت للاهتمام بالفنون ولكن هذا فظيع يا ضيموف.

- لماذا؟ إن معارفك لا يعرفون العلوم الطبيعية والطب، ولكنك لا تعيبن عليهم ذلك لكل شخص ما يخصه أنا لا أفهم المناظر أو الأوبرات، ولكني أفكر هكذا: إذا كان بعض الناس الأذكاء يكرسون لها حياتهم كلها، وبعض الناس الأذكاء الآخرين يدفعون مقابلها مبالغ ضخمة، إذن فهي ضرورية إنني لا أفهمها ولكن عدم الفهم لا يعني الإنكار.

دعني أشد على يدك الشريفة وبعد الغداء كانت أولجا إيفانوفنا تذهب إلى معارفها، ثم إلى المسرح أو إلى حفلة موسيقية، وتعود إلى البيت بعد منتصف الليل هكذا كل يوم وفي أيام الأربعاء كانت تقيم حفلات وفي هذه الحفلات لم تكن ربة البيت أو الضيوف يلعبون الورق أو يرقصون، بل يسرون عن أنفسهم بشتى الألوان الفنية فكان فنان مسرح الدراما يلقي، والمغني يغني، والمصورون يرسمون في الألبومات التي كانت أولجا إيفانوفنا تحتفظ بعدد ضخم منها،



وعازف الفيولنثلو يعزف، أما ربة الدار فكانت أيضاً ترسم وتشكل الصلصال وتغنى وتصاحب العازفين والمغنين.

وفي فترات الراحة ما بين الإلقاء والعزف والغناء كانوا يتحدثون ويتناقشون في الأدب والمسرح والتصوير ولم تكن هناك نساء، لأن أولجا إيفانوفنا كانت تعتبر جميع النساء، ما عدا الممثلات وخياطتها مملات ومبتذلات ولم تكن حفلة تمر دون أن تنتفض ربة الدار لدى كل قرع الجرس الباب، ودون أن تقول بتعبير انتصار على وجهها: هذا هو وهي تعنى بهو شخصية شهيرة جديدة دعته إلى الحفلة لم يكن ضيموف يبقى في غرفة الاستقبال، ولم يكن أحد يتذكر غيابه ولكن في الحادية عشرة والنصف تماماً كان الباب المفضي إلى غرفة الطعام يفتح، ويظهر ضيموف بابتسامته البشوش المستكينة ويقول وهو يفرك راحتيه:

- تفضلوا إلى المائدة يا سادة فيسير الجميع إلى غرفة الطعام ويرون في كل مرة نفس الأشياء على المائدة: طبق أم الخلول، وقطعة من الخنزير أو العجل، وسردين وجبن وكافيار وفطر وفودكا ودورقان من النبيذ.

وتقول أولجا إيفانوفنا وهي تشيح بيديها من الإعجاب: - آه يا متردوتيلي العزيز أنت ساحر انظروا يا سادة إلى جبينه ضيموف،



استدر إلينا بجانب وجهك انظروا يا سادة: وجه نمر بنغالي، بينما التعبير طيب ورقيق كأنه لغزال أوه يا حبيبي ويأكل الضيوف وهم يتطلعون إلى ضيموف ويفكرون: بالفعل، إنه شاب رائع، ولكنهم سرعان ما ينسونه، ويواصلون الحديث عن المسرح والموسيقى والتصوير.

كان الزوجان الشابان سعيدين، وسارت حياتهما كأروع ما يكون ولكن الأسبوع الثالث من شهر العسل لم يمض في سعادة تامة، بل مضي في حزن، فقد مرض ضيموف بعدوى الحمرة ولزم الفراش ستة أيام، واضطر أن يحلق تماماً شعره الأسود الجميل وجلست أولجا إيفانوفنا إلى جواره وبكت بحرقة، ولكن عندما تحسنت حالته قليلاً، وضعت على رأسه الحليق منديلاً أبيض، وراحت ترسم عنه صورة بدوى وشعر كلاهما بالمرح وبعد ثلاثة أيام من شفائه وتردده ثانية على المستشفى وقع له حادث جديد.

إنني سيئ الحظ يا ماما قال ذات مرة على الغداء - كان لدى أربع عمليات تشريح اليوم فجرحت أصبعين دفعة واحدة ولم ألاحظ ذلك إلا في المنزل.

وخافت أولجا إيفانوفنا فابتسم وقال إن هذا شيء تافه وإنه كثيراً ما يجرح أصابعه أثناء التشريح إنني أنهمك في التشريح يا ماما فأصبح شاردًا وراحت أولجا إيفانوفنا تتوقع عدوى الجثة بقلق



وتصلى لله في الليل، ولكن كل شيء مر على ما يرام ومن جديد سارت حياتهما هادئة سعيدة بلا أحزان أو هموم كان الحاضر رائعاً، واقترب الربيع ليحل محله وهو يبتسم من بعيد ويبشر بألف فرحة ولن تكون للسعادة نهاية سينقضي أبريل ومايو ويونيو في البيت الريفي البعيد عن المدينة، وفي التريض والرسم وصيد السمك وسماع غناء البلابل، وبعد ذلك، ومن يوليو حتى الخريف ستكون رحلة للمصورين في نهر الفولجا وفي هذه الرحلة سوف تشارك أولجا إيفانوفنا باعتبارها عضواً أساسياً في السوسيتي وقد أعدت لنفسها بالفعل ثوبى سفر من الخيش، وابتاعت ألواناً وفرشاً وقماش رسم ولوحة ألوان جديدة وأصبح ريبوفسكى يتردد عليها كل يوم تقريباً لكي يرى مدى التقدم الذي أحرزته في التصوير وعندما كانت تعرض عليه رسوماتها، كان يدفع يديه عميقاً في جيبى سرواله، ويضم شفثيه بقوة ويشن بأنفه ثم يقول: - هكذا هذه السحابة عندك تصرخ ليست مضاءة بضوء الغروب المنظر الأمامي ممضوغ قليلاً، وليس بالشكل المطلوب يعنى أما المنزل فقد ضغط عليه شيء ما وهو لذلك يعول متوجعاً هذا الركن ينبغي رسمه بصورة أدكن قليلاً وعموماً فلا بأس أثنى عليك.

وكلما ازدادت كلماته غموضاً، سهل على أولجا إيفانوفنا أن



تفهمه في اليوم التالي لعيد العنصرة بعد الغداء اشترى ضيموف مزات وحلوى ورحل إلى زوجته في البيت الريفي لم يكن قد رآها منذ أسبوعين واشتاق إليها كثيراً وعندما كان جالساً في عربة القطار، وبعد ذلك عندما كان يبحث عن داره في الغيضة الكبيرة، كان يشعر دائماً بالجوع والتعب ويحلم بالعشاء مع زوجته في حرية ثم بالخلود إلى النوم وأحس بالمرح وهو ينظر إلى اللفة التي يحملها وبها الكافيار والجبن والسّمك الأبيض.

وعندما وجد داره وتعرف عليها كانت الشمس تميل نحو المغيب وقالت الخادم العجوز إن السيدة ليست في الدار ومن المفروض أن تعود قريباً لم يكن منظر الدار جذاباً أبداً كان بها ثلاث غرف فقط، وأسقفها منخفضة ومغطاة بورق أبيض وأرضيتها مشققة وغير مستوية وكان في إحدى الغرف سرير، وفي الثانية تراكمت الفرش وقماش الرسم والأوراق المشحمة والمعاطف والقبعات الرجالية على الكراسي وفي الغرفة الثالثة وجد ضيموف ثلاثة رجال لا يعرفهم كان اثنان منهم أسودى الشعر وبلحى صغيرة، أما الثالث فكان حليقاً تماماً وبديناً، ويبدو أنه ممثل وعلى المائدة كان السماور يغليوسأل الممثل ضيموف بصوت غليظ وهو يتفحصه بنظرة غير ودودماذا تريد؟ هل تريد أولجا إيفانوفنا؟ انتظر، سوف تأتي قريباً وجلس



ضيموف وراح ينتظر وتطلع إليه أحد الرجلين الأسودى الشعر بكسل
وتراخ وسأله وهو يصب لنفسه شاياً:

- ربما تريد شاياً؟

كان ضيموف يريد أن يشرب وأن يأكل، ولكنه امتنع عن تناول
الشاى لكيلا يفسد شهيته وسرعان ما تردد وقع خطوات وتناهي
الضحك المألوف واصطفق الباب واندفعت أولجا إيفانوفنا إلى
داخل الغرفة وهي ترتدي قبعة عريضة الحواف وتحمل في يدها
صندوقاً، ودخل وراءها ريبوفسكى مرحاً، أحمر الوجه يحمل مظلة
كبيرة وكرسياً مطوياً وصاحت أولجا إيفانوفنا وتضرجت من الفرحة:
ضيموف ضيموف رددت وهي تضع يديها ورأسها على صدره - أهو
أنت لماذا لم تأت طوال هذه المدة؟ لماذا؟ لماذا؟.

- متى أستطيع يا ماما؟ إنى مشغول دائماً، وعندما أفرغ قليلاً
أجد مواعيد القطارات غير مناسبة دائماً أوه كم أنا مسرورة برؤياك
حلمت بك طوال الليل، وخفت أن تمرض آه لو تعرف كم أنت غال
وكم جئت في الوقت المناسب ستكون مخلصى أنت الوحيد الذي
يستطيع أن ينقذنى ومضت تقول وهي تضحك وتربط لزوجها ربطة
العنق ستقام هنا حفلة زفاف طريفة للغاية سيتزوج عامل البرق في
المحطة، المدعو تشيكيلدييف وهو شاب جميل، ليس غيباً، وفي



وجهه، أتدرى شيء ما قوى، شيء من الدببة يمكن أن ترسم منه شاباً من النورمانديين ونحن المصطافين جميعاً نشاركه الفرحة وأعطيناه كلمة شرف أن نشهد العرس إنه شخص غير ثرى ووحيد وخجول، وحرام بالطبع ألا نشاركه فرحته تصور، الزفاف بعد الصلاة مباشرة، ثم سيتوجه الجميع من الكنيسة سيراً على الأقدام إلى شقة العروس أتفهم الغيضة، وصدح الطيور، وبقع الشمس على العشب، ونحن جميعاً نسير كالبقع الملونة على خلفية خضراء زاهية شيء طريف للغاية، حسب ذوق الانطباعيين الفرنسيين - ثم سألت وأكسبت وجهها تعبيراً باكياً ولكن يا ضيموف ماذا أرتدي للكنيسة؟ ليس لدى شيء هنا، ليس لدي شيء إطلاقاً لا فساتين ولا أزهار، ولا قفازات عليك أن تتقذني إذا كنت قد جئت فإن القدر قد أرسلك لتتقذني خذ يا عزيزي المفتاح وارحل إلى المنزل وخذ من الصوان فستاني الوردي أنت تذكره، إنه أول فستان على المشجب وفي غرفة المخزن ستري إلى اليمين على الأرض علبتين من الكرتون تفتح العلبة العليا فتجدها مليئة بالدانتلا وقطع القماش المختلفة، وتحتها الأزهار أخرج الأزهار كلها بحذر، وحاول يا روبي ألا تجعدها، وسوف أختار منها واشتر قفازاً.

فقال ضيموف: حسنا، سأرحل غداً وأرسلها لكفتساءلت أولجا



إيفانوفنا وهي تنتظر إليه بدهشة: متى غداً؟ متى تلحق غداً؟ غدا يمضى أول قطار في التاسعة، والزفاف في الحادية عشرة كلا يا عزيزى، بل اليوم، لا بد اليوم إذا لم يكن في وسعك أن تأتي غداً أرسلها مع رسول حسناً، أذهب إذن سيأتي القطار الآن لا تتأخر يا روجي. حسناً.

فقالت أولجا إيفانوفنا والدموع تترقق في عينيها: - آه، كم يحزنني أن ترحل يا لى من حمقاء لماذا وعدت عامل البرق؟ وشرب ضيموف كوباً من الشاي بسرعة، وأخذ سميطة، وابتسم باستكانة، ثم اتجه إلى المحطة أما الكافيار والجبن والسمك الأبيض فقد أكله صاحبها الشعر الأسود والممثل.

في ليلة هادئة مقمرة من ليالي يوليو وقفت أولجا إيفانوفنا على ظهر مركب من مراكب الفولجا ومضت تنتظر تارة إلى المياه وتارة إلى الشواطئ الجميلة ووقف ريبوفسكى إلى جوارها وهو يقول لها إن الظلال السوداء في الماء ليست ظلالاً، بل حلماً، وإنه عند رؤية هذه المياه الساحرة ذات البريق الخيالي، وعند رؤية السماء اللانهائية والشواطئ الحزينة المتأمللة التي تتحدث عن باطل حياتنا وعن وجود شيء ما سام وخالد، ومقدس، يجدر بالمرء أن يندثر، أن يموت، أن يصبح ذكرى فالماضي مبتذل وليس طريفاً، والمستقبل تافه، أما



هذه الليلة الرائعة، الليلة الوحيدة في العمر كله فسرعان ما تنتهي وتتحد بالخلود فلماذا العيش؟.

وكانت أولجا إيفانوفنا تصغي تارة لحديث ريبوفسكى وتارة لسكون الليل وهي تفكر في أنها خالدة ولن تموت أبداً وحدثها لون المياه الفيروزي، الذي لم تره من قبل أبداً، والسماء، والشيطان والظلال السوداء والفرحة الغامرة التي ملأت روحها بأنها ستصبح مصورة عظيمة، وأنه هناك في مكان ما، وراء الأفق، وخلف الليلة المقمرة، في الفضاء اللامتناهى، ينتظرها النجاشة والشهرة وحب الشعب وعندما حدقت طويلاً في الأفق وهي لا تطرف خيل إليها أنها ترى جموع الشعب والأضواء وأنغام الموسيقى المهيبة، وصيحات الإعجاب، وكانت هي نفسها في رداء أبيض، بينما انهالت عليها الأزهار من جميع الجهات وجال بخاطرها أيضاً أنه يقف إلى جوارها مرتكزاً على الحاجز إنسان عظيم حقيقة، عبقرى، من الذين اختارهم الله كل ما أبدعه حتى الآن رائع وجديد وغير عادى، وكل ما سوف يبدعه في المستقبل، عندما يشهد عوده وتترسخ موهبته الفريدة، سيكون باهراً وسامياً إلى ما لا نهاية، وهذا واضح من وجهه وطريقة تعبيره ومن نظرتة إلى الطبيعة فهو يتحدث عن الظلال، وألوان المساء وبريق القمر بطريقة خاصة، وبكلماته هو، بحيث تشعر لا إرادياً



بسحر سلطانه على الطبيعة أما هو نفسه فجميل جداً، وفريد،
وحياته حرة، مستقلة، بعيدة عن أمور المعيشة وتشبه حياة طائر.

وقالت أولجا إيفانوفنا: الجو مال إلى البرودة وانتفضت ودثرها
ريابوفسكى بردائه وقال بحزن: إنني أشعر أنني تحت سيطرتك إنني
عبد لم أنت باهرة هكذا اليوم؟.

كان يحرق فيها طوال الوقت دون أن يحول عنها عينيه وكانت عيناه
رعبتين فخافت أن تتطلع فيهما وهمس وهو يزفر أنفاسه على خدها:
فقال أولجا إيفانوفنا وهي تغمض عينيها: وخفق قلب أولجا إيفانوفنا
أرادت أن تفكر في زوجها لكن ماضيها كله، أن تدفعه عنها بوهن:

نعم، يا لها من ليلة همست وهي تتطلع إلى عينيه الברاقنتين
بالدموع، ثم الانسانزائل ونسبى وأحمق، وما كان ينبغي أن يربط
نفسه بهذه المرأة وباختصار كان متضايقاً ومكتئباً وكانت أولجا
إيفانوفنا جالسة على السرير خلف الحاجز وهي تقلب بأصابعها
شعرها الكتاني الرائع، وتتخيل نفسها تارة في غرفة الجلوس،
وتارة في غرفة النوم، وتارة في غرفة مكتب زوجها وحملها الخيال
إلى المسرح، وإلى خياطتها، وإلى أصدقائها المشهورين ترى ماذا
يفعلون الآن؟ هل يتذكرونها؟ لقد بدأ الموسم، وآن الأوان للتفكير في



الحفلات وضيوف؟ ضيوف العزيز كم يرحوها باستكانة وشكاية طفل في رسائل أن تعود بسرعة وكان يرسل إليها كل شهر 70 روبلاً، وعندما كتبت إليه تقول إنها مدينة للمصورين بمائة روبل أرسل إليها هذه المائة أيضاً يا له من إنسان طيب، سمح لقد أرهقت الرحلة أولجا إيفانوفنا، وشعرت بالملل، وأحست بالرغبة في أن تترك بسرعة هؤلاء الرجال ورائحة الرطوبة النهرية، وأن تتطهر من إحساسها بالقذارة الجسدية، هذا الإحساس الذي تملكها وهي تعيش طوال الوقت في بيوت الفلاحين وتنتقل من قرية إلى قرية ولولا أن ريبوفسكى وعد المصورين بشرفة أن يبقى معهم حتى العشرين من سبتمبر لكان من الممكن أن ترحل اليوم وكم كان ذلك جميلاً وأن ريبوفسكى: - يا إلهى متى ستشرق الشمس؟ لا أستطيع أن أكمل منظراً مشمساً بدون الشمس فقالت أولجا إيفانوفنا خارجة من وراء الحاجز:

لديك مشهد بسماء غائمة أتذكر، في الجانب الأيمن غابة وفي الأيسر قطيع بقر وأوز تستطيع الآن أن تكمله فامتعض المصور وقال: - إيه؟ أكمله أحقاً تظنين أنني من الغباء بحيث لا أعرف ما الذي ينبغي على عمله فزفرت أولجا إيفانوفنا قائلة: كم تبدل شعورك نحوى فليكن، رائع وارتعش وجه أولجا إيفانوفنا، فاتجهت



نحو الفرن و أجهشت بالبكاء - لم يكن ينقصنا سوى الدموع كفاك
إن لدى ألف سبب للبكاء ولكنني لا أبكى فقالت أولجا إيفانوفنا وهي
تجهش: - ألف سبب أهم سبب أنك بدأت تضيق بينعم قالت ثم
انفجرت بالنحيب - إذا شئت الحقيقة فأنت تخجل من حبنا أنت
تحاول دائماً ألا يلحظ المصورون، رغم أن ذلك لا يمكن إخفاؤه، وهم
يعرفون كل شيء من زمان فقال المصور بضراعة وهو يضع يده على
قلبه: - أولجا، أرجو منك شيئاً واحداً شيئاً واحداً: لا تعذبيني أنا لا
أريد منك أكثر من ذلك.

- أقسم إنك ما زلت تحبني فقال المصور من بين أسنانه وهو
يقفز: - يا للعذاب سينتهى الأمر بأن ألقي بنفسي في الفولجا أو
أفقد عقلي؟ دعيني.

- اقتلني، اقتلني اقتل .

وعادت إلى العويل ثانية ومضت خلف الحاجز ونقر المطر على سقف
المنزل الريفي القش وأمسك ريبوفسكى برأسه وسار من ركن إلى ركن،
ثم اكتسى وجهه ملامح الحزم وكأنه يريد أن يثبت شيئاً ما لأحد ما،
وارتدى القبعة ووضع بندقية الصيد على كتفه وخرج من المنزل.

وبعد خروجه ظلت أولجا إيفانوفنا مستلقية على السرير طويلاً



وهي تبكي وفي البداية فكرت في أنه من المستحسن أن تتناول سماً لكي يعود ربابوفسكي فيجدها ميتة، ثم حملها الخيال إلى غرفة الجلوس، وغرفة مكتب زوجها، وتصورت نفسها جالسة إلى جوار ضيموف دون حراك، وهي تستمتع بالسكينة والنظافة الجسدية، وفي المساء جالسة في المسرح تصغى إلى مازيني وعصر قلبها الشوق إلى التحضر وصخب المدينة والشخصيات الشهيرة ودلفت فلاحاً إلى المنزل وراحت تشعل الفرن على مهل لتجهز الغداء وانتشرت رائحة الحريق وأصبح الهواء أزرق من الدخان وجاء المصورون ينتعلون أحذية طويلة قدرة ووجوههم مبللة بالمطر، وشاهدوا الرسوم وقالوا عزاء لأنفسهم إن للفولجا سحره حتى في الجو السيئ أما ساعة الحائط الرخيصة فمضت تتك تك تك وتجمع الذباب المفرور في الركن الأمامي بجوار الأيقونات وهو يئز، وتناهى صوت الصراخ وهي تعبت في المحافظ السميكة تحت الأرائك عاد ربابوفسكي إلى البيت عند الغروب وألقى قبعته على الطاولة وتهالك على الأريكة شاحباً، منهكاً وفي حذاء قدز، وأغمض عينيه.

- أنا متعب قال وهو يحرك حاجبيه محاولاً أن يفتح جفنيه ولكي تقترب أولجا إيفانوفنا إليه وتبدي له أنها ليست غاضبة منه، اقتربت وقلبتة في صمت، ومرت بالمشط في شعره الأشقر فقد أرادت أن تمشطه.



فانتفض ربا بوفسكى وكأن شيئاً بارداً قد مسه، وسأل وهو يفتح عينيه: - ما هذا ما هذا؟ دعيني لحالي، أرجوك وأبعدها عنه بيديه، وتنحى قليلاً، وخيل إليها أن تعابير وجهه تنم عن التقزز والأسى وفي تلك اللحظة دخلت الفلاحة حاملة في يديها طبقاً من حساء الكرنب، ورأت أولجا إيفانوفنا أصابع الفلاحة الكبيرة وهي مغموسة في الحساء وبدت لها هذه المرأة القذرة المحزومة البطن، والحساء الذي أخذ ربا بوفسكى يلتهمه بشراهة، والبيت، وكل هذه الحياة التي أحببتها كثيراً في البداية لبساطتها وفوضاها الفنية، بدت لها الآن فظيعة وفجأة أحست بالإهانة فقالت ببرود: نبغي أن نفرق لبعض الوقت، وإلا فقد نتشاجر جدياً بسبب الملل لقد سئمت كل هذا سأرحل اليوم وكيف؟ هل ستمتطين صهوة عصا؟ - اليوم خميس، إذن فسيأتي المركب في التاسعة والنصف.

- هه؟ نعم، نعم حسناً، سافرى - قال ربا بوفسكى بنعومة وهو يمسح فمه بالفوطة بدلاً من المنديل أنت هنا تسأمين ولا عمل لديك، وينبغي أن أكون أناانياً كبيراً حتى أمنعك من الرحيل سافرى، وبعد يوم عشرين سننقابل وحزمت أولجا إيفانوفنا أمتعته بمرح، بل إن خديها تضرجا من السرور وسألت نفسها: أحقاً سوف ترسم في غرفة الاستقبال وتنام في غرفة النوم وتتعدى على طاولة بمفرش؟



وانزاح الأسى عن قلبها ولم تعد غاضبة على المصور وقالت: - سأترك لك الألوان والفرش يا ربابوشا وما يبقى منها أحضره معك إياك أن تتكاسل وتكتئب هنا بدوني، بل اعمل أنت شاطر يا ربابوشا في التاسعة قبلها ربابوفسكى قبلة الوداع لكي لا يقبلها، كما اعتقدت، أمام المصورين على ظهر المركب، وودعها حتى المرفأ وسرعان ما وصل المركب وحملها ووصلت إلى البيت بعد يومين ونصف ودون أن تنزع القبعة ومعطف المطر، مضت إلى غرفة الاستقبال وأنفاسها تتلاحق من الانفعال، ثم دلفت من هناك إلى غرفة الطعام كان ضيموف جالساً إلى المائدة بدون سترة، في صديري مفتوح الأزرار، وهو يسن السكين بالشوكة، وأمامه في الطبق ديك برى وعندما دخلت أولجا إيفانوفنا الشقة كانت موقنة بأنها لابد أن تخفى عن زوجها كل ما حدث، وأن لديها من المهارة والقدرة ما يمكنها من ذلك بيد أنها الآن، عندما رأت هذه الابتسامة العريضة المستكينة السعيدة، والعينين البراقيتين الفرحتين أحست أن إخفاء الأمر عن هذا الإنسان شيء وضع مقرر ومستحيل، لا تقوى عليه تماماً مثل الافتراء والسرقة أو القتل، فقررت في لحظة أن تروى له كل شيء وبعد أن تركته يقبلها ويعانقها، جثت أمامه على ركبتها وغطت وجهها بيديها فسأل ضيموف برقة: - ماذا؟ ماذا يا ماما؟ اشتقت إلى؟.



ورفعت إليه وجها مضرجاً بحمرة الخجل، ونظرت إليه نظرة مذنبه وضارعة، ولكن الخوف والخجل منعاهما من أن تقول الحقيقة وقالت: - لاشي هكذا فأنهضها ضيموف وأجلسها قائلاً: - فلنجلس نعم هكذا كلى الديك لقد جعت يا مسكينة واستشقت بنهم الهواء المألوف وأخذت تأكل الديك البري بينما أخذ يتطلع إليها بحب ويضحك بسعادة ويبدو أن ضيموف بدأ في منتصف الشتاء يخمن أنها تخونه وكأنما كان ضميره هو الذي يعذبه، إذ لم يعد يستطيع أن ينظر مباشرة في عيني زوجته، ولم يعد يبتسم بفرح عند رؤياها، ولكي يقلل من فترة بقائه معها على انفراد كان كثيراً ما يدعو إلى الغداء زميله كوروستليوف، وهو رجل قصير حليق الشعر ذو وجه مكرمش وعندما كان يتحدث مع أولجا إيفانوفنا يفك جميع أزرار سترته ويزررها ثانية من الخجل ثم يروح يبرم شاربه الأيسر بيده اليمنى وأثناء الغداء كان الطبيبان يتحدثان في أن ارتفاع الحجاب الحاجز يؤدي أحياناً إلى اضطراب ضربات القلب، أو في ازدياد الحالات العصبية في الفترة الأخيرة، أو في أن ضيموف عندما شرح أمس جثة بتشخيص أنيميا خبيثة اكتشف سرطاناً في البنكرياس وبدا وكأنهما يخوضان في أحاديث طبية فقط لكي يعطيا أولجا إيفانوفنا فرصة لأن تصمت، أي لكيلا تكذب وبعد الغداء كان كوروستليوف يجلس إلى المعزف، بينما يتتهد ضيموف ويقول: - إيه يا أخي فليكن



اعزف لنا شيئاً حزيناً.

ويرفع كوروستليوف كتفيه عالياً وييسط أصابعه ويعزف بعض النغمات ويبدأ في الغناء بصوت تينور دلني على دار لا يئن فيها الفلاح الروسى ويتهد ضيموف ثانية ويعتمد برأسه على قبضته ويستغرق في التفكير وفي الآونة الأخيرة كانت أولجا إيفانوفنا تتصرف بصورة غير حذرة للغاية كانت تستيقظ كل صباح في أشد حالات الكدر وبفكرة أنها لم تعد تحب ريبوففسكى وأن كل شيء قد انتهى والحمد لله ولكن بعد أن تشرب القهوة تدرك أن ريبوففسكى سلبها زوجها، وأنها الآن أصبحت بلا زوج وبلا ريبوففسكى وبعد ذلك تتذكر أحاديث معارفها عن أن ريبوففسكى يعد للمعرض شيئاً صاعقاً، خليطاً من المنظر والموضوع، حسب ذوق بولينوف، شيئاً يثير إعجاب كل من يزور مرسومه وفكرت أولجا إيفانوفنا في سرها أن هذا قد أبدعه تحت تأثيرها، وعموماً فبفضل تأثيرها عليه تغير بشدة نحو الأفضل إن تأثيرها عليه مفيد وحاسم بحيث لو تركته فربما انتهى وتذكرت أيضاً أنه زارها في المرة الأخيرة في ستره رمادية براقّة وفي ربطة عنق جديدة وسألها بنظرة ساهمة هل أنا جميل؟ وبالفعل كان بخصلاته الطويلة وعينيّه الزرقاوين وأناقته جميلاً جداً (أو ربما خيل إليها هكذا) وكان رقيقاً معها.



وبعد أن تتذكر أولجا إيفانوفنا الكثير وتقلبه في رأسها ترتدي ثيابها في حالة من الاضطراب الشديد وتتجه إلى مرسوم ريبوفسكى وتجده مرحاً ومعجباً بلوحته الرائعة بالفعل كان يقفز ويتشاقى ويرد بالنكات على الأسئلة الجادة وغارت أولجا إيفانوفنا على ريبوفسكى من اللوحة ومقتنتها، ولكنها بدافع المجاملة كانت تقف أمامها صامتة حوالي خمس دقائق، وتتهد كما يتهد المرء أمام شيء مقدس، وتقول بصوت منخفض:

- نعم، لم ترسم أبداً شيئاً مثل هذا أتدرى؟ إنها تثير الرهبة ثم تروح تتوسل إليه أن يحبها، وألا يهجرها، وأن يشفق عليها المسكينة البائسة كانت تبكي وتقبل يديه وتلح عليه أن يقسم لها بأنه يحبها، وتثبت له أنه بدون تأثيرها الطيب سيضل الطريق ويهلك وبعد أن تفسد عليه مزاجه الرائق وتحس بنفسها مهانة، ترحل إلى الخياطة أو إلى إحدى معارفها الممثلات لتدبر أمر بطاقة فإذا لم تجده في المرسوم تترك له رسالة تقسم فيها إنها سوف تتحرر بالسم حتماً إذا لم يأت إليها اليوم ويخاف ريبوفسكى فيأتي ويبقى لتناول الغداء ولم يكن يخجل من وجود زوجها فيخاطبها بتبجح، وترد عليه بنفس الصورة كان كلاهما يحس بأنه يكبل الآخر وبأنهما طاغيتان وعدوان فيزدادان غلاً، ويعميهما الغل عن ملاحظة سلوكهما الفاضح



وعن أنه حتى كوروستليوف الحليق يدرك كل شيء وبعد الغداء كان ريبوفسكى يسرع بالوداع والانصراف فتسأله أولجا إيفانوفنا في المدخل وهي تنظر إليه بكراهية: - إلى أين أنت ذاهب؟.

فيمتعض ويزر عينيه، ويذكر اسم إحدى النساء من معارفهما المشتركين، وكان واضحاً أنه يسخر من غيرتها ويريد أن ينفص عليها فكانت تمضي إلى غرفة نومها وتستلقي في الفراش وبسبب الغيرة والأسى والإحساس بالمهانة والخزي كانت تعض الوسادة وتعمل بصوت عال فيترك ضيموف كوروستليوف في غرفة الجلوس، ويذهب إلى غرفة النوم ويقول لها بصوت خافت وهو محرج ومرتبك:

- لا تبكي بصوت عال يا ماما لماذا؟ عليك أن تسكتي على هذا عليك ألا تبدي ما بك أتدريين أن ما وقع لا يمكن إصلاحه؟.

ودون أن تدري أولجا إيفانوفنا كيف تكبت في نفسها غيرتها الممضة التي كان صدغاها يكادان يتكسران بسببها، وإذ تعتقد أنه ما زال من الممكن إصلاح الأمور، تنهض فتغتسل وترش البودرة على وجهها الباكى، وتطير قاصدة السيدة معرفتها وعندما لا تجد ريبوفسكى عندها، تذهب إلى سيدة أخرى، ثم إلى الثالثة وفي البداية كانت تخجل من هذا الطواف، ولكنها تعودت على ذلك فيما بعد، وكان يحدث أن تطوف في مساء واحد بجميع معارفها من النساء بحثاً عن



ريابوفسكى، وكان الجميع يدركون ذلك وذات مرة قالت لريابوفسكى عن زوجها هذا الرجل يرهقني بسماحته وأعجبتها هذه الجملة لدرجة أنها عندما كانت تلتقى بالمصورين الذين كانوا يعرفون قصة غرامها مع ريابوفسكى، كانت تقول في كل مرة وهي تحرك يدها حركة حادة: - هذا الرجل يرهقني بسماحته وظل نظام حياتها كما كان في العام الماضي فالحفلات تقام في أيام الأربعاء ويلقى الممثل، ويرسم المصورون، ويعزف عازف الفيولنشلو، ويغنى المطرب، وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف يفتح الباب المؤدي إلى غرفة الطعام، ويقول ضيموف وهو يبتسم: - تفضلوا إلى المائدة يا سادة.

وظلت أولجا إيفانوفنا كما في السابق تبحث عن الأشخاص العظام، وتجدهم ولا تكتفي فتبحث من جديد وكما في السابق كانت تعود كل يوم في ساعة متأخرة من الليل، ولكنها لا تجد ضيموف نائماً كما في العام السابق، بل جالساً إلى مكتبه يعمل وكان يأوي إلى الفراش في حوالي الثالثة ويستيقظ في الثامنة وذات مساء، عندما كانت واقفة أمام المرأة لتستعد للذهاب إلى المسرح، دخل ضيموف مرتدياً حلة سهرة وربطة عنق بيضاء كان يبتسم بوداعة، ونظر في عيني زوجته مباشرة بفرح كما في السابق كان وجهه متهللاً وقال وهو يجلس ويمسح ركبتيه: لقد ناقشت الآن رسالة الدكتوراه فسألته



أولجا إيفانوفنا: ونجحت المناقشة؟.

- أيوه وضحك ومد رقبتة لكي يرى في المرأة وجه زوجته التي ظلت مولية ظهرها له وتصلح تسريحتها، وردد - أيوه أتدريين، من المحتمل جداً أن يعرضوا على بريفات - دوتسنتوراه في الباثولوجي العام يبدو كذلك.

كان واضحاً على وجهه السعيد المنهمل أنه لو شاركته أولجا إيفانوفنا فرحته وانتصاره، لغفر لها كل شيء، في الحاضر والمستقبل ولنسى كل شيء، ولكنها لم تكن تفهم معنى بريفات - دوتسنتورا والباثولوجي العام، وعلاوة على ذلك كانت تخشى أن تتأخر عن المسرح، فلم تقل شيئاً.

فجلس ضيموف دقيقتين ثم ابتسم ابتسامة مذبذبة، وخرج كان ذلك يوماً مزعجاً في الصباح أحس ضيموف بصداع شديد ولم يتناول الشاي في الصباح، ولم يذهب إلى المستشفى، وظل طوال الوقت راقداً على الكنبه التركية في غرفة مكتبه وكالعادة توجهت أولجا إيفانوفنا في الثانية عشرة إلى ربابوفسكى لتريه مشهد ناتور - مور رسمته وتسألته لم لم يحضر أمس؟ وكان الرسم يبدو لها تافهاً، ولم ترسمه إلا لتجد ذريعة أخرى لزيارة المصور.



دخلت دون جرس، وبينما كانت تخلع خفها في المدخل خيل إليها أنها سمعت صوت هرولة خفيفة في المرسم وحفيف ثوب نسائي، وعندما أسرع لتلقي نظرة على المرسم لم تر إلا جانباً من جولة بنية ظهر لحظة واختفي وراء لوحة كبيرة مغطاة هي والحامل بغطاء أسود منسدل حتى الأرض لم يكن ثمة مجال للشك لقد كانت تختفي هنا امرأة وكم مرة اختفت أولجا إيفانوفنا نفسها وراء هذه اللوحة ويبدو أن ريبوفسكى كان مرتبكاً للغاية فتظاهر بإبداء دهشة لمجيئها، ومد نحوها كلتا ذراعيه وقال وهو يعتصر ابتسامة:

انا سعيد جداً برؤياك ماذا لديك من أنباء طيبة؟.

اغرورقت عينا أولجا إيفانوفنا بالدموع كانت تشعر بالخجل والمرارة، ولم تكن لتوافق، ولو دفعوا لها مليوناً، على الكلام في حضرة امرأة غريبة، غريمة ومخادعة، تقف الآن خلف اللوحة وربما تضحك بتشف جئت إليك بمشهد قالت بوجل وبصوت رفيع، وارتعشت شفتاها ناتور - مور آه مشهد؟ وأخذ المصور المشهد في يديه وراح يتفحصه وهو يسير إلى الغرفة الأخرى كأنما بصورة آلية وتبعته أولجا إيفانوفنا بإذعان ودمدم وهو ينتقى كلمات مسجوعة: - ناتور - مور - أحسن دور بورحور سور.

وتتاهي من المرسم وقع خطوات حثيثة وحفيف فستان إذن فقد



خرجت تلك وودت أولجا إيفانوفنا لو صرخت بصوت عال وضربت المصور بشيء ثقيل على رأسه وانصرفت ولكنها لم تر شيئاً خلال الدموع، وكانت مقهورة من الخجل، وأحست في نفسها بأنها ليست أولجا إيفانوفنا وليست مصورة بل حشرة صغيرة.

- أنا متعب قال المصور ساهماً وهو يتطلع إلى المشهد ويهز رأسه ليطرد عنه النعاس هذا طبعاً جميل، ولكن اليوم مشهد، وفي العام الماضي مشهد، وبعد شهر سيكون مشهد كيف لا تملين ذلك؟ لو كنت مكانك لتركت التصوير وأنكبت جدياً على الموسيقى أو أي شيء آخر إنك لست مصورة بل موسيقارة ولكن أتعلمين كم أنا متعب سأطلب لك شاياً، هه؟.

وخرج من الغرفة وسمعته أولجا إيفانوفنا وهو يأمر خادمه بشئ ما ولكي لا تودعه، وتتصارع معه، والأهم من ذلك لكي لا تنتحب، هرولت بسرعة إلى المدخل قبل أن يعود ريبوفسكى، وارتدت خلفها وخرجت إلى الشارع وهناك تنفست الصعداء وأحست بنفسها حرة إلى الأبد من ريبوفسكى ومن التصوير، ومن الخجل الممض الذي أطبق على قلبها في المرسوم انتهى كل شيء.

وتوجهت إلى الخياطة، ثم إلى برناى الذي وصل بالأمس فقط، ومنه إلى متجر للنوت الموسيقية، وظلت طول الوقت تفكر في الرسالة



التي ستكتبها لريابوفسكى، رسالة باردة، قاسية، مضغمة بالعزة، وفي أنها ستسافر مع ضيموف في الربيع أو الصيف إلى القرم، لتتخلص هناك تماماً من الماضي وتبدأ حياة جديدة وعندما عادت إلى البيت في ساعة متأخرة من المساء، لم تبدل ثيابها وجلست في غرفة الجلوس تدبج الرسالة لقد قال لها ريابوفسكى إنها ليست مصورة، وسوف تكتب الآن، انتقاماً منه، إنه يرسم كل عام نفس الشيء، ويقول كل يوم نفس الشيء، وإنه قد ركذ ولن يبلغ شيئاً أكثر مما بلغ وأرادت أن تكتب أيضاً إنه مدين لها بتأثيرها الطيب عليه، وإذا كان يسلك سلوكاً مشيناً فذلك فقط راجع إلى أن تأثيرها تشله شتى السيدات المربيات، كتلك التي اختبأت اليوم وراء اللوحة.

لما نادي ضيموف من غرفة المكتب دون أن يفتح الباب ماما ماذا تريد؟

- ماما، لا تدخل على، بل اقتربي فقط من الباب اسمعى منذ ثلاثة أيام انتقلت إلى في المستشفى عدوى الدفتريا، والآن حالتى سيئة أرسلنى بسرعة في طلب كوروستلوف.

كانت أولجا إيفانوفنا تدعو زوجها، ككل معارفها الرجال، باسم عائلته لا باسمه، فلم يكن اسم زوجها يعجبها لأنه كان يذكرها بشخصية أوسيب عند جوجول، أما الآن فقد صاحت أوسيب، هذا



لا يمكن أرسلني في طلبه حالتي سيئة قال ضيموف خلف الباب، وسمع وقع خطواته وهو يتجه إلى الكنية ويستلقي عليها، وجاء صوته مكتوماً أرسلني وفكرت أولجا إيفانوفنا والرعب يجمد أطرافها: ما هذا؟ إنه شيء خطر.

ودونما داع تناولت شمعة ومضت إلى غرفتها، وهنا أدركت ما الذي ينبغي عليها أن تفعله، ونظرت عرضاً إلى صورتها في المرآة وبدت لنفسها مخيفة ودميمة بوجهها الشاحب المذعور، وبسترتها ذات الأكمام العالية والشرائط الصفراء على الصدر، والخطوط ذات الاتجاهات غير العادية في الجونلة وفجأة أحست لدرجة الألم بالأسف على ضيموف، وعلى حبه اللا محدود لها، وعلى حياته الشابة، بل حتى على فراشه هذا اليتيم الذي لم يعد يرقد فيه من زمن طويل، وتذكرت ابتسامته المألوفة الوادعة المذعنة وبكت بحرقه وكتبت لكوروستليوف رسالة ضارعة وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً.

عندما خرجت أولجا إيفانوفنا من غرفة النوم في الثامنة صباحاً، شعرت بصداع في الرأس بسبب السهاد، وغير مصففة الشعر وقبيحة وبتعبير مذنب على وجهها، مر بجوارها شخص ما أسود اللحية، يبدو أنه طبيب وانتشرت رائحة الأدوية وبجوار باب



غرفة المكتب وقف كوروستليوف وهو يبرم شاربه الأيسر بيده اليمني وقال لأولجا إيفانوفنا متجهماً: عفواً، لن أسمح لك بالدخول إليه قد يعديك وعموماً فلا حاجة لدخولك في الواقع إنه على أية حال يهذي فسألت أولجا إيفانوفنا بهمس: هل عنده دفترية حقيقة؟ فدمدم كوروستليوف دون أن يجيب على سؤال أولجا إيفانوفنا: أولئك الذين يندفعون بتهور ينبغي محاكمتهم في الواقع أتعلمين كيف أنتقلت إليه العدوى؟ في يوم الثلاثاء شفت بالأنبوبة أغشية الدفترية من طفل مريض فما الداعي؟ حماقة هكذا، بلا تفكير.

فسألت أولجا إيفانوفنا: - هل هذا خطير؟ جداً؟ - نعم، يقولون إن الحالة صعبة، في الواقع ينبغي أن نستدعى شريك وجاء رجل صغير، أحمر الشعر، طويل الأنف، ويتحدث بلكنة يهودية ثم رجل طويل، مقوس، مشعث الشعر يشبه رئيس الشمامسة وبعده جاء شاب، بدين جداً، أحمر الوجه، يضع نظارة كانوا أطباء جاءوا ليسهروا بجوار زميلهم ولم يكن كوروستليوف ينصرف إلى داره بعد أن يقضي نوبة سهره، بل يبقى وهو يطوف بالغرف كلها كالظل وكانت الخادم تقدم الشاي للأطباء المناوبين وتذهب كثيراً إلى الصيدلية، ولم يكن هناك من ينظف الغرف وساد جو من الهدوء والوحشة.

وجلست أولجا إيفانوفنا في غرفة النوم وأخذت تفكر في



أن هذا عقاب من الله لها على خداعها لزوجها كان هناك مخلوق صموت، مطيع، غير مفهوم، فقد شخصيته بسبب وداعته، مخلوق بلا إرادة، وضعيف بسبب طبيته الزائدة، يتعذب هناك على الكنبه في غرفته دون أن يشكو ولو أنه اشتكى، حتى في الهذيان، لعلم الأطباء المناوبون أن الدفترية ليست المذنبة وحدها، وليسألوا كوروستليوف فهو يعرف كل شيء، ولذلك فهو ينظر إلى زوجة صديقه نظرات وكأنها هي الشريرة الأولى الحقيقية، وما الدفترية الا شريكها ولم تعد تذكر الأمسية المقمرة على الفولجا ولا الاعتراف بالحب، ولا الحياة الشاعرية في البيت الفلاحي بل كانت تذكر فقط أنها بدافع النزوة الفارغة واللهو قد تلطخت كلها، بيديها ورجليها، بشيء قدر، لزج، لن يزيله أبداً أي غسيل آه، كم كذبت بفضاعة فكرت أولجا إيفانوفنا وتذكرت حبها القلق لريا بوفسكى. اللعنة على كل ذلك في الساعة الرابعة تناولت الغداء مع كوروستليوف ولم يذق شيئاً، بل شرب فقط النبيذ الأحمر، وتجهم ولم تذق هي أيضاً أي شيء وكانت تارة تصلى في سريرتها وتقسم لله بأنها، إذا ما شفى ضيموف فسوف تحبه ثانية وتبقى زوجة وفيه له وتارة تنسى لحظة فتتظر إلى كوروستليوف وتفكر: أليس من الممل حقاً أن يكون المرء بسيطاً، لا يتميز بشيء، إنساناً مجهولاً، وفوق ذلك يكون له وجه مكرمش كهذا، وتصرفات غير مهذبة؟ وتارة يخيل إليها أن الله سيقضى عليها في



التو واللحظة لأنها، خوفاً من العدوى، لم تدخل غرفة مكتب زوجها بعد ولا مرة وعموماً فقد كانت تحس بالتبدل والوحشة وبقناعة أن الحياة قد فسدت ولن يمكن إصلاحها حل الغسق بعد الغداء وعندما خرجت أولجا إيفانوفنا إلى غرفة الجلوس كان كوروستليوف نائماً على الأريكة، وقد وضع تحت رأسه وسادة حريرية مطرزة بخيوط مذهبة وكان شخيرة يتصاعد كخيوا كنى بوا وحتى الأطباء الذين يجيئون للمناوبة، وينصرفون لم يلاحظوا هذه الفوضى فوجود شخص غريب نائم في غرفة الجلوس ويشخر والمشاهد المعلقة على الجدران والوضع الغريب في البيت، وربة الدار غير المصنفة الشعر والمهملة الثياب كل ذلك لم يعد يثير الآن أدنى اهتمام وضحك أحد الأطباء عرضاً، فتردد هذا الضحك غريباً وخجلاً، بل وأثار الرهبة وعندما خرجت أولجا إيفانوفنا إلى غرفة الجلوس مرة أخرى، لم يكن كوروستليوف نائماً بل جالساً يدخل وقال لها في شبه همس لديه دفترية التجويف الأنفي أصبح القلب يعمل بشكل مضطرب الأحوال سيئة في الواقع فقالت أولجا إيفانوفنا: - أستدع شريك؟ كان هنا بالفعل وهو الذي لاحظ أن الدفترية انتقلت إلى الأنف إيه وماذا يفعل شريك، في الواقع شريك لا شيء إنه شريك وأنا كوروستليوف ولا شيء أكثر مضى الوقت ببطء رهيب كانت أولجا إيفانوفنا مستلقية بتيابها في الفراش الذي لم يرتب منذ الصباح



وهي تغفو وتراعى لها أن الشقة كلها ملاءى من السقف حتى الأرض بقطعة ضخمة من الحديد، وأنه ما إن يلقي بهذا الحديد إلى الخارج حتى يشعر الجميع بالخفة والمرح وعندما استيقظت تذكرت أن ذلك ليس حديدًا بل هو مرض ضيموف وفكرت وهي تغفو من جديد: ناتور مور بور حور وكيف شريك؟ شريك، بريك، فريك، كريك، وأين الآن أصدقائي؟ هل يعلمون بمحنتنا؟ يا إلهي الرحمة، النجاة شريك، بريك ويعود الحديد ثانية والوقت يمضي ببطء والساعة في الطابق الأسفل تدق كثيراً ومن حين لآخر يدق جرس الباب ويدخل الأطباء ودخلت الخادم تحمل كوباً فارغاً على صينية وسألت: - سيدتى، هل تأمرين بإعداد الفراش؟ وخرجت دون أن تتلقى جواباً ودقت الساعة في الأسفل، ورأت أولجا إيفانوفنا في الحلم المطر يسقط على الفولجا، ومرة أخرى دخل غرفة النوم شخص ما، يبدو أنه غريب، فقفزت أولجا إيفانوفنا وعرفت فيه كوروستليوف فسألتته: - كم الساعة؟ حوالي الثالثة- ماذا هناك؟ وماذا هناك جئت أقول إنه يحتضروا جهش بالبكاء، وجلس على السرير بجوارها، ومسح دموعه بكمه ولم تدرك ما قاله على الفور، ولكن البرودة شملت جسدها كله، أخذت ترسم علامة الصليب ببطء وردد كوروستليوف بصوت رفيع: يحتضر وأجهش ثانية- إنه يموت لأنه ضحى بنفسه وقال بمرارة - يا لها من خسارة للعلم لقد كان بالمقارنة بنا جميعاً إنساناً عظيماً،



إنساناً غير عادي أية مواهب أية آمال كنا نعلقها عليه ومضى يقول وهو يعصر يديه يا ربي، كان من الممكن أن يصبح عالماً لا مثيل له الآن أوسكا ضيموف، أوسكا ضيموف، ما الذي فعلته آه يا إلهي وغطى كوروستليوف وجهه بكلتا يديه من اليأس وهز رأسه ومضى يقول وهو يزداد حقداً على شخص ما: وأية قوة أخلاقية روح طيبة، طاهرة، محبة لم يكن إنساناً، بل بلوراً عاش في خدمة العلم ومات بسبب العلم كان يعمل كالبعول، ليل نهار، ولم يرحمه أحد، وكان عليه وهو العالم الشاب والأستاذ المقبل أن يبحث عن زبائن، وأن يعمل في الترجمة ليلاً لكي يدفع ثمن هذه الخرق الحقيبة.

وتطلع كوروستليوف بمقت إلى أولجا إيفانوفنا، وأمسك الملاءة بكلتا يديه وشدها بغضب، وكأنها هي المذنبة- لم يرحم نفسه، ولم يرحمه الآخرون آوه، ماذا أقول، في الواقع وقال شخص ما في غرفة الجلوس بصوت غليظ:- نعم، كان إنساناً نادراً وتذكرت أولجا إيفانوفنا كل حياتها معه، من البداية حتى النهاية بكل تفاصيلها، وأدركت فجأة أنه كان بالفعل إنساناً غير عادي ونادراً بالمقارنة مع من كانت تعرفهم وعندما تذكرت كيف كان يعامله المرحوم أبوها وكل زملاؤه الأطباء، أدركت أنهم جميعاً كانوا يرون فيه رجلاً عظيماً في المستقبل وغمزت لها الجدران والسقف والمصباح والبساط بتهكم



وكانها تريد أن تقول لها يا غافلة، يا غافلة فانطلقت من غرفة النوم وهي تبيكي، وعبرت غرفة الجلوس مارة بشخص غريب، واندفعت إلى غرفة مكتب زوجها كان ممدداً بلا حراك على الكنبه التركية، مغطى إلى نصفه ببطانيه ضمر وجهه وهزل بشدة وأصبح لونه رمادياً أصفر بصورة لا تبدو بها أبداً وجوه الأحياء، وكان لا يمكن معرفة أن هذا هو ضيموف إلا من جبينه وحاجبيه الأسودين وابتسامته المعهودة وتحسست أولجا إيفانوفنا صدره وجبينه ويديه بسرعة كان صدره لا يزال دافئاً، لكن جبينه ويديه كانت باردة بصورة منفرة وكانت عيناه شبه المفتوحتين لا تنظران إلى أولجا إيفانوفنا، بل إلى البطانية ونادته بصوت عالٍ: - ضيموف ضيموف كانت تريد أن تشرح له أن ذلك كان خطأً، وأنه لم يضع كل شيء بعد، وأن الحياة يمكن أن تكون رائعة وهنيئة، وأنه أنسان نادر، غير عادي، وعظيم، وأنها سوف تظل تقدسه طول العمر وتصلى له وتضمّر الخوف المقدس. - ضيموف ضيموف يا ضيموف دعتة وهي تهزه من كتفه دون أن تصدق أنه لن يستيقظ أبداً وفي غرفة الجلوس كان كوروستليوف يقول للخادم: وفيم السؤال؟ اذهبي إلى خفير الكنيسة واسألي أين تقطن عجائز الملجأ سيغسلن الجسد ويهندمنه، ويقمن بكل المطلوب.



السيدة صاحبة الكلب

قيل إن وجهاً جديداً ظهر على الكورنيش، سيدة تصحب كلباً أخذ دميتري دميتريتش جوروف الذي وصل إلى يالطا منذ أسبوعين وألف المكان، يهتم بالوجوه الجديدة هو الآخر ورأى وهو جالس في جناح فيرينيه كيف مرت على الكورنيش سيدة شابة، شقراء، متوسطة القامة، تضع على رأسها بيريه ووراءها ركض كلب أبيض صغير ثم قابلها بعد ذلك في حديقة المدينة وفي المنتزه عدة مرات في اليوم كانت تتنزه وحدها، في نفس البيريه وبصحبة الكلب الأبيض ولم يعرف أحد من هي، فسموها ببساطة: السيدة صاحبة الكلب.

وفكر جوروف: إذا كانت هنا بدون زوجها وبدون معارف، فلا بأس من التعرف بها لم يكن قد بلغ الأربعين بعد، ولكنه كان أباً لبنت في الثانية عشرة وولدين في المدرسة لقد زوجه مبكراً، وهو بعد طالب في الصف الثاني، وبدت زوجته الآن أكبر منه سناً بمرّة ونصف كانت امرأة طويلة، بحاجبين داكنين، صريحة، متكبرة، رزينة، وكما كانت تسمى نفسها: مفكرة وكانت تقرأ كثيراً، ولا تكتب في رسائلها حرف وتدعو زوجها لادميتري بل دميتري، كان هذا الحرف يكتب سابقاً في



آخر الكلمات الروسية المنتهية بحرف ساكن بينما كان يعدها في سره امرأة غير ذكية محدودة الأفق، غير لبقة وكان يخشاها ولا يحب البقاء في البيت وقد بدأ يخونها منذ زمن بعيد، وكان يخونها كثيراً، وربما لذلك كان رأيه في النساء سيئاً دائماً وعندما يدور الحديث عنهن في حضوره كان يسميهن هكذا: - جنس منحط.

كان يظن أن تجربته المرة قد علمته بما يكفي لكي يسميهن كما يشاء، ومع ذلك فبدون الجنس المنحط لم يكن ليستطيع أن يعيش يومين اثنين كان يشعر بين الرجال بالملل والضيق، وكان معهم قليل الكلام، بارداً، ولكنه عندما يصبح وسط النساء يحس بالحرية ويعرف عم يتحدث معهن وكيف يتصرف، وحتى الصمت كان سهلاً عليه كان في مظهره وخلقه، وفي طبيعته كلها شيء ما جذاب خفي، يستميل إليه النساء ويستهويهن وكان يعرف ذلك، وهو أيضاً كانت قوة ما تشده إليهن وقد علمته التجارب العديدة، والمريرة حقاً، منذ زمن بعيد، أن كل تقارب، إذ يجعل الحياة في البداية أكثر تنوعاً وبهجة ويمثل مغامرة لطيفة خفيفة، لا بد أن يتحول لدى الأشخاص القويمة السلوك خاصة أهالي موسكو، البطيئة الحركة، المترددين، إلى مسألة كبيرة معقدة للغاية، ويصبح الوضع في النهاية مرهقاً ومع ذلك فلدى كل لقاء جديد بامرأة جذابة كانت هذه التجارب



تغيب بصورة ما عن ذاكرته، وتراوده الرغبة في الحياة ويبدو كل شيء بسيطاً ومسلماً.

وذات مرة، قبيل المساء، كان يتغدى في الحديقة، واقتربت السيدة ذات البيرييه على مهل لكي تشغل الطاولة المجاورة وأنبأه تعبير وجهها، ومشيتها، وفستانها، وتسريحتها، أنها من وسط محترم، متزوجة وفي يالطا لأول مرة وبمفردها وأنها تشعر بالملل هنا كان في الأفاصيص التي تروى عن فساد الأخلاق المحلية الكثير من الكذب، وكان يحتقرها ويعلم أن مثل هذه القصص، في أغلبها، يؤلفها أشخاص لو كان بمقدورهم لارتكبوا الآثام عن طيب خاطر ولكن عندما جلست السيدة إلى الطاولة المجاورة، على بعد ثلاث خطوات منه، تذكر تلك القصص عن الانتصارات السهلة والرحلات إلى الجبال، وسيطرت عليه فجأة فكرة مغرية عن علاقة قريبة عابرة، عن قصة غرام مع امرأة مجهولة لا يعرف اسمها ودعا الكلب إليه بلطف، وعندما اقترب منه رفع أصبعه مهدداً، فنبج الكلب مغضبا وهدده جوروف ثانية ونظرت إليه السيدة وخفضت بصرها على الفور وقالت:- إنه لا يعرض وتضرجت وجنتاها هل يمكن أن أعطيه عظمة؟- وعندما هزت رأسها موافقة سألها ببشاشة.

- هل وصلت إلى يالطا منذ مدة طويلة؟



- منذ خمسة أيام أما أنا فأجرجر الأسبوع الثاني هنا وصمتا قليلاً ثم قالت دون أن تنتظر إليه: - الوقت يمضي بسرعة، ومع ذلك فما أشد الملل هنا.

إنها مجرد عادة أن يقال إن المكان هنا ممل ولكن الواحد من هؤلاء يعيش في بيته، في مكان ما في بليوف أو جيز در، دون أن يشعر بالملل، وما إن يأتي إلى هنا حتى يقول: آه يا للملل يا للتراحم لتظن أنه جاء من غرناطة وضحكت ثم واصلا الأكل في صمت كشخصين لا يعرفان بعضهما، ولكن بعد الغداء سارا متجاورين، وبدأ بينهما حديث مازح خفيف، حديث أناس أحرار، راضين، سيان لديهم إلى أين يمضون وعم يتحدثون، ومضيا يتنزهان ويتحدثان عن غرابة إضاءة البحر، فقد كان لون المياه بنفسجياً، ناعماً ودافئاً، وامتد عبرها من القمر شريط ذهبي وتحدثا عن الجو الخانق بعد يوم حار وأخبرها جوروف أنه من موسكو، وأنه خريج كلية الآداب ولكنه يعمل في بنك، وكان في وقت ما يستعد للغناء في أوبرا خاصة، ولكنه ترك ذلك، ويملك في موسكو منزلين وعرف منها أنها نشأت في بطرسبورج ولكنها تزوجت في مدينة س، حيث تعيش منذ عامين، وأنها ستقضي في يالطا حوالى شهر، وربما يأتي في أثرها زوجها الذي يريد أيضاً أن يستريح ولم تستطع أبداً أن توضح أين يعمل



زوجها: في إدارة المحافظة أم في إدارة الإقليم وضحكت هي نفسها من ذلك وعرف جوروف أيضاً أن اسمها أنا سر جيفنا .

وبعد ذلك فكر فيها وهو في غرفته بالفندق، وفي أنها ربما تقابله غداً هكذا ينبغي أن يكون وعندما أوى إلى الفراش تذكر أنها منذ فترة قريبة كانت طالبة، كانت تدرس كما تدرس ابنته الآن، وتذكر كم كان في ضحكها وحديثها مع رجل غريب من تهيب وارتباك لا بد أنها المرة الأولى في حياتها التي تبقى فيها وحدها وفي وضع كهذا، عندما يغازلونها، ويتطلعون إليها ويتحدثون معها بهدف خفي واحد، لا يمكن ألا أن تحدسه وتذكر عنقها الرقيق الضعيف، وعينيها الرماديتين الجميلتين وفكر جوروف وهو يستسلم للنوم: هناك شيء ما فيها يثير الشفقة مع ذلك.

مر أسبوع منذ تعارفهما وكان يوم عيد كان الجو في الغرف خائناً، وفي الشوارع ثارت دوامات الغبار، وطيرت الريح القبعات واستبد بهما الظمأ طول النهار، فكان جوروف يدخل الجناح كثيراً ويعرض على أنا سرجيفنا شراب عصير الفواكه تارة، والآيس كريم تارة أخرى ولم يكن ثمة مكان يلجأ إليه وفي المساء، عندما هدأ الجو قليلاً، ذهبوا إلى حاجز الأمواج ليشاهدوا مجيء السفينة وكان في الميناء كثير من المتنزهين، وقد جاءوا لمقابلة أشخاص ما، وحملوا في أيديهم



الزهور وهنا تبدت بوضوح خصيصتان تميزان جمهور يالطا المتأثق: فقد كانت النساء الكيبرات السن متزينات كالشابات، وكان هناك جنرالات كثيرون وبسبب اضطراب البحر وصلت السفينة متأخرة، بعد غروب الشمس، ودارت مدة طويلة قبل أن ترسو على الحاجز وتطلعت أنا سرجييفنا عبر العوينات إلى السفينة والركاب وكأنها تبحث عن معارف، وعندما كانت تخاطب جوروف تلمع عيناها تكلمت كثيراً، وكانت أسئلتها مقتضبة وكانت تتسي على الفور عم سألت ثم فقدت عويناتها في الزحام وتفرق الجمهور المتأثق، ولم تعد الوجوه تبين، وهدأت الريح تماماً، بينما ظل جوروف وأنا سرجييفنا واقفين وكأننا ينتظران أن يهبط أحد آخر من السفينة كانت أنا سرجييفنا الآن صامته، تشم الزهور دون أن تتطلع إلى جوروف.

وقال جوروف: الجو في المساء صار أفضل إلى أين سنذهب الآن؟ هلا رحلنا إلى مكان ما؟ ولم ترد بشيء.

عندئذ نظر إليها ملياً واحتضنها فجأة، وقبلها في شفيتها، فهبت عليه رائحة الزهور ورطوبتها، وعلى الفور تلفت حوله بخوف: ألم يرهما أحداً؟

ودمدم بصوت خافت: - فلنذهب إليك وانصرفا بسرعة كان الجو في غرفتها خائفاً، وتضوعت فيه رائحة العطر الذي ابتاعته



في المتجر الياباني وفكر جوروف وهو ينظر إليها الآن: ما أكثر ما يحدث في الحياة من لقاءات لقد بقيت لديه من الماضي ذكرى نساء خاليات البال، طيبات، مرحات من الحب، ممتنات له على السعادة التي منحها أياهن وإن تكن قصيرة، ونساء - مثل زوجته أحبين بلا صدق وبثرثرة كثيرة وحركات مفتعلة وهستيريا، وبتغيير على الوجه، كأنما لم يكن ذلك حباً أو شهوة، بل شيئاً أهم بكثير وامرأتان أو ثلاث، بارعات الجمال، باردات، كان يطوف بوجوههن فجأة تعبیر جشع ورغبة عنيدة في أن يأخذن، ويختطفن من الحياة أكثر مما تستطيع أن تعطى، وكن نساء مضى شبابهن، نزقات، غير مفكرات، متسلطات، غير ذكيات، وعندما كان جوروف يشعر بالبرود نحوهن كان جمالهن يشير فيه الكراهية، وتبدو له الدانتلا على ملابسهن الداخلية أشبه بقشر السمكاً هنا فتلك الهيبة والارتباك لشباب غير محنك، والشعور بالخجل، وساد انطباع بالحرج كأنما طرق أحدهم الباب فجأة، ونظرت أنا سرجييفنا، هذه السيدة صاحبة الكلب، إلى ما حدث نظرة خاصة، وبجدية شديدة، وكأنما كان في ذلك سقوطها هكذا خيل لجوروف، فبدا له ذلك غريباً وغير مناسب تهدلت قسماتها وذبلت، وتدلت على صفحتي وجهها خصلات شعرها الطويل بصورة حزينة، استغرقت أنا سرجييفنا في التفكير بكآبة، فبدت في ذلك الوضع كالخاطئة في لوحة قديمة وقالت:



- هذا ليس حسناً إنك الآن أول من لا يحترمني وكان على المائدة في الغرفة بطيخة، فشق جوروف قطعة وراح يأكلها على مهل وممر ما لا يقل عن نصف ساعة وهما صامتان كانت أنا سرجيفنا مؤثرة، وانبعث منها طهارة المرأة القويمة، الساذجة التي لم تخبر الحياة بعد وكانت الشمعة الوحيدة المشتعلة على الطاولة لا تكاد تضيء وجهها، بيد أنه كان واضحاً أنها تعاني عذاباً داخلياً.

وسألها جوروف: ولماذا أكف عن احترامك؟ أنت لا تدرين ما تقولين فقالت وعيناها تمتلئان بالدموع: فليغفر لي الله هذا فظيع كأنما تبحثين عن تبرير وكيف أبرر ذلك؟ انني امرأة سيئة، منحطة، إنني أحتقر نفسي ولا أفكر في المبررات أنا لم أخدع زوجي بل خدعت نفسي وليس الآن فحسب، بل منذ زمن بعيد وأنا أخدعه ا ربما كان زوجي رجلاً شريفاً، طيباً، ولكنه خادم أنا لا أعرف ماذا يفعل ولا كيف يخدم، ولكن أعرف فقط أنه خادم كنت في العشرين من عمري عندما تزوجته، وكان الفضول يؤرقني وكنت أتوق إلى شيء ما أفضل كنت أقول لنفسي: هناك حياة أخرى حقاً كنت أريد أن أعيش وأعيش وأعيش كان الفضول يلهبني إنك لا تدرك ذلك، ولكني أقسم لك، لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي، كان هناك شيء ما يحدث لي، ولم يعد من الممكن لقوة أن تبقيني، فقلت لزوجي



إنني مريضة وسافرت إلى هنا وها أنا ذا قد أصبحت امرأة مبتذلة، ساقطة، بوسع أي شخص أن يحتقرها كان جوروف قد مل السماع، وأحنفته هذه النبرة الساذجة، وهذا الندم المفاجئ وغير المناسب ولولا الدموع في عينيها لظن أنها تمزح أو تؤدي دوراً.

وقال بصوت خافت: أنا لا أفهم، ماذا تريدان؟ ودفنت وجهها في صدره والتصقت به وقالت: - صدقني، صدقني أتوسل إليك إنني أحب الحياة الشريفة، الطاهرة، أما الخطيئة فكريهة على، أنا نفسي لا أدري ما الذي أفعله البسطاء يقولون: الشيطان أضلنا، وبوسعي الآن أن أقول عن نفسي: لقد أضلني الشيطان فدمدم جوروف: كفى، كفى وتطلع إلى عينيها الجامدتين المفزوعتين، وقبلها، وراح يتحدث بصوت خافت وبرقة فهدأت شيئاً فشيئاً، وعاد إليها المرح أخذا كلاهما يضحكان وعندما خرجا إلى الكورنيش فيما بعد، لم يكن هناك أحد، وبدت المدينة بأشجار السرو ميتة تماماً، لكن البحر ظل يصخب ويضرب الشاطئ، وتراقص على الأمواج زورق وحيد وعليه مصباح يومض ناعساً ووجدوا حوزياً ورحلا إلى أورياندا وقال جوروف: لقد عرفت اسم عائلتك عندما كنا في المدخل، كان مكتوباً على اللوحة فون ديدريتش هل زوجك ألماني؟.

- كلا، جده كان ألمانيا على ما أظن، أما هو فروسي أرثوذكسي



وفي أورياندا جلسا على أريكة، غير بعيد عن الكنيسة، وتطلعا إلى البحر في الأسفل وهما صامتان كانت يالطا تلوح بالكاد من خلال ضباب الصباح، وعلى قمم الجبال استقرت السحب البيضاء بلا حراك وسكنت أوراق الشجر وأزت زيزان الحصاد، أما صخب البحر الرتيب المكتوم المتناهي من أسفل فكان يتحدث عن السكينة والكرى الخالد الذي ينتظرنا هكذا كان البحر بصخب في الأسفل عندما لم تكن هناك بالطا وأورياندا، وهكذا يصخب الآن، وسوف يصخب في المستقبل بنفس اللامبالاة والصوت المكتوم عندما لا نعود على قيد الحياة وفي هذه الاستمرارية، في هذه اللامبالاة التامة حيال حياة كل منا وموته، ربما يكمن ضمان خلاصنا الأبدى، ضمان حركة الحياة المستمرة على الأرض، والرقى المستمر وفكر جوروف وهو جالس بجوار امرأة شابة، بدت في الفجر على هذه الصورة من الجمال، مستكن النفس، مفتوناً بهذا الجو الأسطوري: البحر والجبال والسحاب والسماء الرحبة فكر في أن كل شيء رائع في هذا العالم حقاً لو أمعنا التفكير، كل شيء ما عدا ما نفكر فيه ونفعله عندما ننسى أسمى أغراض الوجود، وكرامتنا الإنسانية ومر بجوارهما شخص ما، يبدو أنه حارس، وتطلع إليهما ثم انصرف وهذه الحركة بدت أيضاً غامضة وجميلة ولاحت السفينة القادمة من فيودوسيا مظفاً الأنوار وقد أضاءها نور الفجر.



وقالت أنا سرجييفنا بعد صمت: الندى على العشب نعم، فلنعد وعادا إلى المدينة وبعد ذلك كانا يلتقيان كل ظهر على الكورنيش، ويفطران معاً، ويتغديان ويتزهان ويعجبان بالبحر واشتكت له من أنها تنام نوماً سيئاً، وأن قلبها يدق بقلق، وكانت توجه إليه نفس الأسئلة وهي مضطربة من الغيرة تارة وتارة أخرى من خشية أنه لا يحترمها بما فيه الكفاية وكثيراً ما كان يحدث وهما في المتنزه أو الحديقة، وعندما لا يكون بقربهما أحد، أن يجذبها إليه فجأة ويقبلها بشهوة وهذا الفراغ المطلق، وهذه القبلات في وضح النهار مع التلفت والخوف من أن يكون أحد قد رآه، والحر، ورائحة البحر والحركة الدائبة أمام عينيه لأناس غير مشغولين، متأنقين، شباع، كأنما أعادت خلقه من جديد، فكان يقول لآنا سرجييفنا كم هي جميلة، وكم هي مغرية، وكان متلهفاً عليها ولم يفارقها خطوة واحدة، بينما كانت هي تستغرق في التفكير كثيراً، وترجوه طوال الوقت أن يعترف بأنه لا يحترمها ولا يحبها أبداً بل لا يرى فيها سوى امرأة مبتذلة وكانا كل مساء تقريباً يرحلان في وقت متأخر إلى مكان خارج المدينة، إلى أورياندا أو الشلال وكانت نزهاتهما موفقة، وفي كل مرة كانت الانطباعات دائماً رائعة، ومهيبة.

وانتظرا أن يصل زوجها، ولكنها تلقت منه رسالة يخبرها فيها أنه



مريض بعينيه، وتوسل إليها أن تعود بسرعة وعجلت أنا سرجييفنا بالرحيل وهي تقول لجوروف: حسن أنني سأسافر هذه مشيئة الأقدار ورحلت في عربة ورحل معها إلى المحطة ليوذعها وقطعا النهار كله في السفر وعندما استقلت عربة القطار السريع ودق ناقوس المحطة للمرة الثانية قالت دعني أتطلع إليك ثانية مرة أخرى هكذا لم تبك، ولكنها كانت حزينة، وبدأت كأنها مريضة، وكان وجهها يرتعش وقالت:

- سأفكر فيك وأتذكرك ابق في رعاية الله لا تذكرني بسوء إننا نفترق إلى الأبد هذا ضروري، لأنه ما كان ينبغي أن نلتقي حسناً، يرداك الله ورحل القطار بسرعة، وسرعان ما غابت أنواره، وبعد دقيقة لم يعد ضجيج مسموعاً، كأنما تأمر كل شيء عن عمد لإنهاء هذه الغيبوبة العذبة، وهذا الجنون بسرعة وعندما أصبح جوروف وحده على الرصيف وهو يتطلع إلى الأفق المظلم، أخذ يصغي إلى صرير الجنادب وأزير أسلاك البرق بإحساس من استيقظ لتوه وفكر في أنه ها هي ذي مغامرة قد مرت في حياته وانتهت، ولم يبق منها سوى الذكرى كان متأثراً وحزيناً، وأحس بقليل من الندم فهذه المرأة الشابة التي لن يراها أبداً لم تكن سعيدة معه كان لطيفاً وودوداً معها، ومع ذلك فقد كان في معاملته لها وفي لهجته وملاطفاته ظل من السخرية الخفيفة، وشئ من الاستعلاء الفظ لرجل سعيد،



هو فوق ذلك أكبر منها مرتين كانت تقول له طوال الوقت إنه طيب وغير عادي، وسام لقد بدا لها، فيما يظهر، على غير حقيقته في الواقع، إذن فقد خدعها عن غير قصد وانتشرت في المحطة رائحة الخريف، وكان المساء بارداً وفكر جوروف وهو يغادر الرصيف: وأنا أيضاً أن لي أن أرحل إلى الشمال حان الوقت عندما عاد إلى بيته في موسكو كان كل شيء يسير كما في الشتاء، وأوقدت الأفران، وفي الصباح، عندما يتهياً الأطفال للمدرسة ويتناولون الشاي يكون الجو مظلماً فتشعل المربية الضوء بعض الوقت وبدأت بوادر الصقيع وعندما يهطل الثلج لأول مرة، وفي أول أيام استخدام الزحافات، تشعر بالسرور وأنت ترى الأرض البيضاء والأسقف البيضاء، ويصبح الهواء أنقى وأروع، وفي هذه الأوقات تتذكر سنوات الصبا وتكتسب أشجار الزيزفون والبتولا العجوز، البيضاء من الثلج، تعبيراً بشوشاً، فهي أقرب إلى القلب من السرو والنخيل، ولا تراودك الرغبة بالقرب منها في التفكير في الجبال والبحر كان جوروف موسكوفيا، وقد عاد إلى موسكو في يوم بارد صحو، وعندما ارتدي معطفالفراء والقفاز الثقيل وتمشي في شارع بتروفكا، وعندما سمع مساء السبت رنين أجراس الكنائس، فقدت رحلته القريبة إلى الأماكن التي كان فيها كل سحرها بالنسبة له وغاص شيئاً فشيئاً في حياة موسكو، وأصبح يقرأ بنهم ثلاث صحف يومياً ويقول إنه لا يقرأ صحف موسكو عن مباد



واجتذبه المطاعم والأندية ودعوات الغداء والحفلات اليوبيلية، وأصبح يشعر بالفخر لزيارة مشاهير المحامين والممثلين له، ولأنه يلعب الورق مع بروفيسور في نادي الأطباء وأصبح بوسعه أن يأكل طبقاً كاملاً من السليانكا المحمرة.

وخيل إليه أنه لن يمر شهر حتى يغلف الضباب أنا سرجييفنا في ذاكرته، ولن تخطر له إلا نادراً بابتسامتها المؤثرة كما خطرت من قبل أخريات ولكن مر أكثر من شهر، وأوغل الشتاء، بيد أن كل شيء ظل واضحاً في ذاكرته وكأنما لم يفارق أنا سرجييفنا إلا بالأمس وهاجت الذكريات أقوى وأشد فما إن تتناهى إليه في مكتبه في هدوء المساء أصوات أطفاله وهم يحضرون الدروس، أو يصغي إلى أغنية عاطفية أو إلى عزف الأورغن في مطعم، أو تعول الريح في مدخنة المدفأة، حتى ينبعث كل شيء حياً في الذاكرة: ما كان عند حاجز الأمواج، والصباح الباكر المضرب في الجبال، والسفينة القادمة من فيودوسيا، والقبلات وكان يروح ويجيء طويلاً في الغرفة، ويتذكر ويبتسم ثم تحولت الذكريات إلى أحلام، واختلط في خياله ما حدث بما سوف يكون لم تعد أنا سرجييفنا تخطر له، بل كانت تتبعه في كل مكان كالظل وتراقبه وعندما يغمض عينيه يراها أمامه حية، وبدت له أجمل وأصبي وأرق مما كانت وهو أيضاً بدا لنفسه أفضل



مما كان آنذاك في يالطا وكانت تتطلع إليه في المساء من خزانة الكتب ومن المدفأة، ومن ركن الغرفة، وكان يسمع أنفاسها وحفيف ثيابها الرقيق وكان يتابع النساء في الشارع بعينيه بحثاً عن تشبهها وأمضته رغبة شديدة في أن يفضي لأحد ما بذكرياته بيد أنه لم يكن من الممكن أن يتحدث عن حبه في البيت، أما خارج البيت فليس هناك من يتحدث إليه فليس من المعقول أن يتحدث مع السكان أو في البنك ثم عم يتحدث؟ هل هو أحبها آنذاك؟ وهل كان هناك شيء ما جميل وشاعري أو ذو عبرة، أو حتى شيق في علاقته بآنا سرجيفنا؟ واضطر أن يقول كلاماً عاماً عن الحب، وعن النساء فلم يفتن أحد إلى الأمر زوجته فقط لعبت حاجبيها الداكنين وقالت:

- أنت يا ديميتري لا تليق في دور الغندور وذات ليلة، وكان خارجاً من نادى الأطباء مع موظف شاركه اللعب، لم يتمالك نفسه فقال: وتدري بأية امرأة ساحرة تعرفت في يالطا وجلس الموظف في الزحافة فمضت به، لكنه التفت فجأة وصاح: يا ديميتري ديميتريفيتش ماذا؟ لقد كنت على حق بالأمس، فالسمك عفن.

أثارت هذه الكلمات، العادية تماماً، حنق جوروف فجأة لسبب ما، وبدت له مهينة ملوثة بالأخلاق الهمجية، يالهذه السحنات وما هذه الليالي التي بلا معنى، وأية أيام مملة باهتة اللعب المحموم، والأكل



حتى التخمة، والشكر، والأحاديث المكررة عن نفس الشيء الأعمال التي لا ضرورة لها والأحاديث المكررة تستولي على أفضل ساعات العمر، وعلى أفضل القوى، ولا يبقى في النهاية سوى حياة مبتورة، مقصوصة الجناحين، لا يبقى سوى هراء، ولا تستطيع أن تهرب منه أو تفر، كأنما وضعت في مستشفى المجانين أو في السجن.

لم ينم جوروف طوال الليل وهو ساخط، ثم عانى طوال اليوم التالي من الصداع وفي الليالي التالية نام نوماً سيئاً، وكان يجلس في الفراش ويفكر أو يروح ويجيء من ركن لركن وممل الأطفال، وممل البنك ولم يكن يرغب في الذهاب إلى أي مكان أو الحديث عن أي شيء وفي أعياد ديسمبر استعد للسفر، وقال لزوجته إنه راحل إلى بطرسبرج للتوسط لأحد الشبان، وسافر إلى س لماذا؟ هو نفسه لم يكن يعرف جيداً لقد أراد أن يرى أنا سرجييفنا ويتحدث إليها ويدبر موعداً معها إذا أمكن.

وصل إلى س صباحاً وحجز في الفندق أفضل غرفة، وكانت أرضيتها مغطاة كلها بجوخ عسكري رمادي، وعلى الطاولة محبرة، رمادية من الغبار، تحمل فارساً على جواد، وقد رفع يده بالقبعة بينما كان رأسه مبتوراً وأعطاه الفراش المعلومات اللازمة: فون ديدريتش يسكن في شارع ستارو جونتشارنايا في منزله الخاص، غير بعيد عن



الفندق، وهو يحيا حياة طيبة، في بحبوحة ويملك خيوله الخاصة ويعرفه الجميع في المدينة ولفظ الفراش اسمه هكذا: ضري ضيرتس. ومضى جوروف على مهل إلى شارع ستارو جونتشارنايا وعثر على المنزل وفي مواجهة المنزل مباشرة امتد سور رمادى طويل بمساميروفكر جوروف وهو ينظر تارة إلى النوافذ وتارة إلى السور: من هذا السور لا بد أن تهرب وفكر: اليوم عطلة، وزوجها على الأرجح في البيت وعلى أي حال فليس من اللائق أن يدخل البيت ويخرجها وإذا أرسل لها رسالة فستقع في الغالب في يد زوجها، وعندئذ سيفسد كل شيء أفضل شيء الاعتماد على الصدفة وراح يتمشى في الشارع بجوار السور وينتظر هذه الصدفة ورأى شحاذاً يذلف إلى البوابة فتهاجمه الكلاب، ثم سمع بعد ساعة عزفاً على البيانو، وتناهت إليه الأنغام ضعيفة غير واضحة لا بد أنها أنا سرجييفنا التي تعزف وفجأة فتح باب المدخل الرئيسي، وخرجت منه امرأة عجوز، وركض خلفها الكلب الأبيض المعروف وأراد جوروف أن ينادي الكلب، ولكن قلبه دق فجأة بعنف، ولم يستطع من الاضطراب أن يتذكر اسم الكلب. وأخذ يتمشى وهو يزداد كراهية للسور الرمادي، وبدأ يفكر بعصبية في أن أنا سر جيفنا قد نسيته وربما تمرح الآن مع رجل غيره، فهذا شيء طبيعي بالنسبة لامرأة شابة، مضطرة أن ترى من



الصباح إلى المساء هذا السور اللعين وعاد إلى غرفته في الفندق، وظل جالساً على الكنبه فترة طويلة وهو لا يدري ماذا يفعل، ثم تغدى، ونام طويلاً ما أغبي كل هذا وأسخفه فكر بعد أن استيقظ وهو ينظر إلى النوافذ المظلمة، فقد كان المساء قد حل ها أنا ذا قد شبعت نوماً، فلماذا؟ وماذا أفعل ليلاً إذن؟ جلس على الفراش المغطى ببطانية رمادية رخيصة مثل بطانيات المستشفى، أخذ ييكت تلك هي السيدة صاحبة الكلب تلك هي المغامرة فلتجلس الآن هنا وقبل ذلك في الصباح كان قد لفت نظره في المحطة إعلان بأحرف كبيرة عن عرض أوبرا فتاة الجيشا لأول مرة وتذكر ذلك الآن فتوجه إلى المسرح وفكر: من الجائز جدا أنها تحضر العروض الأولى كان المسرح مكتظاً وهنا أيضاً، مثلما في جميع مسارح الأقاليم كان الضباب متجمعاً أعلى النجفة، وارتفع اللغط في أعلى المسرح وفي الصفوف الأولى، قبيل بدء العرض، وقف المتأنقون المحليون، عاقدين أيديهم خلف ظهورهم وفي مقصورة المحافظ جلست في الصف الأول ابنته في لفاف من الفرو، أما المحافظ نفسه فكان مختبئاً بتواضع خلف ستار باب المقصورة فلم تظهر سوى يديه واهتزت ستارة المسرح وظل الأوركسترا يضبط آلاته طويلاً وكان جوروف يفتش بعينه في نهم طوال فترة دخول النظارة وشغلهم للمقاعد ودخلت أنا سرجييفنا جلست في الصف الثالث، وعندما



تطلع جوروف إليها خفق قلبه بعنف، وأدرك بوضوح أنه لم يعد لديه في الدنيا كلها إنسان أقرب وأعز وأهم منها هذه المرأة الصغيرة، الضائعة في هذا الحشد الريفى، والتي لا تتميز بشىء، هذه المرأة ذات المنظار المبتذل في يديها، أصبحت الآن تشغل حياته كلها، أصبحت حزنه وفرحته والسعادة الوحيدة التي يرجوها الآن لنفسه وعلى أنغام الأوركسترا السيئ وآلات الكمان السوقية أخذ جوروف يفكر كم هي جميلة كان يفكر ويحلم ودخل مع آنا سرجييفنا وجلس إلى جوارها رجل شاب بسالفين صغيرين، طويل جداً، محنى القامة وكان رأسه يهتز مع كل خطوة، فبدا كأنه ينحنى محبباً باستمرار يبدو أنه زوجها الذي قالت عنه في يالطا في صورة إحساس مرير، إنه خادم وبالفعل فقد كان في قامته الطويلة، وفي سالفه، وفي الصلعة الصغيرة شىء من تواضع الخدم، وكان يبتسم ابتسامة عسلية، ولمعت في عروة سترته شارة علمية كأنها شارة الخدم وفي الاستراحة الأولى انصرف الزوج ليدخن وبقيت هي في مقعدها واقترب منها جوروف، الذي كان يجلس هو أيضاً في الصالة وقال بصوت متهدج وهو يفتصب ابتسامة: مرحباً وتطلعت إليه وامتنعت، ثم تطلعت مرة أخرى برعب وهي لا تصدق عينيها، وأطبقت يدها بقوة على المروحة والمنظار معاً وهي تجاهد فيما يبدو لكي لا تسقط مغشياً عليها وكان كلاهما صامتاً كانت جالسة وهو واقف



وقد أفزعته ارتباكها، دون أن يجرؤ على الجلوس بجوارها وصدحت آلات الكمان والناي التي كان العازفون يضبطونها، وتملكهما الرعب فجأة، وخيل إليهما أن الأنظار تتطلع إليهما من جميع المقصورات ولكن ها هي ذي قد نهضت واتجهت بسرعة نحو باب الخروج، فتبعتها وسارا معاً يتخبطان في الطرقات والسلالم صاعدين هابطين، ومرق أمام عيونهما أناس ما في سترات قضاة ومعلمين وموظفين، ومرقت نساء، ومعاطف فرو على المشاجب، ولفحهما تيار هواء حاملاً رائحة أعقاب السجائر وفكر جوروف وقلبه يخفق بعنف آوه يا إلهي لم هؤلاء الناس، وهذا الأوركسترا؟.

وفي تلك اللحظة تذكر فجأة ذلك المساء في محطة القطار، عندما ودع أنا سرجييفنا وقال لنفسه إن كل شيء قد انتهى ولن يلتقيا بعد ذلك أبداً ولكن كم كانت النهاية بعيدة وعلى سلم ضيق مظلم كتب عليه مدخل أعلى المسرح توقفت كم أفزعنتي قالت وهي تتنفس بصعوبة ولا تزال شاحبة مأخوذة آوه، كم أفزعنتي أنا حية بالكاد لماذا جئت؟ لماذا؟ فقال جوروف بصوت خافت على عجل: - افهميني يا أنا، افهميني أتوسل إليك، افهميني كانت تتطلع إليه بخوف، وتوسل، وحب، بنظرة ثاقبة لكي تطبع ملامحه في ذاكرتها طويلاً.

ومضت تقول دون أن تصغي إليه معك وأردت أن أنسى، أنسى،



فلماذا جئت، لماذا؟ على بسطة السلم العليا كان يقف طالبان، يدخلان ويتطلعان إلى أسفل، ولكن جوروف لم يعد يلقي بالأشياء، فجذب أنا سرجييفنا نحوه، وأخذ يقبل وجهها وخديها ويديها فقالت برعب وهي تدفعه عنها: ما الذي تفعله، ما الذي تفعله لقد أصابنا الجنون ارحل اليوم، ارحل الآن أستحلفك بكل القديسين، أتوسل إليك إنهم قادمون إلى هنا؟ كان هناك شخص يصعد الدرج ومضت أنا سرجييفنا تقول همسا: - ينبغي أن ترحل، أسمعني يا دميتري دميتريتش؟ سأجيء إليك في موسكو أنا لم أكن أبداً سعيدة، والآن أصبحت تعيسة، ولن أكون أبداً سعيدة، أبداً لا تجعلني إذن أتعذب أكثر أقسم لك إنني سأأتي إلى موسكو والآن لنفترق يا عزيزي، يا حبيبي الطيب، لنفترق.

وصافحته ومضت تهبط الدرج بسرعة وهي تلتفت نحوه كثيراً، وكان واضحاً في عينيها أنها لم تكن سعيدة بالفعل ولبث جوروف في مكانه قليلاً وهو يرهف السمع، وعندما هدأ كل شيء بحث عن معطفه وغادر المسرح وأصبحت أنا سرجييفنا تأتي إليه في موسكو كانت تغادر س مرة كل شهرين أو ثلاثة وتقول لزوجها إنها ذاهبة لاستشارة بروفيسور بخصوص مرض نسائي، فكان زوجها يصدقها أولاً يصدقها وعندما تصل إلى موسكو كانت تنزل في سلافيانسكي بازار وترسل إلى جوروف على الفور رسولاً على رأسه قبعة حمراء



وكان جوروف يذهب إليها ولا يعلم أحد في موسكو بذلك.

وذات مرة كان ذاهباً إليها في صباح شتائي جاءه الرسول قبلها في المساء فلم يجده وكانت بصحبته ابنته التي أراد أن يوصلها إلى المدرسة في طريقه وتساقط ثلج مبلل كبير الندف وقال جوروف لابنته: درجة الحرارة الآن ثلاثة فوق الصفر ومع ذلك يسقط الثلج ولكن الجو دافئ فوق سطح الأرض فقط، أما في طبقات الجو العليا فالحرارة مختلفة تماماً بابا، ولماذا لا يرعد الرعد في الشتاء؟.

فشرح لها ذلك أيضاً كان يفكر وهو يتكلم في أنه ذاهب الآن إلى موعد، ولا يعلم بذلك أي إنسان، وربما لن يعلم كان يعيش حياتين: حياة ظاهرة، يعرفها ويراهها كل من ينبغي أن يعرفها ويراهها، حياة مليئة بالصدق النسبي والخداع النسبي، وتشبه تماماً حياة معارفه وأصدقائه، وحياة أخرى تمضي سراً وحسب اتساق غريب للظروف، ربما كان عرضاً، جرى كل ما كان بالنسبة له مهماً، وطريفاً، وضرورياً، كل ما كان فيه مخلصاً وصادقاً مع نفسه، كل ما كان يشكل نواة حياته، جرى في سرية عن الآخرين ما كان كذباً، وقشرة يختبئ خلفها ليخفي الحقيقة، كعمله في البنك مثلاً، ومناقشاته في النادي، وجنسه المنحط، وتردده مع زوجته على الحفلات كل ذلك كان ظاهراً وحسب حاله كان يحكم على الآخرين ولا يصدق ما يراه ويعتقد



دائماً أن لكل إنسان حياته الحقيقية، الشيقة التي تمضي تحت ستار السرية مثلما تحت جناح الليل وكل مخلوق فرد يقوم وجوده على الأسرار، وربما لذلك يسعى الإنسان المثقف بقلق من أجل أن تحترم الأسرار الشخصية.

وبعد أن أوصل جوروف ابنته إلى المدرسة اتجه إلى سلافيانسكي بازار وخلع معطفه في الأسفل وصعد ودق الباب بخفة كانت أنا سرجييفنا في فستانها الرمادي المحبب إليه تنتظره منذ مساء الأمس وقد أرهقها السفر والانتظار كانت شاحبة وتطلعت إليه دون أن تبسم، وما إن دخل حتى ارتمت على صدره وكانت قبلتها طويلة، ممتدة، كأنما لم يلتقيا منذ عامين وسألها جوروف: - كيف حالك؟ ماذا هناك من جديد؟ مهلاً، سأخبرك الآن لا أستطيع لم تستطع أن تتكلم، فقد كانت تبكي واستدارت عنه وضغطت على عينيها بالمنديل وقال جوروف لنفسه: فلتبك قليلاً ولأجلس أنا وجلس في المقعد ثم دق الجرس وطلب شاياً وبعد ذلك، وبينما كان يشرب الشاي، ظلت هي واقفة ووجهها إلى النافذة كانت تبكي من الاضطراب، ومن إدراكها الحزين بأن حياتهما تمضي على هذا النحو البائس إذ لا يلتقيان إلا سراً، ويختبئان من الناس كاللصوص أليست حياتهما محطمة؟ وقال جوروف هيا، كفالك بكاء كان من الواضح له



أن حبهما هذا لن ينتهي قريباً، وليس معروفاً متى ينتهي وتعلقت به أنا سرجيئنا أكثر فأكثر، وكانت متيمة به، ولم يكن من المعقول أن يقول لها إن كل ذلك لا بد أن تكون له في وقت ما نهاية وما كانت لتصدق ذلك واقترب منها وأمسك بكتفيها لكي يلاطفها ويداعبها، وفي تلك اللحظة رأى صورته في المرأة كان رأسه قد بدأ يشيب وبدأ له غريباً أنه هرم وتدهور إلى هذه الدرجة في الآونة الأخيرة وكانت الكتفان اللتان وضع عليهما يديه دافئتين ترتعشان وأحس بالعطف على هذه الحياة، التي كانت لا تزال دافئة جميلة، ولكنها ربما تقترب من الذبول والانطفاء كحياته هو ترى لماذا تحبه هكذا؟ لقد كان يبدو للنساء دائماً على غير حقيقته، ولم يكن يحبهنه هو نفسه، بل يحبهن فيه الرجل الذي صنعه خيالهن والذي كن يبحثن عنه في حياتهن بنهم وبعد ذلك، عندما يدركن خطأهن، كن مع ذلك يحبهنه ولم تكن أي منهن سعيدة معه وكان الزمن يمضي وهو يتعرف ويصادق ويفارق، ولكنه لم يعرف الحب مرة واحدة كان ذلك أي شيء سوى أن يكون حباً والآن فقط، عندما شاب رأسه، أحب كما ينبغي، حباً حقيقاً لأول مرة في حياته أحبها هو وأنا سرجيئنا بعضهما البعض كشخصين قرييين جداً، كأهل، كزوج وزوجة، كصديقين رقيقين، وبدأ لهما أن القدر نفسه قد هيأهما أحدهما للآخر، ولم يكن مفهوماً لماذا هو متزوج وهي متزوجة وكأنما كانا طائرین مهاجرين، ذكراً وأنثى،



أمسكوا بهما وأجبروهما على العيش في قفصين منفردين لقد غفرا لبعضهما البعض كل ما كانا يخجلان منه في ماضيهما، وغفرا كل ما في حاضرهما، وأحسا أن حبهما هذا قد غيرهما كليهما وكان في لحظات الحزن سابقاً يطمئن نفسه بشتى الأفكار التي كانت ترد إلى ذهنه، أما الآن فكان في شاغل عن الأفكار كان يشعر بشفقة عميقة وبرغبة في أن يكون صادقاً ورقيقاً وقال لها: كفي بكاء يا حبيبتي، هذا يكفي تعالى نتحدث وسوف نصل إلى حل وظلا يتشاوران طويلاً ويتحدثان في كيفية التخلص من التخفي والخداع والمعيشة في مدينتين مختلفتين والفراق الطويل، وكيف يتحرران من هذه الأغلال التي لا تطاق؟ كيف؟ تساءل وهو يمسك برأسه - كيف؟.

وبدا له أنه لم يبق إلا قليل ويعثر على الحل، وعندها تبدأ حياة جديدة رائعة وكان من الواضح لهما معاً أن النهاية لا تزال بعيدة بعيدة، وأن أعقد شيء وأصعبه يبدأ لتوه.



العروس

كانت الساعة العاشرة مساءً، والبدر المكتمل يسطع فوق الحديقة وفي منزل آل شومين انتهت لتوها صلاة الليل التي أقيمت بطلب من الجدة مارفا ميخايلوفنا، وأصبحت نادبة التي خرجت إلى الحديقة لدقيقة ترى كيف يعدون المائدة في القاعة، وكيف كانت الجدة تروح وتجيء في فستانها الحريري المنتفخ أما الأب أندريه، راعى الكاتدرائية، فكان يتحدث عن شيء مامع نينا إيفانوفنا والدة نادبة، وأصبحت أمها الآن في ضوء المساء تبدو خلال النافذة لسبب ما شابة جداً وبجوارهما وقف أندريه أندريتش ابن الأب أندريه، مصغياً بانتباه.

كان الجو في الحديقة هادئاً، بارداً، وامتدت على الأرض ظلال داكنة ساكنة وتناهى من مكان بعيد، بعيد جداً، ربما وراء المدينة، نقيق الضفادع وانتشرت في الجو رائحة مايو، مايو الحبيب وتسرب الهواء عميقاً في الصدر، واستبدت بنادية الرغبة في التفكير بأنه في مكان ما غير هذا المكان، تحت السماء، وفوق الأشجار، بعيداً وراء المدينة، في الحقول والغابات انطلقت الآن حياة الربيع الخاصة،



الغامضة، الرائعة، الخصبة والمقدسة، البعيدة عن إدراك الإنسان الضعيف المذنب وأرادت أن تبكى لسبب ما؟

انت نادية في الثالثة والعشرين ومنذ أن بلغت السادسة عشرة وهي تحلم بالزواج بشغف، وها هي ذي أخيراً قد أصبحت عروس أندريه أندريتش، ذلك الذي يقف وراء النافذة كان يروق لها، وقد تحدد يوم الزفاف في السابع من يوليو، ومع ذلك لم تشعر بالفرحة، وكانت تنام نوماً سيئاً، وهجرها المرح ومن القبو الذي كان المطبخ فيه، تناهى عبر النافذة المفتوحة صوت الحركة المستعجلة ورنين السكاكين وصفق الباب، وانبعثت روائح الديك الرومي المحمر والكرز المخلل ولسبب ما خيل إليها أن ذلك سوف يظل هكذا طوال الحياة، دون تغيير.

ها هو ذا شخص يخرج من المنزل ويقف على السلامك إنه ألكسندر تيموفيتش، أو ببساطة ساشا الضيف الذي جاء من موسكو منذ عشرة أيام منذ زمن بعيد كانت تتردد على الجدة طلباً للصدقة إحدى قريباتها من بعيد، وتدعى ماريا بتروفنا وكانت أرملة من النبلاء المفلسين، صغيرة، نحيلة، مريضة وكان لديها ابن، هو ساشا ولسبب ما قيل إنه مصور بارع، ولما ماتت أمه، أرسلته الجدة، زكاة عن



نفسها، إلى موسكو، إلى معهد كوميسارو فسكويه وبعد حوالي سنتين انتقل إلى معهد التصوير، وقضى فيه زهاء خمسة عشر عاماً وتخرج كيفما كان من قسم العمارة، ومع ذلك لم يمارس العمارة، بل عمل في إحدى ورش التشكيل بموسكو وكان يأتي كل صيف تقريباً إلى الجدة، وهو مريض عادة، لكي يستريح ويشفي كان يرتدي الآن سترة مزررة وسروالاً قديماً من القماش السميك، مجعداً في الأسفل ولم يكن قميصه مكويًا، وكانت هيأته كلها تبدو ذابلة كان نحيلاً للغاية، بعينين واسعتين، وأصابع طويلة دقيقة، ولحية، وكان أسمر، جميلاً رغم ذلك وقد ألف آل شومين كأهله، وكان يحس وسطهم كأنه في بيته والغرفة التي كان ينزل فيها هنا كانت تسمى منذ زمن بعيد غرفة ساشا ورأى نادبة وهو واقف على السلامك فاتجه نحوها وقال: ما أجمل المكان عندكم هنا طبعاً جميل ابق هنا حتى الخريف نعم، يبدو أنني سأفعل، سأبقى لديكم على الأرجح حتى سبتمبر وضحك دون سبب وجلس بقربها وقالت نادبة: إنني أجلس هنا وأنظر إلى أمي إنها تبدو من هنا شابة للغاية وأضافت بعد صمت قصير بالطبع لدى أمي بعض الجوانب الغربية، ولكنها رغم ذلك امرأة رائعة فقال ساشا مؤمناً:

- نعم، طيبة إن أمك امرأة طيبة ورقيقة جداً، بالطبع على



طريقتها الخاصة، ولكن كيف أوضح لك؟ لقد دخلت مطبخكم اليوم في الصباح الباكر، فرأيت هناك أربع خادمت ينمن على الأرض مباشرة، وليس هناك أسرة، وبدلاً من الفراش أسمال بالية، وروائح كريهة، وبقي صراصير نفس الوضع الذي كان منذ عشرين عاماً، دون أي تغيير حسناً، بالنسبة للجدّة واضح، ليغفر لها الله، ولكن ماما، أظن أنها تتحدث الفرنسية وتشارك في العروض المسرحية من المفروض أن تدركو عندما كان ساشا يتكلم، كان يبسط أمام المستمع أصبعين طويلتين نحيفتين ومضى يقول:

كل شيء هنا يبدو لي غريباً غير مألوف الشيطان يعلم ما هذا إن أحداً لا يريد أن يعمل أمك تقضى النهار في التنزه وكأنها إحدى الدوقات، والجدّة أيضاً لا تفعل شيئاً، وأنت أيضاً وعريسك أندريه أندريتش أيضاً لا يفعل شيئاً سمعت نادية هذا في العام الماضي أيضاً، ويبدو في العام الأسبق كذلك، وكانت تعلمان ساشالا يمكن أن يفكر بصورة أخرى، وكان ذلك يضحكها في السابق، لكنها لسبب ما أحست الآن بالأسى وقالت وهي تنهض: كل هذا قديم ومللت من زمان عليك أن تبتكر شيئاً أكثر جدّة فضحك ونهض هو الآخر، وسارا نحو المنزل وبدت بطولها وجمالها ورشاقتها بجواره صحيحة



جداً وأنيقة وأحست هي بذلك فشعرت بالرتاء له وبالحرص لسبب ما وقالت له: - ثم إنك تقول كلاماً كثيراً زائداً ها قد تحدثت لتوك عن أندريه خطيبي، مع أنك لا تعرفه.

- أندريه خطيبي دعينا منه أندريه خطيبك ولكني أرثي لشبابك عندما دخلا القاعة كان الحاضرون قد جلسوا إلى المائدة وكانت الجدة، البدينة، الدميمة، بحاجبيها الغزيرين وشاربها الدقيق، تتحدث بصوت عال، وبدا من صوتها وطريقة كلامها أنها ربة المنزل كانت تملك حوانيت في السوق قديماً بأعمدة وحديقة، لكنها كانت تصلى لله كل صباح ليحميها من الإفلاس وتبكي في أثناء ذلك وكانت هنا زوجة ابنها نينا أيفانوفنا، والدة نادية، الشقراء المشدودة بالكورسيه بقوة، والتي تضع عوينات وخاتماً ماسياً في كل أصبع، وكان هنا أيضاً الأب أندريه، وهو عجوز نحيف، بلا أسنان، وعلى وجهه تعبير من ينوي أن يروي شيئاً مضحكاً للغاية، وابنه أندريه أندريتش، خطيب نادية، وهو رجل ممتلئ وجميل، يشعر مجعد الخصلات، ويشبه ممثلاً أو مصوراً.

-وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن التتويم المغنطيسي وقالت الجدة مخاطبة ساشا:



ستسترد عافيتك عندي في أسبوع فقط كل أكثر وتتهدت وقالت
انظر ماذا تشبه لقد أصبحت مربعاً بالك من ابن ضال حقاً وقال
الأب أندريه ببطء والابتسامة تشع من عينيه وبعد أن بدد ميراث أبيه،
هام الملعون على وجهه مع البهائم فقال أندريه أندريتش وهو يضع
يده على كتف أبيه كم أحب والدي إنه عجوز رائع عجوز طيب وصمت
الجميع وفجأة ضحك ساشا وغطي فمه بالمنشفة وسأل الأب أندريه
نينا إيفانوفنا: إذن فأنت تؤمنين بالتتويم المغنطيسي؟ فأجابت وهي
تضفي على وجهها تعبيراً جاداً للغاية بل وصارماً: أنا لا أستطيع أن
أؤكد أنني أوّمن، ولكن ينبغي أن أعترف أن هناك الكثير من الأشياء
الغامضة وغير المفهومه في الطبيعة.

- أنا متفق معك تماماً، وإن كنت أجد لزاماً على أن أضيف بأن
الإيمان يضيق لنا إلى حد كبير مجال الأشياء الغامضة.

وحمل الخدم ديگاً رومياً كبيراً وسميناً جداً وواصلت نينا
إيفانوفنا والأب أندريه حوارهما كانت الخواتم الماسية تلمع في
أصابع نينا إيفانوفنا، ثم لمعت الدموع في عينيها إذ كانت مضطربة
وقالت: رغم أنني لا أجرؤ على مجادلتك، ولكن أرجو أن توافقني
على أن الحياة مليئة بالألغاز التي لم تحل ولا لغز واحد، أستطيع أن



أؤكد لك وبعد العشاء عزف أندريه أندريتش على الكمان وصاحبته نينا إيفانوفنا على المعزف كان قد تخرج منذ عشر سنوات من كلية الآداب بالجامعة، ولكنه لم يلتحق بالخدمة ولم يكن يزاول عملاً محدداً، وكان نادراً ما يشارك في الحفلات الموسيقية للأغراض الخيرية وسموه في المدينة بالفنان.

كان أندريه أندريتش يعزف، والجميع يصغون في صمت وعلى المائدة كان السماور يغلى بهدوء، ولم يشرب الشاي أحد سوى ساشا وعندما دقت الساعة الثانية عشرة انقطع فجأة وتر في الكمان فضحك الجميع، وساد بعض الهرج، ثم أخذوا يودعون وبعد أن ودعت نادية خطيبها صعدت إلى غرفتها بالطابق الثاني حيث كانت تعيش مع أمها كان الطابق الأسفل للجدّة وفي الأسفل أخذوا يطفئون الأنوار في القاعة بينما ظل ساشا جالساً يشرب الشاي كان دائماً يستغرق وقتاً طويلاً في شرب الشاي، على الطريقة الموسكوفية، فيشرب حوالي سبعة أكواب في المرة الواحدة وظلت نادية تسمع طويلاً، بعد أن خلعت ثيابها وأوت إلى الفراش، أصوات الخدم وهم يجمعون الأواني، والجدّة وهي تصيح غاضبة ثم هدأ أخيراً كل شيء، ولم يعد مسموعاً سوى سعال متقطع صادر عن غرفة ساشا في الأسفل.



يبدو أن الساعة كانت حوالي الثانية عندما استيقظت نادية، فقد بدأ الفجر يلوح وفي مكان ما دق الحارس منبهاً لم تكن راغبة في النوم وكان مرقدها ليناً جداً، غير مريح وكما في كل ليالي مايو السابقة جلست في السرير وراحت تفكر وكانت أفكارها هي نفس أفكار الليلة السابقة، أفكاراً رتيبة، لضرورة لها، أفكاراً ملحة حول أندريه أندريتش وكيف أخذ يتودد إليها وعرض عليها الزواج فقبلت، ثم استطاعت شيئاً فشيئاً أن تقدر هذا الشخص الطيب الذكي لكنها لا تعرف لماذا أصبحت الآن، ولم يبق على العرس أكثر من شهر، تحس بالخوف والقلق، كأنما ينتظرها شيء غير واضح وصعب ودق الحارس بكسل: تك، تك، تك تك.

عبر النافذة الكبيرة القديمة تراءى البستان، ومن بعده خمائل البنفسج المزهرة الكثيفة، الناعسة والذابلة من البرد ويقترب الضباب الأبيض الكثيف من البنفسج ببطء ويريد أن يغطيه وعلى الأشجار البعيدة تصيح الغربان الناعسة يا إلهي، لماذا أشعر بهذا الضيق.

ربما هذا هو ما تحسه كل فتاة قبيل العرس، من پدرى أم إن هذا من تأثير ساشا؟ ولكن ساشا يقول نفس الكلام منذ عدة سنوات متتالية، وكأنه يقرأ من كتاب، وعندما يتكلم يبدو ساذجاً وغريباً ولكن



لماذا لا يخرج ساشا من رأسي؟ لماذا؟.

كف الحارس منذ وقت طويل عن الدق، وصاحت الطيور تحت النافذة في البستان، وانقشع الضباب عن البستان وشع كل شيء بنور ربيعي وكأنه يبتسم، وسرعان ما استيقظ البستان كله وقد أدفأته الشمس وداعبته، ولمعت قطرات الندى كالماسات على الأوراق وفي هذا الصباح بدا البستان العجوز، المهمل منذ أمد بعيد، فتياً وأنيقاً واستيقظت الجدة وسعل ساشا بصوت غليظ أجش وتناهدت من أسفل أصوات الخدم وهم يضعون السماور ويزحزون المقاعد .

الساعات تمضي ببطء لقد استيقظت نادية منذ زمن طويل، وتزهت فيالبستان منذ زمن طويل، ومع ذلك لا يزال الصباح ممتداً وها هي ذي نينا إيفانوفنا، دامعة العينين، تمسك بكوب مياه معدنية لقد كانت تمارس تحضير الأرواح، والعلاج بالأعشاب، وتقرأ كثيراً، وتهوى الحديث عن الشكوك التي تتابها، وبدا كل ذلك لنادية مشتملا على مغزى غامض عميق وها هي ذي نادية تقبل أمها وتمضي إلى جوارها وسألتها: ما الذي أبكاك يا ماما؟ ليلة أمس أخذت أقرأ رواية تتحدث عن رجل عجوز وابنته والعجوز يعمل في مكان ما، لا أذكر، وأحب رئيسه ابنة العجوز لم أكمل الرواية، ولكن فيها موضعاً لم



أستطع أن أمنع فيه دموعي قالت نينا إيفانوفنا وجرعت من الكوب جرة - لقد تذكرت ذلك الموضوع اليوم فبكيت أيضاً.

وقالت نادية بعد صمت: - أما أنا فأشعر بالتعاسة في هذه الأيام لماذا لا أنام الليل؟ لست أدري يا عزيزتي أما أنا فعندما يجافيني النوم، أغمض عيني بقوة، هكذا، وأتخيل أنا كارينينا، وكيف تسير وتتحدث، أو أتخيل شيئاً تاريخياً من العالم القديم وأحست نادية أن أمها لا تفهمها ولا تستطيع أن تفهمها أحست بذلك لأول مرة في حياتها، حتى لقد أصابها الجزع، وراودتها رغبة في الاختفاء، فصعدت إلى غرفتها وفي الثانية جلسوا إلى مائدة الغداء كان اليوم أربعاء، يوم صيام، ولذلكقدموا للجدة حساء البورش بدون سمن، وسمكة الإبريس بالعصيدة.

ولكي يثير الجدة أكل ساشا حساء الدسم وحساء البورش بدون السمن وكان يمزح طوال فترة الغداء، ولكن نكاته كانت ثقيلة، ودائماً ذات موعظة خلقية فلم تثر الضحك أبداً عندما كان يرفع أصابعه الطويلة جداً، النحيلة وكأنها ميتة، قبل أن يمزح وعندما يطوف بالذهن أنه مريض وربما لن يعمر كثيراً في هذه الدنيا، يزداد الرثاء له إلى درجة البكاء وانصرفت الجدة بعد الغداء إلى غرفتها لتستريح



وعزفت نينا إيفانوفنا قليلاً على المعزف ثم انصرفت هي الأخرى وبدأ ساشا حديثه المعهود بعد الغداء: - آه يا نادية العزيزة لو سمعت كلامي لو كانت غائصة في مقعد عتيق، وقد أغمضت عينيها، بينما كان هو يجوس في الغرفة ذهاباً وإياباً، ويقول: لو أنك رحلت للدراسة الأشخاص المتتورون والقديسون هم وحدهم الشيقون، هم وحدهم الضروريون، فكلما ازداد أمثال هؤلاء، اقترب موعد قيام ملكوت الله في الأرض وعندئذ لا يبقى من مدينتكم بالتدريج حجر واحد كل شيء سينقلب رأساً على عقب، كل شيء سيتغير وكأنما مسه سحر وستكون هنا عندئذ بيوت ضخمة عظيمة، وبساتين ساحرة، ونافورات مدهشة، وأناس رائعون ولكن ليس هذا هو المهم المهم أن الغوغاء، كما نفهمهم نحن الآن، هذا الشر لن يعود موجوداً، لأن كل إنسان سيكون مؤمناً وسيعرف لماذا يعيش، ولن يبحث أحد عن ركيعة في الغوغاء يا عزيزتي، سافري أظهري للجميع أن هذه الحياة الراكدة الرمادية الآثمة قد أضجرتك أظهري هذا ولو لنفسك لا يصح يا ساشا، إنني سأتزوج أوه، كفاك من بحاجة إلى ذلك؟ وخرجا إلى البستان وتمشياً قليلاً ومضى ساشا يقول أياً كان الأمر يا عزيزتي ينبغي عليك أن تفكري، أن تدركي كم هي ملوثة ولا أخلاقية حياتكم الفارغة هذه ألا تفهمين أنه مثلاً، إذا كنت أنت وأمك وجدتك



لا تفعلن شيئاً، فهذا يعني أن أحداً ما يعمل بدلاً منكن، إذن فأنتن تلتهمن حياة الآخرين، فهل هذا من الشرف، أليست وضاعة؟

أرادت نادية أن تقول: نعم، هذا صحيح، وأرادت أن تقول إنها تدرك ذلك، ولكن الدموع تفرقت في عينيها فسكنت فجأة وانكمشت وتوقعت وزهبت إلى غرفتها وقبيل المساء جاء أندريه أندريتش، وكالعادة عزف طويلاً على الكمان وعموماً فقد كان قليل الكلام ويحب الكمان، ربما لأنه من الممكن أن يصمت أثناء العزف وفي الحادية عشرة، وهو خارج بعد أن ارتدى المعطف، ضم نادية إليه وراح يقبل وجهها وكتفيها وذراعيها بنهم، وهو يدمدم يا عزيزتي، يا رائعتي أوه كم أنا سعيد، إنى أجن إعجاباً وخيل إليها أنها سمعت ذلك منذ أمد بعيد، بعيد جداً، أو قرأته في كتابها في رواية قديمة، ممزقة، مهجورة من زمان.

في القاعة كان ساشا جالساً إلى المائدة يشرب الشاي وقد وضع طبق الفنجان على أصابعه الخمس الطويلة وكانت الجدة تفرش أوراق اللعب، ونينا إيفانوفنا تقرأ، وطقطق اللهب في قنديل الأيقونة، وبدا أن الهدوء والتوفيق يلان كل شيء وودعتهم نادية وصعدت إلى أعلى ورقدت وسرعان ما نامت ولكن كما في الليلة السابقة،



استيقظت ما إن انبلج الضوء جفاها النوم، وأحست بالقلق والضيق وجلست واضعة رأسها على ركبتيها وأخذت تفكر في خطيبها وفي الزفافولسبب ما تذكرت أن أمها لم تكن تحب المرحوم زوجها، ولم يعد لديها الآن شيء، وتعيش في تبعية كاملة لحمايتها، للجدّة ولم تستطع أيضاً نائماً في الأسفل، فقد تناهى سعاله من هناك وفكرت نادية في أنه شخص غريب ساذج وفي جميع أحلامه، في جميع بساينه الساحرة ونافوراته المدهشة تحس بشيء أخرق ولكن لم يبدو في سذاجته وحتى في هذا الخرق قدر كبير من الروعة، لدرجة أنها ما إن فكرت في الرحيل للدراسة مجرد تفكير حتى غاص قلبها وامتلاً بالفرحة والإعجاب؟.

وهمست لنفسها: ولكن من الأفضل ألا أفكر من الأفضل ألا أفكر لا يجب أن أفكر في هذا وفي مكان بعيد دق الحارس: توك توك توكوفي منتصف يونيو أحس ساشا بالوحشة فجأة ومضى يستعد للرحيل وقال عابساً: - لا أستطيع أن أعيش في هذه المدينة، لا مياه شرب ولا مجارى إنني أتنقّز من تناول الغداء، والمطبخ قذر بصورة لا تطاق وقالت الجدّة تقنعه بصوت هامس لسبب ما: انتظر أيها الابن الضال العرس في السابع من يوليو لا أريد - كنت تريد أن تبقى عندنا



حتى سبتمبر لكني الآن لا أريد ينبغي أن أعمل؟ كان الصيف رطباً بارداً، والأشجار مبللة، وبدا كل شيء في البستان متجهماً مهموماً، وبالفعل كان هناك تشوق للعمل وفي غرف الطابقين الأعلى والأسفل ترددت أصوات نسائية غريبة، وطقطقت ماكينة الخياطة لدى الجدة: كانوا يعجلون بإعداد جهاز العروس خصصوا لنادية من معاطف الفراء وحدها ستة، وأرخصها، حسب كلام الجدة، يساوي ثلاثمائة روبل وأثار الهرج والمرج ساشا، فجلس في غرفته من حينها ومع ذلك أقنعوه بالبقاء ووعد بالا يسافر قبل أول يوليو.

نادية بأي حال لن تفهم لماذا كانت ترى في أمها حتى هذه اللحظة شيئاً خاصاً، غير عادي، ولماذا لم تلاحظ أنها امرأة عادية، بسيطة، تعيش مضي الوقت بسرعة وفي عيد القديس بيوتر تمشي أندريه أندرييتش مع نادية بعد الغداء في شارع موسكوفسكايا، لكي يتفقدوا مرة أخرى المنزل الذي استأجروه وجهزوه منذ فترة طويلة لاستقبال العريسين كان منزلاً من طابقين، ولكن لم يكن مجهزاً بعد سوى الطابق الثاني وكانت أرضية القاعة مطلية بلون يشبه الباركيه وبها كراسي خيزران، ومعزف، وحامل نوتات للكمان وفاحت رائحة الطلاء، وعلقت على الجدار لوحة كبيرة مؤطرة مرسومة بالألوان



عارية بجوارها مزهرية ليلكية بمقبض مكسور وقال أندريه أندريتش وهو يتنهد احتراماً لوحة رائعة، من رسم المصور شيشماتشيفسكى. وبعد القاعة كانت غرفة جلوس بطاولة وكنبة ومقاعد مكسوة بقماش أزرق فاقع وفوق الكنبه صورة فوتوغرافية كبيرة لوالد أندريه في قلنسوة فخرية وأوسمة ثم دلفا إلى غرفة الطعام ذات البوفيه، ثم إلى غرفة النوم كانت شبه مظلمة، تضم سريرين متجاورين، وبدا أنهم عندما فرشوا هذه الغرفة وضعوا في اعتبارهم أن الحال سيكون هنا ممتازاً دائماً، ولا يمكن أن يكون على غير هذه الصورة وطاف أندريه أندريتش بنادية على الغرف وهو ممسك بخصرها طوال الوقت أما هي فقد أحست بنفسها ضعيفة، مذنبه، وامتألت كراهية لهذه الغرف والأسرة والمقاعد، وأحست بالغثيان من منظر المرأة العارية لقد أصبح من الواضح لها أنها لم تعد تحب أندريه أندريتش، أو ربما لم تحبه أبداً ولكن كيف تقول ذلك، ولمن تقوله، ولأي غرض، لم تكن تفهم ولا تستطيع أن تفهم، رغم أنها كانت تفكر في ذلك طوال الأيام والليالي كان ممسكاً بخصرها ويتحدث برقة وتواضع، وكان سعيداً جداً وهو يجول في شقته هذه أما هي فلم تر في كل هذا سوى الابتذال، الابتذال الأحمق الساذج غير المحتمل،



وبدت لها ذراعه التي تطوق خصرها قاسية باردة كالطوق، وكانت على استعداد في كل لحظة لأن تولى هاربة، أو تنتحب وتلقى بنفسها من النافذة وقادها أندريه أندريتش إلى الحمام ولمس صنبوراً مركباً في الحائط فسالت المياه فجأة فقال وهو يضحك: ماذا تقولين؟ لقد أمرت بصنع خزان في السقف سعته مائة دلو، وسيصبح لدينا الآن مياه في المنزل وسارا في الفناء ثم خرجا إلى الشارع فاستقلا عربة كان الغبار يثور سحباً كثيفة، وبدا أن المطر على وشك السقوط وسألها أندريه أندريتش وهو يزر عينيه من الغبار: - هل تشعرين بالبرد؟ فلزمت الصمت وقال هو بعد فترة صمت: - أتذكرين بالأمس عندما لامني ساشا لأنني لا أفعل شيئاً حسناً، إنه على حق على حق مائة في المائة أنا لا أفعل شيئاً ولا أستطيع أن أفعل ما السبب في ذلك يا عزيزتي؟ لماذا أشعر بالقرف من مجرد فكرة أن أضع عمرة على رأسي في وقت ما وألتحق بوظيفة؟ لماذا أشعر بالضيق عندما أرى محامياً، أو مدرس اللغة اللاتينية أو عضو مجلس المدينة؟ أوه أمانا روسيا يا أمانا روسيا، كم مازلت تحملين على ظهرك من أناس فارغين لا فائدة منهم كم فيك من أشخاص مثلي أيتها المعذبة وجعل من عدم قيامه بشيء وضعاً عاماً ورأى فيه دلالة العصر واستطرد يقول: عندما نتزوج سنذهب معاً إلى القرية يا عزيزتي ونعمل هناك



سنشتري قطعة أرض صغيرة ببستان ونهر، وسوف نكدح ونتأمل الحياة أوه ما أطيب ذلك؟ ونزع قبعته فتطاير شعره في الريح، أما هي فكانت تصغي إليه وتفكر: يا إلهي، أريد أن أعود إلى المنزل، يا إلهي وقرب المنزل لحقا بالأب أندريه فقال أندريه أندريتش سعيداً وهو يلوح بقبعته ها هو ذا أبي هناك كم أحب والدي حقاً قال وهو يحاسب الحوذى.

عجوز رائع، عجوز طيب.

دخلت نادية المنزل غاضبة، مريضة، وهي تفكر أن المساء كله سيكون مشغولاً بالضيوف، وأن عليها أن تسليهم، وتبتسم، وتصغي إلى الكمان وتسمع أي هراء، ولا تتحدث إلا عن الزفاف وكانت الجدة جالسة بجوار السماور، وتبدو هامة، منتفخة في فستانها الحريري، ومتعالية كما كانت تتظاهر دائماً في حضرة الضيوف ودخل الأب أندريه بابتسامته الماكرة وقال للجدة محيياً: يسعدني ويطيب لي أن أراك في كامل عافيتك وكان من الصعب أن تفهم هل يمزح أم يقول جاداً.

قرعت الريح النوافذ والسقف وتردد صفير، وكانت الساعة الأولى بعد منتصف الليل وأوي الجميع في المنزل إلى أسرتهم لكن أحداً لم ينم، وتراءى لنادية أن الكمان لا يزال يعزف في الأسفل وسمعت



طرفة حادة، لا بد أن مصراع الشيش قد انكسر وبعد دقيقة دخلت نينا إيفانوفنا في قميص النوم وبيدها شمعة وسألت: - ما هذا الذي طرق يا نادية؟ وبدأت أمها في هذه الليلة العاصفة، بشعرها المجدول ضفيرة واحدة، وبابتسامتها الوجلة، أكبر سناً وأكثر دمامة وأقصر قامة وتذكرت نادية كيف كانت تعد أمها منذ فترة قريبة امرأة غير عادية وكانت تصغي بفخر إلى ما تقوله من كلمات أما الآن فلم تستطع أبداً أن تتذكر تلك الكلمات، وكل ما خطر ببالها كان باهتاً، لا لزوم لهوتردد في المدفأة غناء عدة أصوات غليظة، بل سمعت حتى كلمة: آه، يا إلهي وجلست نادية في الفراش وفجأة شدت شعرها بقوة وانفجرت بالنحيب ودمدمت:

ماما، ماما، يا حبيبتي، لو تعلمين ما أعانى أرجوك، أتوسل إليك، دعيني أسافر أتوسل إليك فسألت نينا إيفانوفنا دون أن تفهم: إلى أين؟ إلى أين تسافرين؟ وجلست في الفراش وبكت نادية طويلاً دون أن تستطيع أن تتطرق بكلمة وأخيراً قالت: - دعيني أرحل من المدينة لا ينبغي أن يتم الزفاف، ولن يتم؟ انهيني، أنا لا أحب هذا الشخص ولا أستطيع أن أتحدث عنه فقالت نينا إيفانوفنا بسرعة وقد خافت بشدة: - كلا، يا حبيبتي، كلا اهدئي، هذا بسبب المزاج المعتل سيزول



هذا يحدث أحياناً ربما اختلفت مع أندريه، ولكن شجار المحبين لهو
فقال نادية منتحبة: حسناً، اذهبي يا ماما، اذهبي؟ وصمتت نينا
إيفانوفنا ثم قالت:

نعم، منذ فترة قريبة كانت طفلة، صبية، والآن أصبحت عروساً
في الطبيعة يحدث دائماً تمثيل غذائي ولن تلاحظي إلا وقد أصبحت
أماً وعجوزاً، وستكون لديك ابنة متمردة مثلما لدى فقالت نادية:

- يا حبيبتي الطيبة، إنك ذكية، إنك تعيسة، أنت تعيسة جداً،
فلماذا تقولين أشياء وضيعة؟ لماذا، أستحلفك بالله؟ وأرادت نينا
إيفانوفنا أن تقول شيئاً، ولكنها لم تستطع أن تنبس بكلمة فأجهشت
وانصرفت وعادت الأصوات الغليظة تنز في المدفأة، وشعرت نادية
بالخوف فجأة، فقفزت من السرير وأسرعت إلى أمها كانت نينا
إيفانوفنا راقدة في الفراش، دامعة العينين، مغطاة ببطانية زرقاء
وممسكة في يديها بكتاب وقالت نادية:

- أصغى إلى يا ماما أتوسل إليك أن تتمعنى و تفهمى انظرى كم
هي ضحلة

ومهينة حياتنا لقد فتحت عيني وأرى الآن كل شيء وما هو أندريه
أندريتش هذا؟ إنه غير ذكى يا ماما يا إلهى، يا ربى افهمى يا ماما،



إنه غبي فجلست نينا إيفانوفنا بحدة، وقالت وهي تجهش: أنت وجدتك تعذبانني أنا أريد أن أعيش أن أعيش رددت وضريت على صدرها بقبضتها مرتين أعطوني حرיתי أنا ما زلت شابة، وأريد أن أعيش أما أنتم فجعلتم منى عجوزا.

وبكت بحرقة ورقدت وتكورت تحت البطانية، فبدت جد صغيرة وبائسة وغبية ومضت نادية إلى غرفتها فارتدت ملابسها وجلست إلى النافذة تنتظر الصباح ظلت طول الليل جالسة تفكر بينما كان أحد ما يطرق الشيش طوال الوقت ويصفر وفي الصباح اشتكت الجدة من أن الريح في الليل أسقطت كل التفاح في البستان وكسرت شجرة برقوق عجوز وكان الجو رمادياً كابياً، مقبضاً يتطلب إشعال الضوء واشتكى الجميع من البرد، وقرع المطر النوافذ وبعد تناول الشاي مضت نادية إلى ساشا، ودون أن تتفوه بكلمة ركعت على ركبتها في الركن بجوار المقعد وغطت وجهها بيديها فسألها ساشا: - ماذا حدث؟

فدمدمت: - لا أستطيع كيف احتملت العيشة هنا من قبل، لا أفهم، لا أتصور إنني أحتقر خطيبي، أحتقر نفسي، أحتقر كل هذه الحياة الفارغة، العديمة المعني فدمدم ساشا وهو لا يفهم بعد ماذا حدث: حسناً، حسناً، لا بأس، هذا حسناً فمضت نادية تقول



مللت هذه الحياة لن أتحمل هنا يوماً واحداً سأسافر غداً خذني معك، أستحلفك بالله

ظل ساشا يحدق فيها بدهشة حوالي دقيقة، وأخيراً فهم ففرح كطفل ولوح بذراعيه وبدأ يدق بحذائه وكأنه يرقص من الفرحة وقال وهو يفرك يديه: - هذا رائع، يا إلهي ما أروع ذلك أما هي فحدقت فيه كال مسحورة، دون أن تطرف، بعينين واسعتين عاشقتين متوقعة أن يقول لها الآن شيئاً ذا قيمة، لا حدود لأهميته ولم يكن قد قال شيئاً بعد لكنه خيل إليها أن شيئاً ما جديداً عريضاً لم تعرفه من قبل يتكشف أمامها، فراحت تنظر إلى ساشا وكلها انتظار، ومستعدة لكل شيء حتى ولو للموت وقال بعد لحظة تفكير: غداً سأسافر، ولتذهبي إلى المحطة لوداعى سأخذ أمتعتك في حقيبتي وأشتري لك تذكرة وعندما يدق الجرس الثالث ادخلي العربة، ونرحل معاً ستوصليتني إلى موسكو ثم تواصلين سفرك إلى بطرسبرج هل لديك بطاقة شخصية؟.

نعم وقال ساشا بحماس أقسم لك إنك لن تتدمى ولن تأسفي وستسافرين وتلتحقين بالدراسة، ليتولك القدر عندما تقلبين حياتك ستغير كل شيء المهم أن تقلبي الحياة، وكل ما عدا ذلك غير مهم



حسنا، إذن سنسافر غدا؟ - نعم أستحلفك بالله وخيل لنادية أنها مضطربة جداً، وأن قلبها منقبض كما لم ينقبض من قبل، وأن عليها من الآن وحتى الرحيل أن تعاني وتفكر بعذاب ولكن ما إن صعدت إلى غرفتها وتمددت على السرير حتى غابت في سبات عميق حتى المساء، بوجه باك عليه ابتسامة.

أرسلوا يستدعون عربية وكانت نادية قد ارتدت المعطف والقبعة وصعدت إلى أعلى لتلقي نظرة أخرى على أمها وعلى كل ما لها ووقفت في غرفتها بجوار الفراش الذي كان لا يزال دافئاً، ونظرت حولها، ثم ذهبت بهدوء إلى غرفة أمها كانت نينا إيفانوفنا نائمة، وساد الهدوء الغرفة وقبلت نادية أمها وسوت لها شعرها، وقفت حوالي دقيقتين ثم عادت إلى أسفل على مهل كان المطر شديداً في الخارج ووقف الحوذي بعربته المغطاة بجوار الباب وملابسه كلها مبللة وقالت الجدة عندما بدأ الخدم يرتبون الحقائق في العربية:

- لن تتسع لكما يا نادية ما حاجتك إلى التوديع في هذا الجو هلا بقيت في البيت يا للمطر؟.

وأرادت نادية أن تقول شيئاً ولكنها لم تستطع وها هو ذا ساشا يجلس نادية



ويغطى ساقها بمئزرة وها هو ذا نفسه يجلس بجوارها .

وصاحت الجدة من السلامك: طريق السلامة في رعاية الله اكتب لنا يا ساشا من موسكو حسناً، الوداع يا جدتي فلتترك السماوات ودمدم ساشا ياله من جو! الآن فقط بكت نادية أصبح واضحاً لها الآن أنها راحلة حتماً، الأمر الذي لم تكن واثقة منه عندما ودعت الجدة وعندما كانت تتطلع إلى أمها وداعاً يا مدينة وفجأة تذكرت كل شيء: أندريه، وأباه، والشقة الجديدة، والمرأة العادية مع المزهريّة، ولم تشعر بالخوف من كل ذلك ولم تحس له وطأة، وبدا ساذجاً وتافهاً وتراجع إلى الوراء، إلى الوراء وعندما استقلا العربة وتحرك القطار، انكمش كل هذا الماضي الكبير والخطير قبضة صغيرة، وتكشف مستقبل ضخم عريض لم يكن واضحاً قبل الآن، وقرع المطر زجاج العربة، ولم يظهر سوى حقل أخضر، ومقرت أعمدة البرق والطيور الجالسة على أسلاكها، وفجأة بهرتها السعادة، وتذكرت أنها ذاهبة إلى الحرية، والتعلم، وهو نفس الأمر الذي كان يسمى في الماضي البعيد الذهاب إلى القوزاقلد كانت تضحك وتبكي وتصلي.

وكان ساشا يردد مبتسماً: - لا بأس، لا بأس.



مر الخريف، وتمر من بعده الشتاء وأصبحت نادية تعاني وحشة شديدة وتتذكر كل يوم أمها وجدتها وتفكر في ساشا وكانت تتلقى من المنزل رسائل هادئة، طيبة، وبدأ أن كل شيء قد غفر ونسي وبعد الامتحانات، في شهر مايو سافرت إلى البيت وهي ممثلة صحة ومرا، وتوقفت أثناء الطريق في موسكو لتري ساشا وجدته مثلما كان في الصيف الماضي: بلحية، منفوش الشعر، وفي نفس السترة والسروال الخشن، وبنفس العينين الواسعتين الرائعتين ولكنه بدا مريضاً، مرهقاً، وهرم وهزل ولم يفارقه السعال والسبب ما بدا لنادية رمادياً، ريفياً وقال وهو يضحك بمرحيا إلهي، نادية جاءت يا عزيزتي الوديعه.

وجلسا في الورشة التي كانت معبأة بالدخان وفاحت فيها إلى درجة خانقة رائحة الجواش والأصباغ ثم توجهتا إلى غرفته، وكانت معبأة بالدخان وأرضيتها مغطاة بالبصاق وبجوار السماور البارد على الطاولة كان طبق مكسور وورقة سوداء، وكان على الطاولة وعلى الأرض عدد كبير من الذباب الميت وبدأ واضحاً من كل شيء أن حياة ساشا الخاصة قد رتبت بإهمال، وكيفما اتفق، باحتقار تام للوازم الراحة، ولو أن أحداً تحدث معه عن سعادته الخاصة وحياته



الخاصة وعن الحب الذي يكنه له لما فقه شيئاً ولضحك.

وحدثته نادبة بعجلة:

لا بأس، كل شيء سار على ما يرام زارتني ماما في بطرسبرج في الخريف، وقالت إن جدتي غير غاضبة وإن كانت تتردد على غرفتي كثيراً وترسم علامة الصليب على الجدران وكان ساشا مرحاً، ولكنه كان يسعل ويتحدث بصوت مشروخ، وحدثت فيه نادبة وهي لا تفهم أهو مريض مرضاً خطيراً بالفعل أم أن ذلك يخیل إليها وقالت: - ساشا، يا عزيزي، ولكنك مريض - كلا، لا بأس إنني مريض ولكن ليس بشدة فاضطربت نادبة وقالت: - آه، يا إلهي، لماذا لا تتعالج، لماذا لا تحافظ على صحتك؟ ساشا يا عزيزي الغالي قالت وطفرت الدموع من عينيها ولسبب ما تجلى في خيالها إندرية إندريتش، والمرأة العارية والمزهرية، وكل ماضيها، الذي بدا لها الآن جد بعيد كالطفولة وبكت لأن ساشا لم يعد يبدو لها جديداً، مثقفاً، وممتعاً كما كان في العام الماضي - ساشا يا عزيزي، أنت مريض جداً جداً لا أدري ما الذي أستطيع أن أفعله لك لا تكون شاحباً هكذا كم أنا مدينة لك أنت لا تستطيع حتى أن تتصور مدى ما فعلت من أجلى يا ساشا الغالي أنت بالنسبة لي في الواقع أقرب وأعز إنسان.



جلسا وتحدثا وأحست نادية الآن، بعد أن قضت الشتاء في بطرسبرج، أنه قد انبعثت من ساشا، ومن كلماته، ومن ابتسامته، ومن هيئته كلها روائح شيء عتيق، مضي وانتهى، بل ربما طواه القبر وقال ساشا: - سأسافر بعد غد إلى الفولجا، ثم إلى المراعي طلباً للبن الخيول أريد أن أشرب لبن الخيول وسيسافر معي أحد الأصدقاء مع زوجته إنها إنسان رائع ألح عليها لكي تدرس أريدها أن تقلب حياتها وبعد أن تحدثا ذهبا إلى المحطة، وضيّفها ساشا شاياً وتفاحاً وعندما تحرك القطار ولوح لها ساشا بالمنديل وهو يبتسم، بدا حتى من ساقيه أنه مريض جداً، ولن يعيش طويلاً على الأرجح.

وصلت نادية إلى مدينتها في منتصف النهار، وعندما توجهت من المحطة إلى البيت بدت لها الشوارع عريضة جداً والبيوت صغيرة مسطحة لم يكن هناك بشر فلم تقابل سوى ضابط المعازف الألماني في معطف أصفر وكأنما كانت البيوت كلها مغطاة بالغبار أما الجدة، التي هرمت تماماً، وإن بقيت ممثلة ودميمة كما كانت، فقد أحاطت نادية بذراعيها وبكت طويلاً ملصقة وجهها بكتف نادية وهي لا تستطيع أن تنزعه وشاخت نينا إيفانوفنا بشدة هي الأخرى وازدادت قربا، وضممرت كلها، وإن ظلت كما كانت مشدودة بالكورسيه ولمعت الماسات على أصابعها.



وقالت وجسدها كله يرتعش: - يا حبيبتي، يا حبيبتي

ثم جلسن وبكين في صمت وكان واضحاً أن الجدة والأم أحستا أن الماضي ضاع إلى الأبد وبلا رجعة: لم يعد ثمة مكانة في المجتمع ولا الشرف السابق، ولا الحق في دعوة الناس إليهم هكذا الحال عندما يحدث وسط الحياة السهلة الخالية من الهموم أن تأتي الشرطة ليلاً فجأة فتجري تفتيشاً، ويتضح أن رب الدار بدد أموالاً أو زور أوراقاً، وعندئذ فوداعاً إلى الأبد أيتها الحياة السهلة، الخالية من الهموم وصعدت نادية إلى أعلى فرأت نفس الفراش، ونفس النوافذ بستائرهما البيضاء الساذجة، ورأت من النافذة نفس البستان الغارق في الشمس، المرح، الصاخب ولمست طاولتها، وجلست، وفكرت قليلاً وتغدت جيداً، وشربت الشاي بلبن دسم لذيذ، ولكنها أحست بشيء ناقص، أحست بخواء في الغرفة، وكانت الأسقف منخفضة وفي المساء أوت إلى الفراش، ولسبب ما أحست أنه من المضحك النوم في هذا الفراش الدافئ الناعم جداً وجاءت نينا إيفانوفنا للحظة، وجلست كما يجلس المذنبون، بوجل وحذر وسألت بعد صمت:

حسنا يا نادية، كيف الحال؟ هل أنت راضية؟ راضية جداً؟.

- راضية يا ماما.



ونحضت نينا إيفانوفنا ورسمت علامة الصليب على نادية وعلى النوافذ .
وقالت: أما أنا فقد أصبحت متدبنة كما ترين أتعليمين، أنني أدرس
الفلسفة الآن وأفكر كثيراً واتضح لي الآن أشياء كثيرة كالنهار قبل
كل شيء ينبغي أن تمضي الحياة كلها مثلما من خلال بؤرة العدسة.



أيونيتش

عندما كان القادمون إلى مدينة س عاصمة المحافظة يشكون من الملل ورتابة الحياة فيها، كان السكان المحليون يقولون، كأنما يعتدرون، إن الحياة في س على العكس جيدة جداً، وإنه توجد في س مكتبة ومسرح وناد، وتقام فيها الحفلات الراقصة، وأخيراً فهناك أناس شيقون وعائلات لطيفة يمكن التعرف إليها وكانوا يشيرون إلى عائلة توركين، باعتبارها أكثر العائلات ثقافة وموهبة.

كانت هذه العائلة تسكن في الشارع الرئيسي، بجوار المحافظ، في بيت ملكها وكان إيفان بتروفتش توركين نفسه، وهو رجل أسمر جميل، بدين، بسوالف، يقيم عروض الهواة التمثيلية لأغراض خيرية، ويلعب بنفسه أدوار الجنرالات العجائز، ويسعل أثناء ذلك بصورة مضحكة للغاية كان يعرف الكثير من النكات والألغاز والأمثال، ويحب المزاح والقفشات، وعلى وجهه يرسم دائماً تعبير لا تفهم منه إن كان يمزح أم يتكلم بجد وكانت زوجته فيرا يوسفوفنا، وهي امرأة نحيلة، لطيفة، في عوينات، تكتب القصص والروايات، وتقرأها بصوت



مسموع لضيوفها عن طيب خاطر أما ابنتهم، يكاترينا إيفانوفنا، الفتاة الشابة، فكانت تعزف على البيانو وباختصار كانت لكل فرد من أفراد العائلة موهبته الخاصة وكان آل توركين يستقبلون الضيوف بحفاوة ويعرضون عليهم مواهبهم بمرح، وببساطة قلبية وكان بينهم الحجري الكبير رجباً، وفي الصيف بارداً، ويطل نصف النوافذ على بستان قديم ظليل تصدح فيه البلابل ربيعاً وعندما يجلس الضيوف في الداخل، تسمع من المطبخ ضربات السكاكين، وتفوح في الفناء رائحة البصل المحمر وكان ذلك يبشر في كل مرة بعشاء لذيذ حافل.

وقد قيل أيضاً للدكتور ستارتسف، ديمتری أيونيتش، إثر تعيينه طبيباً إقليمياً واستقراره في دياليج، على بعد تسعة فراسخ من س، إنه لا بد له كشخص مثقف من التعرف على آل توركينوذات مرة، شتاء، قدموه إلى إيفان بتروفتش في الشارع فتحدثا عن الطقس، وعن المسرح، وعن الكوليرا، وتلت ذلك الدعوة وفي الربيع، يوم العيد وكان ذلك عيد الصعود وبعد أن فرغ ستارتسف من استقبال المرضى، رحل إلى المدينة ليرفه عن نفسه قليلاً، وبالمناسبة، ليشتري بعض الأشياء سار على قدميه، على مهل لم يكن قد اقتنى خيوله الخاصة بعد وهو يدندن طوال الطريق: لم أكن قد ذقت مر الدمع من كأس الوجود.



تغدى في المدينة وتنزه في الحديقة، وبعد ذلك تذكر عفواً دعوة إيفانبتروفتش فقرر أن يذهب إلى آل توركين ليرى أي ناس هؤلاء.

قال إيفان بتروفتش وهو يلقاه على الدرج: - مرحبا سعيد، جداً برؤية مثل هذا الضيف اللطيف هيا أقدمك إلى نصفي الحلو ومضى يقول وهو يقدم الدكتور إلى زوجته إنني أقول له يا فيروتشك أنه لا يملك أي حق روماني في الاختفاء هناك في المستشفى عليه أن يعطي وقت فراغه للمجتمع أليس كذلك يا روحى؟.

- اجلس هنا - قالت فيرا يوسفوفنا وهي تجلس الضيف بجوارها يمكنك أن تغالبنيزوجي غيور، إنه عطيل، ولكننا سنحاول أن نفعل ذلك دون أن يلاحظ شيئاً آه منك يا كتكوتة، يا شقيةدمدم إيفان بتروفتش برقة وقبلها في جبينها

جئت في الوقت المناسب قال مخاطباً الضيف من جديد لقد كتب نصفي الحلو رواية كبورة، وسوف تقرأها لنا اليوم.

فقالت فيرا يوسفوفنا لزوجها: ديا جانتشيكوقدموا لستارتسف يكاترينا إيفانوفنا، فتاة في الثامنة عشرة، تشبه أمها كثيراً، ومثلها نحيلة ولطيفة كانت قسماتها لا تزال طفولية، وخصرها دقيق ورقيق وكان صدرها العذري الكاعب، الجميل، العفى ينبئ بالربيع، الربيع



الحقيقي ثم شربوا الشاي مع المربي والعسل والحلويات ومع بسكوت لذيذ جداً كان يذوب في الأفواه وبحلول المساء توافد الضيوف شيئاً فشيئاً، وكان إيفان بتروفتش يحدج كلا منهم بعينه الضاحكتين ويقول: - مرحبا .

ثم جلسوا جميعاً في غرفة الجلوس بوجوه جادة للغاية، وراحت فيرايوسفوفنا تقرأ لهم روايتها وبدأتها هكذا: صقع الصقيع كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها، وسمعت ضربات السكاكين في المطبخ وتناهت رائحة البصل المحمر واطمأنت النفوس في المقاعد اللينة العميقة، وومضت الأضواء برقة في غسق الغرفة، وفي هذا المساء الصيفي، الذي تناهت فيه من الشارع أصوات وضحكات، وهبت من الفناء رائحة البنفسج، كان من العسير أن تفهم كيف صقع الصقيع، وكيف أضاءت الشمس الغاربة بأشعتها الباردة السهل الثلجي وذلك المسافرين الوحيد في الطريق كانت فيرا يوسفوفنا تقرأ عن كونتيسة شابة جميلة نشيد المستشفيات والمدارس والمكتبات في قريتها، وكيف أحبت مصورا جوالاً كانت تقرأ عما لا يحدث أبداً في الحياة، ومع ذلك كان سماعها لطيفاً ومريحاً، فكانت تتوارد إلى الذهن أفكار طيبة مطمئنة، ولا تشعر بالرغبة في الانصراف.



وقال إيفان بتروفتش بصوت خافت: - لا بأس؟.

وقال أحد الضيوف لا يكاد يسمع وهو يصغي ويحلق بأفكاره بعيداً جداً:

- نعم بالفعل.

ومرت ساعة، وأخرى وفي حديقة المدينة، المجاورة لهم، عزفت فرقة موسيقية وغنت جوقة منشدين، وعندما أغلقت فيرا يوسفوفنا دفترها صمتوا حوالي خمس دقائق وهم يستمعون إلى أغنية لوتشينوشكا التي كانت الجوقة تغنيها، وعبرت هذه الأغنية عما لم يكن في الرواية وعما يوجد في الحياة.

وسأل ستارتسف فيرا يوسفوفنا: - هل تشرين مؤلفاتك في المجلات؟ فأجابتهن، أنا لا أنشرها في أي مكاناً كتبها وأخبئها في الصوان وقالتموضحة ولماذا النشر؟ إن لدينا مواردنا.

ولسبب ما تنهد الجميع.

وقال إيفان بتروفتش لابنته: - والآن يا قطعة، اعزفي شيئاً ما.

ورفعوا غطاء البيانو، وفتحوا النوت الموضوعة هناك سلفاً وجلست يكاترينا إيفانوفنا إلى البيانو وأهوت بكلتا يديها على المفاتيح



ثم أهوت على الفور مرة أخرى بكل قوتها، ثم مرة أخرى، فأخرى وارتعش كتفاها وصدرها، وأخذت تدق بعناد على نفس الموضع، وبدا أنها لن تكف حتى تحشر المفاتيح داخل البيانو وامتلات غرفة الجلوس بالرعد كان كل شيء يردد: الأرض، والسقف، والأثاث كانت يكاترينا إيفانوفنا تعزف مقطوعاً صعباً، أطرف ما فيه صعوبته، مقطوعاً طويلاً رتيباً، فأخذ ستارتسيف يصغي ويتصور أحجاراً تهوى من جبل عال، تهوى بلا انقطاع، وأراد أن تكف عن السقوط بسرعة، وفي الوقت نفسه أعجبه جداً يكاترينا إيفانوفنا، المتوردة من التوتر، القوية، النشطة، بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها وبعد الشتاء الذي قضاه في دياليج بين الفلاحين والمرضى، كان الجلوس في هذه الغرفة، والتطلع إلى هذا المخلوق الفتى الرشيق، والطاهر على الأرجح، والاستماع إلى هذه الأصوات الصاخبة المزعجة، والراقية مع ذلك كم كان هذا لطيفاً وجديداً.

وقال إيفان بتروفتش والدموع تترقرق في عينيه عندما انتهت ابنته ونهضت: يا سلام يا قطعة، لعبت اليوم كما لم تلعب أبداً لو مت يا دينيس، فلن

تكتب أفضل من ذلك.



وأحاط بها الجميع، وهنأوها، وأعربوا عن إعجابهم وأقسموا أنهم لم يسمعوا منذ زمن بعيد موسيقى كهذه، أما هي فأصغت في صمت، بابتسامة خفيفة، ونطقت هيئتها كلها بالظفر.

- رائع ممتاز.

- رائع قال ستارتسف أيضاً منساقاً مع الإعجاب العام، وسألها: أين تعلمت الموسيقى؟ في الكونسرفتوار؟.

- كلا، أنا أستعد للالتحاق بالكونسرفتوار، لكنني حتى الآن كنت أدرسها، عند مدام زافلوفسكايا.

- هل تخرجت من مدرسة المدينة؟.

- أوه، كلا أجابت عنها فيرا يوسفوفنا - لقد دعونا المدرسين لتدريسها منزلياً ففي المدرسة أو المعهد يمكن أن تكون تأثيرات سيئة الفتاة أثناء نموها يجب أن تكون تحت تأثير أمها فقط.

فقالت يكاترينا إيفانوفنا: ومع ذلك سأذهب إلى الكونسرفتوار كلا، القطعة تحب ماما القطعة لن تفعل ما يغضب بابا وماما.

- كلا، سأذهب، سأذهب قالت يكاترينا إيفانوفنا بمزاح ونزق، ودقت الأرض بقدمها.



أما أثناء العشاء فقام إيفان بتروفتش بعرض مواهبه كان يضحك بعينيه فقط وهو يروي النكات، ويمزح، ويطرح مسائل مضحكة ويحلها بنفسه، ويتحدث طوال الوقت بلغته غير العادية التي اكتسبها بالمران الطويل على التندر، وأصبحت عادة لديه منذ زمن بعيد فيما يبدو: كبور، لم بأس، شكرا هزياً.

ولم يكن ذلك كل شيء فعندما تراحم الضيوف الشباع المسرورون فيالمدخل وهم يتناولون معاطفهم وعصيهم دار حولهم الخادم بافلوشا، أو كما كانوا يسمونه هنا: بافا، وهو صبي في حوالي الرابعة عشرة، حليق الشعر، بخدين ممتلئين.

فقال له إيفان بتروفتش:

- هيا يا بافا، مثل فاتخذ بافا وضعاً تمثيلاً، ورفع يده إلى أعلى وقال بصوت مأساوي: فلتموتي أيتها التعيسة وقهقه الجميع.

طريف قال ستارتسف لنفسه وهو يخرج إلى الشارع وذهب إلى المطعم فشرّب بيرة، ثم توجه إلى دياليج سيراً على الأقدام.

وظل طوال الطريق يدندن صوته في سمعي عذب وشجى.

وعندما استلقي لينام بعد أن قطع تسعة فراسخ لم يشعر بأي



تعب، بالعكس فقد بدا له أنه يستطيع بكل سرور أن يقطع عشرين فرسخاً أخرى.

لا بأس تذكر وهو ينعس فضحك.

نوى ستارتسف أن يزور آل توركين، ولكن العمل في المستشفى كان كثيراً جداً فلم يتمكن من اقتناص ساعة فراغ وتمر أكثر من سنة على هذه الحال من الكد والوحدة ولكن ها هم أولاء قد جاءوا من المدينة برسالة في مظروف أزرق كانت فيرا يوسفوفنا تعاني من صداع نصفي منذ زمن بعيد، ولكن نوبات الصداع تزايدت في الفترة الأخيرة عندما أصبحت القطة تخيفها كل يوم بالرحيل إلى الكونسرفاتوار وجاء إلى آل توركين كل أطباء المدينة، حتى وصل الدور أخيراً على الطبيب الإقليمي كتبت له فيرا يوسفوفنا رسالة رقيقة دعتة فيها إلى الحضور وتخفيف عذابها وجاء ستارتسف، وبعد ذلك أصبح يتردد على آل توركين كثيراً، كثيراً جداً وبالفعل فقد خفف عن فيرا يوسفوفنا إلى حد ما، فراحت تقول لجميع الضيوف إنه دكتور مدهش، عظيم ولكنه لم يعد يزور آل توركين الآن من أجل صداعها.

كان يوم عيد وأنهت يكاترينا إيفانوفنا تمريناتها الطويلة المرهقة على البيانو وبعد ذلك جلسوا طويلاً في غرفة الطعام يتناولون الشاي،



وروى إيفان بتروفتش شيئاً ما مضحكا وها هو ذا جرس الباب يدق، ولا بد من الذهاب إلى المدخل لاستقبال ضيف ما وانتهز ستارتسف فرصة الاضطراب فقال ليكاترينا إيفانوفنا همساً وهو في شدة الانفعال: أرجوك، أتوسل إليك، لا تعذبيني، فلنذهب إلى البستان هزت كتفيها كأنما تستغرب ولا تفهم ما الذي يريده منها، ولكنها نهضت وذهبت وقال وهو يتبعها:

- أنت تعزفين على البيانو بالثلاث والأربع ساعات، ثم تجلسين مع ماما، وليس هناك أية فرصة للحديث معك أعطيني ولو ربع ساعة، أرجوك.

كان الخريف يقترب، فكان الجو هادئاً وحزيناً في البستان القديم، وغطت أرض الممرات أوراق داكنة وأصبح الغسق يهبط مبكراً ومضى ستارتسف يقول: - أنا لم أرك أسبوعاً كاملاً، وآه لو تعلمين أن هذا عذاب فلنجلس أصغى إلى كان لديهما مكان مفضل في البستان: أريكة تحت شجرة قيقب عجوز عريضة وها هما ذان قد جلسا على هذه الأريكة وسألت يكاترينا إيفانوفنا بجفاء، بصوت عملي: ماذا تريد؟ أنا لم أرك أسبوعاً كاملاً، لم أسمعك منذ مدة طويلة أنا مشتاق جداً، أنا ظمآن إلى صوتك تكلمي.

أثارت إعجابه بنضارتها وبتعبير السذاجة في عينيها وخديها



حتى في كون الفستان لائقاً عليها رأى ستارتسف شيئاً رقيقاً للغاية ومؤثراً ببساطته ورشاقتها الساذجة وفي الوقت نفسه، وبالرغم من هذه السذاجة، بدت له ذكية جداً وناضجة بأكبر من سنّها كان بوسعه أن يتحدث معها عن الأدب وعن الفن، عن أي شيء، بوسعه أن يشكو لها من الحياة والبشر، رغم أنه كان يحدث أثناء الحديث الجاد أن تضحك فجأة دون مناسبة أو تركض إلى البيت كانت ككل فتيات مدينة س تقرأ كثيراً وعموما فقد كانوا فيس يقرأون قليلاً جداً، وكانوا في المكتبة المحلية يقولون إنه لولا الفتيات واليهود الشبان لوجب إغلاق المكتبة وكان ذلك يعجب ستارتسف إلى أقصى حد، وفي كل مقابلة كان يسألها بانفعال عما قرأته في الآونة الأخيرة، ويصغي مسحوراً إلى ما ترويها وسألها الآن: - وماذا قرأت في الأسبوع الأخير الذي لم نتقابل فيه؟ تحدثي أرجوك.

قرأت بيسيمسكى وماذا بالتحديد؟ فأجابت القطة ألف نفس كم كان اسم بيسيمسكى مضحكاً: أليكسي فيوفيلاك تش

- إلى أين أنت؟ قال ستارتسف بذعر عندما نهضت فجأة ومضت إلى البيت - أنا بحاجة إلى الحديث معك، يجب أن أصارحك ابقي معي ولو خمس دقائق أستحلفك فتوقفت كأنما تريد أن تقول شيئاً،



ثم دست في يده بحرج قصاصة وركضت إلى البيت، حيث جلست إلى البيانو من جديد .

وقرأ ستارتسف: اليوم في الحادية عشرة مساء انتظرنى في المقابر عند تمثال ديميتى وفكر عندما عاد إلى صوابه: ليس هذا ذكيا على الإطلاق ما دخل المقابر هنا؟ لأي غرض؟.

كان واضحا أن القطة تعبت وبالفعل فمن ذا الذي يفكر جدياً في تحديد موعد ليلاً، بعيداً خارج المدينة، في المقابر، بينما من السهل تدبير ذلك في الشارع، في حديقة المدينة؟ وهل يليق به وهو طبيب الإقليم، الرجل الذكي الرصين هذه الزفات والرسائل والتسكع في المقابر وارتكاب حماقات التي يضحك منها الآن حتى تلاميذ المدراس؟ إلى أين ستقوده هذه الغراميات؟ وما الذي سيقوله رفاهه إذا علموا؟ هكذا فكر ستارتسف وهو يتجول في النادي حول طاولات القمار، ولكنه في منتصف الحادية عشرة قرر فجأة أن يرحل إلى المقابر.

كان قد اقتنى زوجاً من الجياد وحوزيا يدعى بانتيليمون، يرتدى صديريا من القطيفة وكان القمر في السماء وساد الهدوء والدفع، ولكنه دفع خريفي وفي ضاحية المدينة، قرب المجزر، عوت الكلاب



وترك ستارتسف عربته عند طرف المدينة في إحدى الحارات، وذهب إلى المقابر سيراً على الأقدام وفكر: لكل شخص غرائبه والقطعة أيضاً غريبة ومن يدري، ربما لم تكن تمزح، وستأتي واستسلم لهذا الرجاء الضعيف الفارغ فانتشي.

قطع نصف فرسخ عبر الحقل ولاحت المقابر من بعيد خطأً أسود كالجافة أو البستان الكبير وظهر سور حجري أبيض وبوابة وكان من الممكن في ضوء القمر قراءة هذه الكلمات على البوابة: تأتي ساعة يسمع فيها جميع من في القبور ودخل ستارتسف، وكان أول ما رآه الصليبان البيضاء والتمائيل على كلا جانبي الممر الطويل العريض، وظلالاً سوداء ترتمي منها ومن أشجار الحور كان الأبيض والأسود مرئيين لمسافة بعيدة حوله، وأسدت الأشجار الناعسة أغصانها على الأبيضوبدا أن المكان هنا أكثر نوراً من الحقل وبرزت أوراق القيقب التي تشبه المخالب بحدة على خلفية الرمال الصفراء في الممرات وعلى الألواح كما كانت الكتابات على التماثيل بادية أذهل ستارتسف في اللحظات الأولى ما يراه الآن لأول مرة في حياته وما لن يتسنى له في الغالب أن يراه بعد ذلك عالم لا يشبه أي شيء آخر، عالم فيه نور القمر جميل وناعم إلى هذه الدرجة، وكأنما هنا



مهده، عالم ليس فيه حياة أبداً أبداً، ولكنك تحس في كل شجرة
حور قاتمة وفي كل قبر بوجود سر بعد بحياة هادئة رائعة خالدة
ومع رائحة أوراق الخريف ينبعث من الألواح والأزهار الذابلة الغفران
والأسى والسكينة.

الصمت يلف المكان وأطلت النجوم من السماء في استكانة
عميقة، فترددت خطوات ستارتسيف بحدة ونشاز وعندما بدأت ساعة
الكنيسة تدق وتصور نفسه ميتاً ومدفوناً هنا إلى الأبد، عندئذ فقط
خيل إليه أن أحداً يتطلع إليه، ففكر للحظة أن هذا ليس هدوءاً
وسكينة، بل وحشة العدم الصماء، واليأس المكبوت كان تمثال ديميتي
على شكل مصلى بملاك في أعلاه في زمن ما مرت بمدينة س فرقة
أوبرا إيطالية، وتوفيت إحدى المغنيات فدفنوها هنا وأقاموا لها هذا
التمثال ولم يعد أحد يذكرها في المدينة، ولكن القنديل المعلق على
المدخل عكس ضوء القمر فبدا وكأنما يشتعل.

لم يكن هناك أحد ومن ذا الذي سيأتي إلى هنا في منتصف
الليل؟ ولكن ستارتسيف انتظر وكأنما ألهب فيه ضوء القمر العواطف
الجياشة فراح ينتظر بهيام ويرسم في خياله القبلات والأحضان
وجلس بجوار التمثال نصف ساعة، ثم تمشي في الممرات الجانبية



وقبعته في يده وهو ينتظر ويفكر: كم يرقد هنا في هذه القبور من نساء وفتيات، كن جميلات، فانتات، أحبين، وتأججت شهواتهن في الليالي مستسلمات للحنان وما أسوأ مزاح أمانة الطبيعة بالإنسان، في الواقع، وما أمر أن تعي ذلك كان ستارتسف يفكر هكذا، وفي الوقت نفسه ود لو يصرخ بأنه يريد الحب وينتظره مهما كان الأمر ولم يعد ما يلمع أمامه هو القطع المرمرية البيضاء بل أجساد رائعة، رأى تكويناتها تتستر في خجل بظلال الأشجار، وأحس بدفئها، وأصبح هذا الضني لا يطاق.

كأنما أسدل الستار واختفى القمر خلف السحب، فأظلم المكان كله فجأة وبالكاد عثر ستارتسف على البوابة، فقد كان الجو مظلماً كما في ليلة خريف، ثم تخطت حوالى ساعة ونصف بحثاً عن الحارة التي ترك فيها العربة وقال لبانتيليمون أنا متعب، لا أكاد أقف على قدمي وعندما جلس بتلذذ في العربة فكر: آه، لا يجوز أن أسمن.

في مساء اليوم التالي رحل إلى آل توركين ليخطب ابنتهم ولكن الفرصة لم تكن مناسبة، إذ كان الحلاق يصفف شعريكاترينا إيفانوفنا في غرفتها كانت تستعد للذهاب إلى حفلة راقصة في النادي.

واضطر مرة أخرى إلى الجلوس طويلاً في غرفة المائدة وشرب



الشاي وعندما رأى إيفان بتروفتش أن ضيفه مستغرق في التفكير وضجر أخرج من جيبه أوراقاً وقرأ رسالة مضحكة من وكيل أعماله الألماني يقول فيها إن جميع أقفال الأبواب في الضيعة قد عندت وأن الحيطان قد جلست.

وفكر ستارتسف وهو يصغى إليه شارد البال: أظن أنهم سيعطون بائنة كبيرة كان في حالة من الذهول بعد ليلة مسهدة وكأنما سقوه شراباً حلواً منوماً وكان الضباب يلف روحه، ولكنه أحس بالفرحة والدفء، وفي الوقت نفسه كانت ثمة قطعة باردة ثقيلة في رأسه تفكر: توقف قبل فوات الأوان؟ هل هي تناسبك؟ إنها مدللة، نزقة، تنام حتى الساعة الثانية، أما أنت فابن شماس، طبيب إقليمى وقال في نفسه: وماذا؟ فليكن ومضت القطعة تقول: وعلاوة على ذلك إذا تزوجتها فسوف يرغمك أهلها على ترك العمل في الإقليم والعيش في المدينة.

وأخيراً دخلت يكاترينا إيفانوفنا في فستان سهرة ديكولتيه، جميلة، نظيفة، فمتع ستارتسف عينيه منها وتملكه الإعجاب لدرجة أنه لم يستطع أن يتفوه بكلمة، بل أخذ يتطلع إليها ويضحك وهمت بالانصراف فنهض فالمرضى في انتظاره فقال إيفان بتروفتش:



طيب، ما العمل، اذهب، وبالمناسبة توصل القطعة إلى النادي كان
مطر خفيف يسقط في الخارج، والظلام حالك، ومن سعال بانتيليمون
الأبح وحده كان يمكن تحديد مكان العربة وشدوا غطاء العربة.

وقال إيفان بتروفتش وهو يجلس ابنته في العربة: - أنا أفقت
من النوم، أنت أفقت، هو أفاق، هم أفاقوا هيا، تحرك وتحركو وقال
ستارتسف: لقد ذهبت أمس إلى المقابر كم كنت ظالمة وقاسية
على هل كنت في المقابر؟ نعم، وانتظرتك حتى الساعة الثانية كنت
أتعذب فلتتعذب ما دمت لا تفهم المزاح قهقهت يكاترينا إيفانوفنا
وقد أسعدها أنها مزحت بهذه الصورة الماكرة من عاشقها وأنه
يحبها إلى هذه الدرجة، ولكنها صرخت فجأة رعباً، ففى تلك اللحظة
انعطفت العربة بحدة إلى بوابة النادي فمالت وطوق ستارتسف
خصرها فالتصقت به مذعورة، ولم يتمالك نفسه فقبلها بشهوة في
شفتيها وذقتها، وضمها إليه بشدة فقالت بجفاء كفى.

وبعد لحظة لم تكن في العربة، وصاح الشرطي الواقف بجوار
مدخل النادي المضاء في بانتيليمون بصوت منفرمالك تقف أيها
الغراب؟ سر في طريقك ورحل ستارتسف إلى بيته، لكنه سرعان
ما عاد ارتدى فراكاً مستأجراً ورابطة عنق بيضاء قاسية كانت تنفر



وتوشك على الانزلاق عن الياقة وفي منتصف الليل كان جالساً في قاعة الجلوس في النادي يقول ليكاترينا إيفانوفنا بهيام:

أوه، ما أقل ما يعرف أولئك الذين لم يحبوا يخيّل إلى أن أحداً لم يصور الحب تصويراً صحيحاً حتى الآن، ولا أظن أنه من الممكن تصوير هذا الإحساس الرقيق البهيج المضني، ومن كابدته ولو مرة فلن يصوره بالكلمات ما الداعي للمقدمات والتصوير؟ ما الداعي للبلاغة التي لا معنى لها؟ إن حبي بلا حدود أرجوك، أتوسل إليك قال ستارتسيف أخيراً كوني زوجتي ففكرت يكاترينا إيفانوفنا ثم قالت وعلى وجهها تعبير جاد جداً: يا ديمتري أيونيتش، أنا ممتنة لك جداً على هذا التشريف، إنني أحترمك ولكن ونهضت واستطردت وهي واقفة ولكن اعذرني، لا أستطيع أن أكون زوجتك.

فلنتحدث جدياً أنت تعرف يا ديمتري أيونيتش أنني أحب الفن أكثر من أي شيء، إنني أهوى الموسيقى، أحبها بجنون، وقد وهبتها كل حياتي أنا أريد أن أصبح فنانة، أريد الشهرة والنجاح والحرية، وأنت تريدني أن أواصل الحياة في هذه المدينة، أواصل هذه الحياة التافهة الخاوية التي أصبحت لا أحتملها أن أصبح زوجة أوه، كلا، اعذرني يجب على الإنسان أن يسعى إلى هدف أسمى باهر، أما



الحياة العائلية فستقيديني إلى الأبد يا ديمتری أيونيتش وابتمت قليلاً، فعندما قالت ديمتری أيونيتش تذكرت أليكسي فيوفيلاكش، يا ديمتری أيونيتش، أنت رجل طيب، نبيل، ذكي، أنت أحسن الجميع واغرورقت عيناها بالدموع أنا أتعاطف معك من كل قلبي، ولكن ولكنك ستفهم واستدارت كي لا تبكي وخرجت من القاعة.

كف قلب ستارتسف عن الخفقان المؤلم وكان أول ما فعله عندما خرج من النادي أن انتزع من رقبتة ربطة العنق القاسية وتنفس بملء رئتيه كان يشعر بشيء من العار وبأن كرامته أهينت إذ لم يتوقع الرفض ولم يصدق أن كل أحلامه ولوعته وآماله قد أفضت به إلى هذه النهاية الحمقاء كما في مسرحية صغيرة من عروض الهواة وكان يشعر بالشفقة على إحساسه، على حبه هذا، كان يشعر بالشفقة إلى درجة بدا له فيها أنه مستعد أن ينفجر بالبكاء أو يهوى بالشمسية على ظهر بانتيليمون العريض.

ظل ثلاثة أيام غير قادر على العمل، ولم يأكل ولم ينم، ولكن حينما بلغه أن يكاترينا إيفانوفنا قد سافرت إلى موسكو للالتحاق بالكونسرفاتوار، هدأت نفسه وعاد إلى حياته السابقة وفيما بعد، حين كان يتذكر أحياناً كيف تمشي في المقابر، وكيف قطع شوارع



المدينة كلها بحثاً عن فراك، كان يتمطى في كسل ويقول:

- أوه، يا لها من هموم كانت مرت أربع سنوات، وأصبح لدى ستارتسف الكثير من الزبائن في المدينة وكل صباح كان يستقبل المرضى في دياليج بعجلة ثم يرحل إلى مرضاه في المدينة، ويرحل الآن لا في عربة بجوادين بل في عربة ترويكاً بأجراس، ويعود إلى البيت في ساعة متأخرة أصبح ممثلاً، بديناً، لا يحب السير على قدميه إذ كان يعاني من اللهاث وبانتليمون أيضاً أصبح بديناً، وكلما ازداد امتلاء زفر بحسرة واشتكى من حظه المرير: فقد قهرته السوافة كان ستارتسف يتردد على بيوت كثيرة ويلتقي بأناس كثيرين ولكنه لم يوطد علاقته بأحد كان البرجوازيون الصغار يثيرونه بأحاديثهم وبآرائهم في الحياة، بل حتى بمظهرهم وعلمته الخبرة شيئاً فشيئاً أن البرجوازي الصغير، طالما تلعب معه الورق أو تشرب وتمز، فهو شخص مسالم، سمح، بل وحتى ذكي، ولكن ما إن تتحدث معه عن شيء لا يؤكل، عن السياسة أو العلم مثلاً، حتى يواجه مأزقاً أو يشرع في الثرثرة بفلسفة بليدة، شريرة، حتى لا يعود أمامك إلا أن تشيح بيديك وتبتعد وحينما حاول ستارتسف أن يتحدث حتى مع برجوازي ليبرالي عن أن البشرية والحمد لله



تسير إلى الأمام وأنها في المستقبل ستستغنى عن جوازات السفر وعن عقوبة الإعدام، نظر إليه البرجوازي شزراً وبريبة وسأله: وإذن فسيكون بوسع أي شخص أن يذبح في الشارع من يشاء؟ وعندما كان ستارتسف يتحدث في جمع أثناء العشاء أو تناول الشاي عن أنه لا بد من الكدح، وأنه لا يمكن أن تعيش بلا عمل، كان كل شخص يعتبر ذلك لوماً موجهاً إليه، فيتملكه الغضب ويشرع في الجدل بالبحاح وعلاوة على ذلك كله لم يكن البرجوازيون الصغار يفعلون أي شيء مطلقاً، ولم يهتموا بشيء، وكان من المستحيل إيجاد مادة للحديث معهم فصار ستارتسف يتجنب الأحاديث ويأكل فقط ويلعب وعندما تصادف زيارته عيداً عائلياً في أحد البيوت ويدعونه للمائدة، كان يجلس ويأكل في صمت محدقاً في طبقه وكل ما كان يقال آنذاك كان غير طريف، ظالماً، أحرق، فيشعر بالانزعاج والاضطراب، ولكنه يصمت ولأنه كان يصمت دائماً في تجههم ويحدق في طبقه فقد سموه في المدينه البولندي المتعجرف رغم أنه لم يكن بولندياً في أي وقت من الأوقات.

كان يتحاشى ألوان التسلية من أمثال العروض المسرحية وحفلات الموسيقى، وفي المقابل كان يلعب كل مساء، حوالي ثلاث ساعات،



وباستمتاع وكانت لديه تسليية أخرى انغمس فيها شيئاً فشيئاً ودون أن يلحظ: فقد كان كل مساء يستخرج من جيوبه أوراق البنكنوت التي حصل عليها من مرضاه، وأحياناً تكون جيوبه محشوة بحوالي سبعين روبلاً وخلال السنوات الأربع التي مرت بعد رحيل كاترينا إيفانوفنا لم يزر آل توركين سوى مرتين بدعوة من فيرا يوسفوفنا التي كانت لا تزال تتعالج من الصداع النصفي وكانت كاترينا إيفانوفنا تأتي إلى أهلها كل صيف لقضاء العطلة، ولكنه لم يرها مرة واحدة، لم يتصادف ذلك وما هي ذي السنوات الأربع قد انصرفت وذات صباح هادئ دافئ تسلم رسالة في المستشفى كتبت فيرا يوسفوفنا تقول إنها اشتاقت إليه جداً ورجته أن يتفضل بزيارتها حتماً ليخفف من عذابها، كما أن اليوم بالمناسبة عيد ميلادها وفي أسفل الرسالة أضافت: أضم صوتي إلى رجاء ماماك.

وفكر ستارتسف ثم رحل مساء إلى آل توركين استقبله إيفان بتروفتش مبتسماً بعينيه فقط بونجور عليكم.

وصافحت فيرا يوسفوفنا التي هرمت بشدة وابيض شعرها يد ستارتسفو تنهدت بتصنع وقالت: - أنت يا دكتور لا تريد أن تغازلني، ولا تزورنا أبداً، أصبحت عجوزاً بالنسبة لك ولكن ها هي ذي أخرى



شابة قد جاءت، فربما كان حظها أسعد .

وماذا عن القطة؟ لقد هزلت وشحبت، وأصبحت أجمل وأرشق، ولكنها الآن يكاترينا إيفانوفنا وليست القطة لم تعد فيها تلك النضارة السابقة وتعبير سذاجة الطفولة وكان في نظراتها وحركاتها شيء جديد، شيء متردد ومذنب كأنها لم تعد تشعر هنا، في دار آل توركين، بأنها في بيتها من زمان لم نرك قالت وهي تمد يدها إلى ستارتسف، وكان واضحاً أن قلبها يدق بقلق وحدجته بنظرة فاحصة وبفضول واستطردت كم سمت لוחتك الشمس، وكبرت، ولكنك عموماً لم تتغير كثيراً.

كانت الآن أيضاً تعجبه، تعجبه جداً، ولكن كان ينقصها شيء ما، أو كان فيها شيء زائد، ولم يكن بوسعه أن يحدد هذا الشيء، ولكن شيئاً ما كان يعوقه عن الإحساس بما كان يحس به من قبل لم يعجبه شحوبها، والتعبير الجديد على وجهها، وابتسامتها الواهنة، وصوتها، ثم بعد فترة قصيرة لم يعد يعجبه فستانها، والمقعد الذي جلست فيه، لم يعجبه شيء ما في الماضي عندما كاد أن يتزوجها وتذكر حبه وأحلامه وآماله التي أثارته قبل أربع سنوات، فشعر بالحر.

شربوا الشاي مع كعكة حلوة ثم قرأت فيرا يوسفوفنا رواية عما



لا يحدث أبداً في الحياة، وأصغى ستارتسف وهو يتطلع إلى رأسها الأشيب الجميل منتظر أن تنتهي من القراءة وفكر: العاقل من الموهبة ليس ذلك الذي لا يجيد كتابة الروايات، بل ذلك الذي يكتبها ولا يجيد إخفاء ذلك وقال إيفان بتروفتش:

- لا بأس ثم عزفت يكاترينا إيفانوفنا على البيانو بصخب ولمدة طويلة وعندما انتهت من العزف شكروها طويلاً وأبدوا إعجابهم بها. وفكر ستارتسف حسناً أنني لم أتزوجها ونظرت إليه وهي تنتظر على ما يبدو أن يقترح عليها الخروج إلى البستان، ولكنه جلس صامتاً فقالت وهي تقترب منه: هيا نتحدث كيف أحوالك؟ ماذا لديك؟ لقد كنت طوال هذه الأيام أفكر فيك استطردت بعصبية أردت أن أرسل إليك خطاباً، أردت أن أذهب بنفسي إليك في دياج، وقررت بالفعل أن أذهب، ولكنني عدلت، فمن يدري ما هو إحساسك الآن نحوى بأي قلق انتظرت مجيئك اليوم أستحلفك بالله، فلنذهب إلى البستانوذهبا إلى البستان، وجلسا هناك على الأريكة تحت القيقب العجوز كماحدث منذ أربع سنوات وكان الجو مظلماً وسألته يكاترينا إيفانوفنا: - إذن كيف أحوالك؟ فأجاب ستارتسف: - لا بأس الأمور تسيرولم يستطع أن يجد أكثر من ذلك فصمتا وقالت يكاترينا إيفانوفنا وغطت وجهها



بيديها: إنني مضطربة، ولكن لا تلق بالا كم أشعر بالراحة في البيت، كم أنا سعيدة برؤية الجميع ولا أستطيع أن أعود على ذلك كم من ذكريات بدا لي أننا سنتحدث بلا توقف حتى الصباح كان الآن يرى عن قرب وجهها وعينيها الbraقتين، فبدت له هنا، في الظلام، أصبى مما كانت في الغرفة بل وكأنما عاد إليها التعبير الطفولي السابق وبالفعل فقد كانت تنظر إليه بفضول ساذج، وكأنما تريد أن تتأمل وتفهم عن قرب هذا الرجل الذي أحبها في وقت ما بذلك التأجج وتلك الرقة وتلك النهاية التعيسة وشكرته عيناها على ذلك الحب فتذكر كل ما حدث، بأدق التفاصيل، كيف جال وسط المقابر، وكيف عاد بعدها إلى البيت قرب الصباح متعباً، فأحس فجأة بالحزن والأسف على الماضي وومضت في روحه جذوة.

فقال: - أتذكرين كيف أوصلتك إلى الحفل في النادي؟ كان المطر يسقط آنذاك، والدنيا مظلمة وازدادت الجذوة اشتعالاً في روحه، وأحس برغبة في الحديث والشكوى من الحياة وقال متتهداً: إياه ها قد سألتني عن أحوالي وكيف أحيا كيف نحيا هنا؟ لا نحيا.

ولكن لديك عملاً، هدفاً نبيلاً في الحياة كم كنت تحب الحديث عن المستشفيات كنت أنا حينذاك غريبة، أتصور نفسي عازفة



عظيمة كل الأنسات الآن يعزفن على البيانو، وأنا أيضاً كنت أعزف مثل الجميع، ولم يكن في أي شيء مميز أنا عازفة مثلما أمي كاتبة وبالطبع لم أفهمك آنذاك، ولكن فيما بعد، في موسكو، كنت كثيراً ما أفكر فيك كنت أفكر فيك وحدك يالها من سعادة أن تكون طبيباً إقليمياً وتساعد المعذبين وتخدم الشعب وكررت يكاترينا إيفانوفنا بحماس يالها من سعادة عندما كنت أفكر فيك في موسكو كنت تبدولي مثالياً، سامياً.

وتذكر ستارتسيف الأوراق التي يستخرجها من جيوبه بلذة كل مساء فانطفأت الجذوة في روحه ونهض لكي يذهب إلى البيت فوضعت ذراعه في ذراعها ومضت تقول:- أنت أفضل من عرفتهم في حياتي سوف نتقابل ونتحدث أليس كذلك؟ عدني أنا لست عازفة بيانو، ولم أعد مخدوعة فيما يخصني ولن أعزف في حضورك أو أتحدث عن الموسيقى وعندما دلفا إلى البيت ورأى ستارتسيف في ضوء المساء وجهها وعينها الحزبتين الشاكرتين المتفرستين والمصوبين إليه، أحس بالقلق وفكر ثانية حسناً أنني لم أتزوجها آنذاك.

ونهض يودع فقال إيفان بتروفتش وهو يوصله:

ليس لديك أي حق روماني في الرحيل دون عشاء هذا من جانبك



محورى جداً هيا، مثل - قال مخاطباً بافا في المدخل أثار ذلك كله ستارتسف وعندما جلس في العربية ونظر إلى البيت المظلم والبستان اللذين كانا رقيقين وعزيزين عليه جدا في زمن ما، تذكر على الفور كل شيء بعد ثلاثة أيام جاء بافا برسالة من يكاترينا إيفانوفنا .

أنت لا تزورنا لماذا؟ كتبت تقول أخشى أن تكون قد تغيرت نحونا أخاف وأشعر بالرهبة من مجرد التفكير في ذلك فلتطمئننى، تعال وقل إن كل شيء على ما يرام.

أنا بحاجة إلى التحدث معك المخلصة ي.ت.قرأ هذه الرسالة، وفكر، ثم قال لبافان قل لها يا عزيزي إنني لا أستطيع الحضور اليوم أنا مشغول جداً قل لها إنني سأتى بعد حوالي ثلاثة أيام.

ومرت ثلاثة أيام، ومر أسبوع لكنه لم يذهب وذات مره كان ماراً بجوار منزل آل توركين فتذكر أنه ينبغي أن يعرج ولو لدقيقة ولكنه فكر ولم يعرج وبعدها لم يزر آل توركين أبداً.



المحتويات

7	الراهب الأسود
59	الفلاحون
102	في الخور
164	كاشتانكا
164	الفصل الأول: سلوك مشين
168	الفصل الثاني: الرجل الغريب الغامض
172	الفصل الثالث: تعارف جديد سار جدا



183	 الفصل السادس: ليلة مزعجة
190	 الفصل السابع: بداية غير موفقة
271	 العروس
299	 أيونيتش